

قمر كيلاني

المواءة

رواية



قرآنی

السوانح

جبل

رواية

منشورات وزارة الثقافة والتراث التّقديم

دمشق - ١٩٨٣



الاهداء

اليهما .. صديقين غالين

- (ف) الذي اخرج هذه الرواية الى النور
- (ن) التي تفتح عطاءات كبراعم النور
- (قمر)

الفصل الأول

الأم هنية تصيبها وعكة خفيفة لا تدري معها لم تخطر لها فكرة الموت ، تقول لابنتها و كأنها تخاطب نفسها :

— أريد أن أكتب وصيتي . . أن أوزع ما أملك على أولادي . أريد أن أعرف ما الذي تبغيه سامية أولاً من تركي . أنت ياسامية البنت الوحيدة بين أولادي الذكور .

ماترغبين فيه هو الأهم . طبعاً سأعطيك ما عندي من الحلبي . هذا حرقك . . إضافة إلى أشيائي الخاصة وبعض التحف وعدة أبيك الكاملة للصيد وبعض الكتب النادرة . أنت مثقفة . أم تفضلين النقود على العقارات والأرض ؟ .. ربما كانت النقود أفضل فأنت شبه أرملة ولا من يعينك على تحصيل الأجر من المستأجرين أو حصة المحسول من

الفلاحين . الأمور أصبحت صعبة هذه الأيام ، سأقسم
الخصوص بالعدل . ولكن لا . لتكن حصتك أكبر .
ما المانع ؟ . أنت تستحقين أكثر من إخوتك . تسهرين
علي . . تعيشين معي . . وأنا . . أنا حرة في أموالي . .
صحيح أنها في الأصل أموال أبيكم ولكنها الآن لي ، سجلها
باسمي حتى لا يتحكم أحد بي من أولادي . كان يقول
— رحمة الله — .

لابوصي الآباء بالأبناء . . بل العكس هو الصحيح .
أولادي — أغناهم الله عنـي — غير محتاجين لي ، هل نذهب
إلى المحامي يسامية ؟ .

نذهب إلى المحامي . . أو تطلبـينه في الهاتف ليأتي
بعد الظهر . .
— كما تريـدين . .

— بل الأفضل أن نذهب فقد نحتاج إلى الكاتب
العدل . . سأخذـ معـي كل الأوراق . . وكشف المصرف .
آه ياـ بـنـي أـشـعـرـ أـنـيـ مـهـدـوـدـةـ .

— تتحدى عن الترفة دون أن تسأليني ماذا أريد منها ؟

— لعلني أعرف .

تضحك سامية :

— أريد شيئاً لم يخطر في بالك .

تجفل الأم هنية . ما الذي لم يخطر في بالها .

— سأعطيك إياها .

هل تريدين أوراق أبيك ؟ . تنظر سامية بعينين ناريتين .

— تعطيني إياها كلها . . . مع دفتر المذكرات .
يشحب وجه الأم هنية . .

— دفتر المذكرات لن يأخذه أحد إلا بعد موتي .

ثم إنه من حق أخيك الأكبر هذه هي الأصول . . . أن تبقى أسرار العائلة مع أكبر ابنها .

تظل عينا سامية الناريتان تتسلطان على عيني الأم .

— ماذا ستفعلين به ؟ . . أبوك مات . . وماتت معه أسراره . وفي الدفتر لا يوجد سوى حوادث حياته .

سامية تهمس بلهفة .

— إذن فقد قرأتها . دعني إذن أقرأها أنا الأخرى
على الأقل .

ترتبك الأم . تواصل سامية :

— من أموالك لأريد أي شيء . . . بل أريد منك أنت.

تنذمر الأم :

— لم أفهم . . ما الفرق بين ماتريدين مني وما تريدين
من أموالي ؟ .

تهمس سامية من جديد :

— فرق كبير . اتركي الحلبي لكنائك . . والتحف
والأشياء الثمينة لابنائك . . والكتب لابنائهم . أما أنا
فأعطيك شيئاً من نفسك :

تضجر الأم هنية :

— لاتتفلسي يا سامية . . اتركي الأمور واضحة :
لايضايقني منك إلا أنك تعامليني أحياناً كأنني جامعية
مثلك . أم أنك تمزحين ؟ ما الشيء الذي سأعطيك إياه ؟

بخصوص تتسخ بها سامية :

— أريد أن تكتبي لي عن كل شيء في حياتك . . .
ثم أن تعطيه لي .

الأم هنية تجib بحجة :

— تريدين أن أكتب مذكرات مثل أبيك ؟ . . . لست
قادرة على أن . . .

تقاطعها سامية وقد التصقت بها :

— ليس هذا بالضبط . . . ولكن افترضي أنني لا أعرفك . . .
واكتبي كل شيء . . . بدءاً من اسمك وطفولتك حتى . . .

بضحكه صفراء تقاطعها الأم :

— حتى ماذا ؟ هذا شيء سخيف . . . ومضحك يا سامية .

سامية تبتعد عن الأم هنية . بشيء من الجد تقول :

— ولم ؟ .. ما يدرني أن ما أعرفه عنك حتى اليوم
صحيح ؟ أكثر معلوماتي تلقيتها من الآخرين . . . وقناعاتي
عنك شكلتها بنفسي . وقد يكون في ذلك من الخطأ أكثر
بكثير من الصواب . . أريد أن أعرفك من خلاك . .

أريد أن أعرفك من خلالك أنت . . أتصور أحياناً أن اسمك ليس هنية . لاتضحكني هذا ما أريده ولا أريد شيئاً آخر .

الأم هنية تبدأ تلين للفكرة :

— لكنه عمل شاق يسامية . . أنا لا أجيد الكتابة وتركت المدرسة من الصف السادس .

سامية تعود فتتسمح بها :

— لكنك كنت تعتبرين متعلمة في زملك . ألم تشغلي في التعليم فترة ؟

تنهد الأم :

— صحيح . . آه . . رحم الله زمننا . . ورحم أبي الذي علمني .

تردف سامية :

— لا يهم أن تكتبي باسلوب عال . . المهم أن تسردي ماتريدين كما يخطر لك . .

مع بقية محاولة من الأم للتهرب تقول :

— ولكن . . لم هذا الطلب يسامية ؟ ألا يغريك كل

ما عندك من أشياء جميلة حتى تصري على هذا الشيء الغريب؟
سامية تقبل وجنتيها :

— اقسم لك يا أمي أني لا أريد أي شيء سوى هذا . . .
وإذا لم تنفدي طلبي فمعنى ذلك أنك لا تريدين أن أخذ
منك أي شيء .

تسود فترة صمت . مثل هدوء يسبق رياحاً ، تحس
الأم هنية الموقف :

— أنا متأكدة أنك ستراجعين عن طلبك عندما أفتح
الخزانة وأضع بين يديك ما عندك .
والخزانة تفتح . وتنثر أشياء ثمينة . أثمن مما تقدر
سامية تبرق أمامها باغراء بالغ . تضحك بتحمّد .

— أخي صلاح في الكويت ليست أحواله المادية على
مايرام . . وأولاده خمسة ولا يمنعه من الرجوع إلا برياؤه . .
وفائز لا يملك شيئاً وعنه هذه الزوجة المبذلة . .
والثالث . . رحمة الله ترك لنا ولدين . كلهم يستحقون
ما عندك يا أمي . .

آخر سهم كان علبة مطعمه بالصدف . . فيها أساور وأقراط وعقود . . تعبر بها سامية بلا مبالاة .

— هذا العقد اللؤلؤي يليق بصدر فاتن زوجة فائز . . وهذه الأسوره من الياقوت ستفرح قلب هناء ابنة صلاح . . وهذا القرط . . وهذا . . تنفجر الأم هنية :

— يكفي يا سامية . . يكفي . . أنت امرأة غريبة الأطوار .

تغلق الأم العلبة بعنف . . تضعها في الخزانة . . سامية تتعلق بعنق أمها من الخلف . . تقبلها . . مثل حمامه تنقر حباً بفرح . . تقول الأم مستسلمة :

— سأكتب . . وسترين النتيجة . . سوف تطلبين مني أن أعفiate من هذا الشرط ، وتأخذين مقابلة أي شيء من الخزانة . . أنا لن أخسر شيئاً .

تهمس سامية :

— وأنا لن أتراجع .

* * *

ما الذي يتفجر داخل سامية؟ ت يريد أن تكشف
حقيقةها للناس و تكشفحقيقة الناس لنفسها لم
لا تعيش حياة موحدة دون ازدواجية و تستر و هروب؟ . . .
لم لا تعرف وجوه من حولها بلا أقنعة؟ . . خير و شر . .
طهارة و دنس . . ملائكة و شياطين . . طيبة و خداع ،
لعلها يجب أن تبدأ بنفسها . . امرأة ذات عدة وجوه . .
أو بلا وجه على الإطلاق. في أعماقها واد أسود رهيب
لاتطل عليه مرة ألا و تشعر بالدوران وأنها ستسقط في هوة .
ستكتب هي الأخرى مذكراتها . . ستنقض كل نائمة
و خلجة من روحها . . ستقف عارية أمام مرآة الذات .
ما أفعع أن يقف المرء عارياً أمام ذاته لكنه لاشك مريع
كما هو فاجع . إن لم تفعل فلا بد أن تنتحر . . أو تطوي
روحها في عزلة نهائية .

و كريم . . زوجها . . ألم يقل لها في الليالي الأخيرة قبل
أن يفر إلى لبنان أنه ينفض أمامها نفسه كما ينفض غصن
ناضج ثمره؟ ألم يحدثها عن ماضيه كله منذ فتح عينيه للحياة
حتى التقى بها .

أجراس كلماته تجلجل في أعماقها . . الهتف في المظاهرات . . توزيع المناشير . . السجن والضرب والتعذيب . . العقوبات الصارمة من أب قاس نصف جاهل . . المروب من البيت بعد موت الأب والتشرد في الشوارع . . ثم اللجوء إلى امرأة سيئة السمعة تملأ (بنسيوناً) . . وبين العنف والحرمان يكون نضال شريف . . من أجل لقمة العيش . . ومن أجل المبدأ والعقيدة وأثناء الدروس الخصوصية لأولاد الأسر الغنية يلتقي بها . . وتبهرها شخصيته . . وفي لقاء بارد كالصقيع يطلبها من أبيها . . وتكون الغطرسة والشدة . . وبعد ذلك تنهار علب الكرتون التي تتحجز بها البورجوازية الجديدة بناتها ويكون الزواج . «أنا ياسامية إنسان بسيط . . . ومخلص . لا أفكر أن أقيم أي علاقة مع فتاة . همي هذا الوطن المسحوق المكبل بالقيود . . لابد أن ننتصر من خلال مبدأ عظيم .. الأجر الذي أخذته منكم كان يحرقني كالنار . . يجب أن تكون لدينا مدارس تعطي علمًا حقيقياً . . وبالمجان . وأنا ، يجب أن يكون لي مكاني في وطني . كمشف . ما الذي ينشر ونه

من ثقافة بين أيديكم ؟ . لا أكثر من روايات رخيصة . .
وكتب وأفلام تافهة . كنت مضطراً لأن أعطيك دروساً .
فلم يكن لي أي مورد . من أعمال عدة طردوني لأنني
أنتقد . . وأحتاج . . وأثور . وأنت . . الدمشقية المترفة
ابنة - مجيد الشامي - كيف رضيت بي ؟ . . لو لم أكن
صورة عن أخيك الذي استشهد عام ١٩٤٨ في حرب
فلسطين هل كنت فعلت ؟ هل كان أبوك قد رضخ ؟ » .

وتزوجته . . لعل دماً جديداً يسري في جسد أسرتها
البارد الذي خمدته العادات والتقاليد . . لعلها تخترق تلك
الحلقة السحرية التي نسجتها بنات طبقتها حول الزواج . .
لعل حياة من نوع آخر تسجّبها إلى عالم يرعش فيها الصدق
ويتألق الحب . ولكن التجربة كانت صعبة . . وذات
طعم مر . . اشتغل كرييم من أجل مبادئه . . ونزف دمه
سرأ . . وجهدت لكي تظل لها صورة حياة زوجية . .
طبيعية ومعقولة أمام الآخرين . فاين إذن ينابيع نفسها التي
تبث لها عن منافذ لتغدو سوّاقي وأنهاراً . لابد أن تسدها
بالحجارة . . وأن تهدم فوقها كل الأبنية حتى تظل راقدة

في أمكتتها . . وتجاهلت ذاتها . . وظللت تحلم طوال سنوات
خمس بأن تمزق الحجب عن هذه الذات لتطير فراشة زرقاء .
انتصرت المبادئ . . . هذا ما أصبح نوراً وناراً .
احترق أكواوم القش في طبقتها وأكواوم كانت تتزايد
باستمرار . . وبشكل جنوني عجيب وقفت ترقب الحرائق
ولا تند عنها صرخة . . أو يطرف لها جفن .

ماذا يسامية ؟ . هل أنت ضدنا . . ضد أبيك ومن
هم النجوم في سماء حياتك وحياة هذا البلد. وهي لاترد . .
لاترى سوى النور الذي طالما تحدث عنه كريم . . يغمر
الأكواخ . . يفرد جناحيه فوق المعامل . . يشمر ازدهاراً
وفرحاً ، ورأت الوجوه من حولها صامدة كالرصاص . .
جامدة كالرصاص . حتى وجه أبيها لم يعد يهل بالبشر إذ
يراهما . . وجهه أصبح معتاباً : لماذا يسامية . . لماذا
تزوجت من ليس منا . . من هدم صر وحنا ولاندري ماذا
يفعل أكثر ؟ . وجه أبيها أصبح معدباً . . ثم يائساً . . ثم
انطفأ بصمت .

ويوم جنازته وقع اضطراب في الأسرة . . وشقاق بين الأقارب . . ونفور من الأصحاب والأحباب . لم يشيشه إلا قلائل . . وقال الناس مات مجید الشامي . . والد زوجة كريم . . كريم السعدي . . ألا تعرفونه ؟ .

واتضح أن كريم السعدي أصبح معروفاً أكثر من أبيها . . ذا مركز مرموق أكثر من أبيها . . وباب بيت - مجید الشامي - الذي افتتح للمعززين . . من رفاق كريم . . عاد فأغلق في وجه الجميع . . وهاجر صلاح إلى الكويت . . وفر فاينز برصيد أبيه التجاري لا المالي إلى حلب . . وتقوّقت هي في بيتها مثل أرنبة مذعورة . . وعندما باعت أمها البيت الكبير سكنت في شقة صغيرة . . وهاهي بعد أن ترك كريم ساحة نضاله وانهزم إلى لبنان . . تعيش مع أمها في هذه الشقة الصغيرة .

ستان . . أو أقل . . أو أكثر . . وكل شيء يغدو أكثر ركوداً . . أكثر جموداً . . حتى الهواء الذي تتنفسه سامة غداً أكثر ثقلًا .

* * *

الأم هنية تستسلم لرغبة ابنتها العجيبة في أن تكتب حياتها . كم يبدو الأمر سخيفاً لا يجوز أن تستمر فيه . . لكن عليها أن تبدأ به لأن تحدياً وقع .

في ليلة كان شيء في داخلها رخو مثل عجين... أمسكت القلم . وارتجفت أناملها .. وأعصابها .. وأهداها . ثم كتبت .. أحسست بالشيء الرخو يتشكل .. أعجبتها اللعبة لأن تستمر . تبدأ تنسى أمراضها الخفية .. فكرة الموت والسؤال . وتكتب كل ليلة .. وتكتب . أستار متداخلة تبدأ تفصل بينها وبين العالم . تغوص في عالم سري . الشيء الرخو الذي أخذ يتشكل يبدو لها كائناً ينبض بالحياة .. إنه الماضي .. ماضيها .. وإنها الحياة التي عاشت .

ليال عشر أنجزت فيها كل ما يجب أن تكتبه .. تردد في أن تعطيه لابنتها لكن عيني سامية التاريتين المحققين في يديها باستمرار يجعلانها تراخي .

— خذلي ما طلبت ياسامية .. وإلا أحرقته .

تناولها الأوراق وتغلق باب غرفتها كما لو أنها تقطع صيتها بعالم ما من حولها .

لكن سامية لم تستطع النوم كما لم تستطع القراءة .
ارتجفت عندما لامست الأوراق وقررت أن تهرب بها
إلى المصيف حيث تشربها بهدوء . . . قطرة . . قطرة ،
حيث تفقد الأم أي أمل في استردادها . خط الارجوع .
كم تحب هذه المنطقة الفاصلة بين الأشياء . الصباح حريري
ناعم تنتشر فيه برودة أول الصيف . الهواء منعش . . .
عاشق بالروائح العطرة . سكون يسقط فوق المدينة العاصمة . . .
جوهرة المدن . مثل طائر حزين يبدو هذا الفجر . الأم هنية
تفيق مضطربة على غير عادتها . أجمل ما في حياتها هذه
الأوقات التي تشهد فيها تفتح الصباح بعد أن تصلي وتقرأ
القرآن . لكن هذا الفجر يرتعش كورقة خريف .. لا تعرف
كيف تتوضأ . . . وكيف تصلي . تحاول أن تطابق بين
حلمها وما يمكن أن يقع من أحداث . لا تستطيع . تعجز
عن أن تستخرج السعد أو النحس . . . تستبعد كل احتمال
وتتعوذ من الشيطان . نفسها تقول : لا راد لقضاء الله .
سامية تفيق : مثل وردة الصباح تفتح باشراق .

— سأذهب إلى المصيف اليوم . . . مع أوراقي . . .
أقصد أوراقك .

— وأبقى وحيدة ؟ أنا اليوم متضايقة . تشاءمت من
منام رأيته . . أعيدي لي الأوراق . إنه شؤم . .

— ماعلاقة الحلم بما كتبت ؟ الحلم حلم . . الواقع
واقع .

— استغفرى الله يا بنتي . حياتنا هي ذاتها في النوم
واليقظة . مانحن إلا كيان واحد . الحلم يؤثر على الواقع
والواقع يظهر في الحلم .

— هل أقول لك إني لن أعيدها ؟ .
يتجهم وجه الأم . سحابة سوداء تلفها . تبدو سامية
أمامها معلقة على حافة أفق مشتعل . لعله الغسق . . لعله
الغروب . تنهد الأم .

— ولكن . . . ماهو الحلم يا أمي ؟ .
تسأل سامية بنبرة تقطير عنوبة .
الأم هنية رأت في منامها أن زوبعة اجتاحت المدينة . . .
قلبتها رأساً على عقب . دخلت الأشياء كلها في دوامة .

قامت ترتجف . حسبت نفسها لم تؤد صلاة العشاء . صلت . . .
ثم عادت إلى سريرها . . عاد المنام . . أفاقت قبل الفجر . . .
ثم نامت ثم عاد المنام . نوع من الأحلام تخشاها ذات تفسير
سيء جداً لم يأت هذا الحلم إلا هذه الليلة

سامية تردد :

- خيل إلي أنني سمعت صوتاً . هل كنت تنادياني ؟ .
- بل كنت أستغفر الله من أجلك .
- الأم تقوم متباقلة إلى الخزانة . تنهادى متداعية :
- أعطيني الكتاب يا سامية .
- أي كتاب ؟
- كتاب تفسير الأحلام . . . في ثالث درج في الخزانة .
- سامية تتناول الكتاب . تقرأ عنوانه :
- « العيش في سلام بعد تفسير الأحلام » .
- أي سلام هذا يا أمي . الكتاب هو الذي جلب
للك الأحلام المزعجة .
- قلت لك ألف مرة لاتهزئي بمثل هذه الأمور

ياسامية . الأحلام رؤيا الروح عندما تشرد في الميل بعد أن تغادر الجسد . وهذا الكتاب وضعه عالم جليل وشيخ فضيل .

— أنا لأأهزأ يا أمي . . . لكنني أقول رأيي . الأحلام ؟ ما الأحلام ؟ نوازع دفينة في النفس تتجلّى بشكل مضطرب . من قال إن الروح تغادر الجسد ؟ لو غادرته لحظة مات الإنسان .

الأم هنية تتمم : أستغفر لك عنها ياسيدنا الشيخ .
تعلن سامية احتجاجها :

— لاتطليبي لي المغفرة منه يا أمي . لا أعرفه ولا أؤمن به ولا يعني تفسير الأحلام لي شيئاً .

الأم هنية تقول بتحدى واضح :

— لكنك تضعين في مكتبتك كتاباً عن تفسير الأحلام .

تججل ضحكة سامية :

— كتاب علمي لفرويد . أتمنى لو قرأته .
تردد الأم بخفوت :

— لكن هذا الكتاب شيء آخر . مفهوم ويتحدث
عما يجري مع كل واحد منا بالضبط .
تستدرك سامية :

— وهل مايجري معلم هو مايجري معي ؟ أنت تفسرين
كما تريدين .

شعاع من الغضب يلتمع في عين الأم هنية . هي في
واد وسامية في واد آخر .

حياتهما معاً قائمة على أن تطيع سامية أمها فيما ترغبه
وتريده . والأم في محاولة دائمة لأن تقترب من أفكار
سامية . لكنها تصدم . . . وباستمرار . آراؤهما متناقفة .
ولكن قليلاً ما تتناقشان ، لم تغضب إذن ؟ ما فائدة أن
تغضب ؟ تقول كأنما تحدث نفسها :

— كانت . زوبعة مخيفة . . . بدأت بكرة صغيرة
لعب بها الهواء . دارت حتى تحولت إلى دوامة . اتسعت . . .
واتسعت . . . حتى ابتلعت المدينة . البيوت . . . والأشجار
أما الناس فقد أخذوا يركضون في الشوارع . بعضهم عراة .

وبعدهم يضحكون كالجانين . لم يبق في المدينة سوى فرقة عسكرية تشق الغبار . وبائع صحف يركض وينادي والريح تطير له صحفه .

لنفسها تقول سامية : حلم يصلح لأن يكون قصة رمزية . كل شيء في هذا الحلم مدرس جيداً .

تضييف الأم وهي تلهث :

— والرأس المقطوع . الرأس المقطوع أرعب مافي المنام . الكرة التي بدأت تدور كانت على شكل رأس مقطوع .

تغمغم سامية :

— والرأس المقطوع أيضاً .

تنبر الأم :

— كان رأس امرأة .

تردد سامية :

— رأس امرأة . . رأس امرأة .

ثم تضع يدها على رأسها . تترنح . توشك أن تسقط .

الأم تكمل :

— أليس هذا إنذار شر؟ .

— إنذار شر؟ .

تجيب سامية .

— ولمن الشر؟ . . لنا؟ . . هل نحن وحدنا نعيش

في هذه المدينة؟ فيها نصف مليون إنسان . .

— لكننا منهم . . وما يصيّبهم يصيّبنا . . اللهم
عفوك وغفرانك يا رب.. ليس شيء إلا برضاك . . إن كنت
خطّطت في لوحك المحفوظ أي شر لهذه المدينة فاجعله
خيراً يا إلهي . .

من دوار متناقض تلهم سامية :

— مادام قد خط ذلك وانتهى منذ الأزل فلم تراجعينه
فيما خط؟ .

يستمر دعاء الأم :

— أنت يا إلهي غفار للذنوب . . أنت اللطيف العليم
الخبير .

تمر فترة صامتة . تنسحب سامية لتعود بالقهوة .

— قبليني يا أمي . . لا أحل على قلبي من قبلتك . .
— لكنني غير مرتاحة . .
— لتقبليني ؟ . .

— غير مرتاحة بشكل عام . كأن وحزناً خفياً في قلبي . .
— بسبب المنام ؟ . ألم ننته منه بعد ؟ .

— وهل تحدثنا به لنتهي منه ؟ . . لم نتحدث به . .
سوف أذهب لأسؤال الشيخ منصور عنه . ولكن اسمعي
اعطيني من الدرج الثالث في خزاناتي الكتاب . . هذا الكتاب
ديني . . وأبوك نفسه كان يهتم به .

سامية تقول في نفسها : ومتى كان أبي يهتم بالكتب
الدينية أو بالكتب كلها ؟ لم أره في حياتي يقرأ . .

الأم تدرك ما يحول في خاطر ابنتها :

— غريب . . أبوك لم يكن يهتم بالكتب . . ولكن
هذا الكتاب بالذات . . كانت له قصة عجيبة معه .

— حقاً ؟ . .

الأم تبتسم بمرارة :

— كانت حادثة واحدة ولكنني أراها الآن بوضوح
كبير ، كان أبوك قد اختلف مع شريكه . . وإن هناك
مكيدة مجهولة من أجل أرباح متطرفة . . ولكن دون إثبات .
تناول الكتاب . . قرأنا . . فإذا هي قصة أحد الأنبياء
والنعاج البيضاء والسوداء . هرع أبوك إلى شريكه وكأنه
عثر على اللغز أو السر . جابهه بتغيير أسلوب العمل والدعائية
وأنقذ أمواله . . أصبح يؤمن بالكتاب ويقول لي (كل ما يمر
معنا قد مر على الذين من قبلنا . . العبرة والموعظة واحدة
والحادثة هي التي تختلف مع الزمن . هذا الكتاب من أعظم
الكتب في العالم) . ما أكثر ما تضائق . . وما أكثر ما يلتحم
إلى الكتاب .

تنهد سامیہ :

— هذه ناحية خاصة جداً من حياة أبي لم أكن أعرفها .
لم تذكرها لي . . .

— لم أحذثك عنها لأنها من أسرارنا الخاصة أنا ووالدك .

— وهل ندمنت لأنك حدثتني عنها الآن؟ .

— لا . . . لم الندم ؟ . ألم أنقض لك حياتي كلها في الأوراق ؟ .

سامية تمد يدها إلى أمها بالكتاب مثل مسحورة . . . مثل منومة . وبشيء من الرهبة . والأم تنظر بقداسة :

— افتحيه .

— على أي صفحة ؟

— افتحيه . . . هكذا كييفما اتفق واقرئي . إذا كان الفأل حسناً فسيكون ما تقرئين مطابقاً لما رأيت في المنام ، وفسري كما تريدين .

سامية تقول ل نفسها : مأسهل هذا . . . أن أفسر ما أقرأ كما أريد . أسلوب سخيف في الرمزية .

الأم تدرك ما في رأس ابنتها .

— ليس الأمر سهلاً . لو كنت تقصددين الزوبعة وتحدث الكتاب عن القربان مثلاً . أو السكون الذي يعقب الذبح والقداء ل كانت النية زائفه والفال غير حسن . . ويفسد كل تفسير .

سامية تناقش ذاتها : في الرمز تحتاج إلى التطابق ، ماجدوى الرمز من دونه ؟ .. صحيح أنه يلمع ولكن لابد من وجود علاقة بينه وبين الشيء .. أو الواقع .. أو الحدث. ترتجف يدا سامية وهي تمسك بالكتاب . أية أسرار تغلف هذه الكتب . أى غموض .. بل أى سحر .. شيء ما يدفعها إلى بئر الذاكرة .. ترى الفرح الغامض في عيون النساء وهن يدرسن في صدورهن التعاوىذ ترى الأذكار بين موسيقى الدفوف .. والأولاد يمسكون أضرحة الأولياء والصالحين ، شحنة كالبرق تمزق عصباً ما فيها . هل تمسك حقاً بكتاب مقدس ؟ ماهي القدس ؟ . هل هي موجودة أم نحن الذين نضفيها على الأشياء ؟ .. لاشك أننا نحن نضفي القدس .. إذن فذراتها تشع من داخلنا . تقع فوقه فتعطيه القوة السحرية التي تجعلها ورقة على وشك السقوط .

الأم تقول :

— افتحيه يا سامية .. ولا تخافي . يكفي أنك خشيت . الخشية مطلوبة في مثل حالك ، وكذلك الرهبة . أما الخوف فيقطع عليك الطريق .. الخوف والإيمان لا يجتمعان .

سامية تقول راجفة .
— عندما تخاف نؤمن .
تجيب الأم متعبة :
— وعندما تخاف لا نعود نؤمن أيضاً . نهرب من
الإيمان إلى الإيمان لا إلى الخوف . أقرئي الآن
دون خوف .

سامية تأخذ نفساً عميقاً . إنها في أرض فسيحة وتحت
السماء الزرقاء . . . كأن أفقاً أحمر يرسم أمامها لعله الغسق . .
أو الفجر . . عينها تمران فوق الحروف . . ما هو مكتوب
يدور حول قوم سخط الله عليهم لذلهم واستكانتهم فأرسل
عليهم زوابع أحرقت الأخضر قبل اليابس وأكلت الحرش
والنسل واما عاد في الأرض زرع ولا ضرع . الدوامة قلعت
البيوت والأشجار فلم تبق ولم تذر . ذلك لأنهم كفروا بالمعبد
وعاث في ضميرهم الدود لحق بعقولهم العطن وعلق بقلوبهم العفن .

الأم تصيح لفريط حماستها :

— أقرئي أيضاً . . فسري . . مامعنى رأس المرأة
المقطوع ؟

بعناد مكابر ترمي سامية الكتاب من يدها :
— لن أقرأ .

— إنها النسمة .

لنفسها تردد سامية :

— بل لعلها النعمة . . . ليبق رأس المرأة المقطوع دون تفسير . بلهفة تسؤال الأم :

— ماذا تقولين ؟

تبصر سامية في تيار عنادها :

— لاشيء . . لاشيء . إنما أريد أن أسأل لو أن هذه الأرض التي ورد ذكرها حرثت بعد ذلك وبذرت أما كانت تنبت الزرع وتطرح الشمر وتدب فيها الحياة من جديد ؟ أليس الخير دائمًا في الأرض ؟ .

تشذّر كريم ، أين أنت يا كريم وبذور أفكارك المطروحة في أرض بوار ؟ أين أنت ورأيك اللامع كعهد السيف .. القاطع كعهد السيف يفصل بين الأشياء . أو يقطعها وي Mizqها ؟

بشيء من اليأس تجيب الأم :

— لا تكاري يا سامية . . من الذي سيزرع ؟ هلكوا جمياً وبادوا . . أهل البلد الذين حل بهم الغضب لم يعد منهم أحد .

سامية ، ومن بين أمواج العناد تردد :

— أنا أسأل عن الأرض وليس عمن سيشتغلون فيها. . .

بعصبية زائدة ترد الأُم : .

— لا أفهم ماذا تريدين ؟ ما قيمة الأرض دون البشر ؟

ستظل بوارأً وخراباً .

سامية تحسم النقاش :

— لكن الأرض لم تكن أبداً بوارأً ولا خراباً .

الحقيقة شيء الواقع شيء آخر . أنت تتحدثين عن واقع ذلك البلد الوهمي وأنا أتحدث عن الحقيقة .

أواه يا كريم . . كم سحبتي وراء سراب الحقائق . .

كم لهشت معك من أجل الوصول إليها . هل تراني وصلت إلى ذرة منه ؟ . . هل تراك وصلت ؟

الأُم هنية لم تستطع أن تدرك ما تهدف إليه سامية . كل مافهمته أن ابنتها تجذف ولا تذعن لشاهد الحق على صدق منامها . هذا الشاهد الذي لم يسعفها بهذه القوة والنصاعة كما أسعفها اليوم . خيال الأُم يظل يرتفع في المنام .

يركض وراء جزئياته: رأس المرأة المقطوع .. الأشجار ..
والبيوت .. والدوامة التي تحرف البشر .. وو ..
أما سامية فذهبها مختنق .. مثل سمكة داهمها قيار ..
ماذا يرمز الرأس المقطوع .. والبيوت المنهارة .. والأشجار
المقلوعة

الأم ترتد إلى فراشها مثل جندي يتربع بين الهزيمة
والنصر . تتمد يدها إلى وسادتها . تسحب أوراقاً .. تعطيها
لابنتها . تهم بأن تلقي بجسدها عندما تستوقفها سامية :
- إلى أين نذهب ؟ إلى الشيخ منصور ؟ أم إلى
المحامي . . . أم إلى أين ؟
بلهجة حادة تقول الأم :
- بل إلى الشيخ منصور .. لابد أن أذهب إليه ..
لابد .. وبعد ذلك سأذهب لعند صفيه .. وأنام عندها هذه
الليلة .

تجعل سامية تلجمها المفاجأة . تعرف أن لا صلات
ودية بين أمها وحالتها .. منذ أعلن بيان حكومي بالقبض

على من يشتغلون بالسياسة و كريم بينهم . خاف الأهل من
قربتهم لهم و ابتعدوا عنهم . وكذلك فعلت الحالة صافية
فكيف ستبيت عندها . . . ؟

سامية تسأل . . . كأنما لم تصدق :

— هل . . . هل ستذهبين إلى الحالة صافية ؟

باصرار تجحب الأم :

— نعم . . . أرسلت بالأمس ابنتها في طببي . . .
تريد روبي .

تشهق سامية :

— رجاء ؟ هل جاءت رجاء ؟

تهاز الأم رأسها و تردد بصوت فيه حنان مفجوع . . .

— يمكن أن تكون في شدة وهي بحاجة إلي . أمر
طبيعي أن يفقد المرء أهله في الضيق فمن له غيرهم ؟

ولم تعد توجه أي انتباه إلى ابنتها . مشغولة بارتداء
ملابسها وهي مرتبكة ، سامية مسيرة في مكانها . ما أتعجب
أطوار البشر . . منذ أيام ودت لو أن شيئاً يمزق الصمت

حولها . . لو يزورها أحد من أقاربها أو معارفها . تهل رجاء
بشبابها المنفتح . تكاد تنسى وجه خالتها . . ورنين ضمحكة
رجاء . . في شبه قطيعة مع الذين تحبهم كانت تعيش . .
وهاهي اليوم تدق أبوابهم عند الفجر بأمر من أمها المتنعة
عن أي صلة عائلية أو اجتماعية .

الأم في ارتباكها لا تعرف كيف تعيد الحاجيات المبعثرة
في الغرفة . . لكنها بحرص شديد تمسك بأنامل راعشة الكتاب
الهام والذي تعتبره مقدساً توسده طيات ثيابها في جوف
الخزانة حيث تفوح رائحة بخور . . تغلق الخزانة بهدوء
ثم تسبق ابنتها إلى الباب الخارجي . .

سامية تتعجب من أمها كيف لم تسأل عن الخادمة
النهارية التي تتولى شؤون البيت ؟ كيف لم تهتم بأمور الطعام . . .
ولم تصدر أي توجيهات تتعلق بميزان الحياة الاعتيادي . .
سامية تصمت . تخترم إرادة أمها ورغبتها الملحقة في
معادرة البيت . . تسبقها إلى السيارة . قبل أن تنطلقا تنتفض
الأم كأنما افتقدت شيئاً :

- هل نسيت شيئاً يأمي ؟
- نسيت المفاتيح . . . ولم أقفل باب غرفتي أيضاً . . .
- يزداد عجب سامية ، عجب مزوج بالدهشة . . .
- منذ متى تقفلين باب غرفتك ؟ وما أهمية أن تنسى مفتاحك ؟
- أمور صغيرة تجري . . . كلها ذات وخز حاد . . . مثل رؤوس دبابيس مرهفة . . . سامية تحس أن هذه الدبابيس تؤذها . . . تقع بارهاق فوق كل عصب من أعصابها . . . يتمحفز كل شيء فيها . يغدو رهيفاً حساساً :
- وهل . . . هل ستلتفين حقاً خارج البيت ؟
- لم لا . . . : ألن تذهبين أنت إلى المصيف ؟
- لكنني لن أنام هناك . . . ولو شئت لن أذهب . . . ولو عقدت موعدك مع المحامي لن أذهب أيضاً .
- بل اذهبين . . . إنما الأفضل أن تعودي مساء . ليس مناسباً أن تلتفي خارج بيتك .
- الأسطوانة ذات الأنغام النشاز تدور في سكون :

أنت امرأة شابة .. أنت امرأة جميلة .. تعيشين بلا زوج ..
بلا أخوة .. بلا أب .. أو بلا ماذا أيضاً؟ أيتها الفاسدون ..
أيتها اللامبالون .. أيتها الترثaron .. لم لا تقولون أني أعيش
بلا روح .. بلا قلب .. بلا فراش دافئ أو حنان ..؟

الألغام المزروعة أمام باب المنزل وفي الشارع حيث
تقطن تتكاثر .. تتوالد .. تترعرع في المدينة كلها .. .
في الفنادق والمطاعم وأمام واجهات المحلات وعلى مداخل
دور السينما .. ولم لا تترعرع أيضاً في نوادي الثقافة وحلقات
ال الفكر والسمير وأجواء الصداقه والأنس؟ باب رصاصي
يصفح جهات المدينة الأربع .. تغدو المدينة غرفة موحشة ..
بيتاً بلا نوافذ ولا أبواب ..

سامية تهز رأسها أنها توافق :
— لن أتأخر يا أمي ..

ثم تبتسم ابتساهه باهته صفراء تواجهها الأم بنظرة
طويلة راعشة .. .

ثم تبتسم هي الأخرى ابتسامة باهته صفراء ..
ثم تنطلقان في طريق يعج بالبشر ..

صفحة فارغة من أصل الكتاب الورقي
(عازلة بين فصلين)
عادة من عادات بعض المطبع
لا تبدأ فصلاً جديداً إلا على رقم صفحة فردي
(أو على صفحة تتوافق وضعيتها مع غلاف الكتاب)

الفصل الثاني

توصل سامية الأم هنية إلى بيت أختها . . ثم تعود إلى البيت . لم يكن إلا الصمت . . والغبار . . وهواء ربيعي يشتد مع سخونة غير اعتيادية . هاجس يهتف بها أن تسرع حيث تركت الأوراق . لعل الأم إذ عادت تأخذ المفاتيح تكون قد استرجعتها ، لكن الأوراق كما هي . . مرمية مثل ذبيحة . تلقى عليها نظرة متشبطة ملقة بسؤال ملح : هل تحدثت أمها بصرامة على الورق ؟ هل كشفت عن الحقائق ؟ تسدل سامية الستائر الخشبية كما لو أن البيت غادره ساكنوه . تقطع حرارة الهاتف . تغلق النوافذ . تنزع ثيابها وتجول في غرفتها وهي تغفي . أمها تظن أنها في المصيف . . ولا أحد

سيز عجها . تتناول الأوراق وآلة تسجيل وزجاجة سائل من خلاصة أعشاب البحر . تدخل إلى الحمام تسكب شيئاً من السائل في الحوض ترمي نفسها فيه . تنهد . تدير الآلة فتصدح موسيقى أخاذة . بيد راجفة تتناول الأوراق . ماذا لو سقطت في الماء ، لن تكتب أنها حرفًا واحدًا آخر ، هي واثقة . . بعد أن ظهرت أسطورة المنام خاصة . ولكن . لم تسقط الأوراق ؟ قرأت في مثل هذا الوضع . . أشعاراً . . وقصصاً . . ورسائل وأخباراً أيضاً . . تحس أن عيني أنها ترصدانها وهي في هذا الوضع الغريب . تلاحقانها وتسقطان كالفالس فوق يدها . أنها تعتقد أن العين تخترق الحجر . . وتخترق المسافات . القوة السحرية تنفذ رغم كثافة المادة وعبر تلاشي الزمن . ترتجف سامية أكثر . رأسها ثقيل وكأنها مقبلة على دوار . تسقط الأوراق الأولى في الماء . وقبل أن تغرق هي والأوراق في الماء تتشل نفسها لاهنة ، تضع ثوب حمام فوق كتفيها والصابون مايزال عالقاً على جسدها . تلتقط خطواتها إلى أقرب أريكة . ترتمي والغرفة حولها تدور . . والعالم كله يدور . . أية دوامة

نَقْذَفُ بِهَا إِلَى هَذِهِ الْغَابَةِ الْمُوْحَشَةِ . الْأَوْرَاقُ أَشْجَارُ اسْتَوَائِيَّةِ
ضَخْمَةٌ . . الْحُرُوفُ أَغْصَانٌ وَفَرْوَعُ تَلْعَبُ بِهَا رِيحُ مَجْنُونَةِ .
لَنْ تَقْوِيَ عَلَى الْقِرَاءَةِ . . لَنْ تَقْوِيَ . أَوْاهٌ يَأْمَى . . أَيْتَهَا
الْأَمْ الْطَّيِّبَةِ . . غَرَسْتُ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً فِي أَعْمَاقِي وَعَشْتُ
أَحَادِيلَ اقْتِلَاعِهَا فَهَلْ أَنَا قَادِرَةُ الْآنِ أَنْ أَقْتَلَعَ بِذَرَّةٍ صَغِيرَةٍ
مِنْ خَوْفِ الْمَجْهُولِ وَتَوْجِسِ الْغَيْبِ؟ . أَمَى . . ارْحَمْيَنِي
مِنْ امْتِدَادِ لَكَ فِي . . مِنْ خِيَاطِ سُحْرَيَّةٍ تُرْبَطِنِي بِكَ مُثْلِ
حَبْلٍ سَرِّيٍّ ، اعْتَقِنِي مِنْ إِسْمَارِكِ . . دَعَيْنِي لِأَكُونَ حَرَةً
مِنْكَ لَأَعُودَ فَأَكُونَ حَرَةً فِيْكِ . . يَأْمَى . . يَأْمَى .

وَقْتٌ لَمْ تَحْسِبْهُ سَامِيَّةٌ مُضِيٌّ ، تَسْمَعُ نَفْسَهَا تَرْدَدُ أَمَى . .
يَا أَمَى . . وَأَصَابِعُ خَنْمِيَّةٍ تَطْبِقُ عَلَى عَنْقَهَا ، هَلْ أَغْفَتُ؟
هَلْ اِنْتَلَتْ إِلَى عَالَمِ مَسْحُورٍ؟ أَطْيَافُ رُؤْيٍ لَا تَزَالْ عَالَفَةً
بِأَهْدَابِهَا . هَلْ هِيَ أَحْلَامٌ؟ أَمْ رَسُومٌ وَهُمْ جَنِّي؟ السَّاعَةُ
تَدْقِقُ ثَلَاثَ دَقَاتٍ . شَرِيطُ التَّسْجِيلِ يَلْدُورُ دُونَ مُوسِيَقَى
وَسَامِيَّةٌ مُثْلِ دَمِيَّةٍ مُحْطَمَةٍ . فِي ثَوْبِ الْحَمَامِ لَا تَزَالْ وَالصَّابِونَ

يعطيها إحساساً دباً وجوع يصرخ في أحشائها . بصعوبة تفهوم وتفرد أعضاءها . ماذا عليها أن تفعل لتعود إلى نبض حياتها الإعتيادية بعد هذا الإنتحاب العجيب من عالمها ؟ تعيد الحرارة إلى الهاتف لطلب وجبة طعام من المطعم المجاور . جرس الباب يدق . ترى من ينزع لها وحدتها وسكونها ؟ تحس أنها متعبة لاتستطيع أن تفكك من القادر ، لكن الوقت غير اعتيادي للزائرين . من وراء الباب تهتف : من ؟ تسمع صوت جارهم جابر . . . تفتح الباب قليلاً لتسأله ماذا يريد . جابر يريد الدخول من أجل موضوع عام . تستمهله دقائق لترتدي ثيابها ثم تعود فتدخله إلى الصالون . لأول مرة تشعر بأن نظرات جابر هي من رجل لامرأة . . . لماذا هذه المصادفات ؟ من أجل أن يزيد ارتكابها ؟ جابر يلهث وتدور عيناه في أرجاء الصالون كأنما يستجتمع فكره ليتحدث فلا يقدر . . . سامية تشجعه على الكلام . . . تريده أن تنتهي من هذه المسرحية الصغيرة المشوهة . يدور في حلقة فراغ . . يسقط في الصمت . سامية تنتظر . . تشعل سيكاره ..

تقدّم له أخرى . تفاجأ بأنه يدخن . تسأله إن كان راغبًا في فنجان قهوة . يتردد بين القبول والرفض . تختار الرفض لأنّه أنسّب . تكسر حلقة الفراغ . . تنشله من الصمت :

— هل تساور هذه الأيام إلى بيروت ؟

كأنما تخل عقدة إنسانه . ينطلق فيقول :

— سافرت منذ أيام . حرصت على أن أزور كريم — . . . الحقيقة . . . الحقيقة أن وضعه سيء .

تنفّض سامية :

— لماذا ؟ هل هو مريض ؟ . . هل يضايقونه هناك ؟ . . .

أم . .

جابر يجيب بهدوء :

— لا . . أبداً صحته جيدة لا يلاحقه أحد . إنه لا يمارس نشاطات ممنوعة بل هو متفاهم مع الأحزاب التقديمية وهم في سبيل تشكيل جبهة . . لم أقصد هذا . . أقصد . . الناحية النفسية . . أعني حياتكم العائلية .

سامية تفاجأ :

— ماذا تريد أن تقول ياسيد جابر؟ وهل . . هل حدثك كريم بشيء؟

جابر يذرع الصالون فيدخل السيكاره بنهم :

— أريد أن أقول أن كلامكم لا يحسد على وضعه . أنت شابة وجميلة . . وهو رجل أولاً وقبل كل شيء . هذا الفراق المحتموم يجب أن يوجد له حل . أنا أحب كريم وأحرص عليك . . ومجتمعنا قاس لا يرحم .

سامية تنهكم بخفاء :

— أنا لا أهتم بالمجتمع ولا بقيمه لم أفكري يوماً إن كان قاسياً أو رحيمًا . لكل عوالمه الخاصة بطريقته الخاصة .

جابر يردف بارتباك :

— أقصد أنكم لستما مضطرين لهذه الحياة ، وعندما نفقد أعدارنا أمام الآخرين علينا أن نتوقع قسوتهم . . لم التضحيه؟ كريم يستطيع أن يعود لينشط هنا . . وأنت . . على أي حال تستطيعين أن تعيشي مع زوجك في أي مكان .

تضيق سامية ذرعاً :

— أريد أن أعرف . . هل حديثك كريم بشيء
ما تقوله الآن ؟ .

— لم يحدثني . . ولكنني فهمت من تصرفاته كل شيء .
تنهد سامية بارتياح :

— كان أمراً عجياً لوحديثك . على أي حال أشكر لك
شعورك نحونا ياسيد جابر .

باضطراب من وجد منفذًا لا يعرف الخروج منه يقول :

— بل قولي نحوك . لو تدرين كم أنت عزيزة على
قلبي . . أنت . .

مقاطعة تقول سامية :

— أنا نفسي لأفكر في الواقع حياتنا ولا أعتبر أن فيه
مشكلة . . ومع ذلك سأكلفك بتوصيل رسالة إلى كريم
قربياً .

— حول ماذا .

— حول ما تهم به أنت الآن .

جابر ينهد بارتياح . يقوم عن مقعده بتثاقل . يقترب
من سامية :

تحس أنفاسه فوق جلدها . يزداد إحساسها بالدبق . ينظر إليها نظرة غريبة . وإذا يمد يده ليصافحها تعذر بأن الصابون في يديها . يطرق ، يخرج من البيت بصمت .

تشعر سامية أن كابوساً قد انزاح ، ياهؤلاء الناس الذين يظنون أنفسهم مهمين لدى الآخرين . . . محبوبين لدى الآخرين . . أو أن لهم أي تأثير في حياة الآخرين . تدور في البيت تبحث عن دليل الهاتف لتتصل بالمطعم . تكتشف هروب شهيتها . تذهب إلى المطبخ لعل الثلاجة تسعفها بفاكهة باردة . يرن جرس الهاتف . توشك ألا ترد فلم لا يكون جابر وهو وحده أيضاً في البيت ؟ يتواتي رنين الهاتف ، يساورها القلق . ترفع السماعة . . يأتيها صوت خالتها المبحوح تطلب إليها أن تسرع بالمجيء لأن أمها متعبة .

تصرح بلهفة :

— هل أصابها شيء ؟

لكن الحالة كانت قد أقفلت خط الهاتف .

* * *

في الطريق إلى الأم هنية تتنازع سامية تيارات من الهم .
هل ضغطت على أمها في موضوع المذكرات فأرها ؟
هل فوجئت الأم بما يشيرها في بيت أختها فانهارت ؟ هل هو
طارىء مرضي ؟ لاستقر على فكرة . تخفي بسرعة كبيرة
توكلاً معها أن تدهس طفلاً لولا أن استوقفها شاب .
إنه - سمير - ابن صاحب الفندق في المصيف حيث
أقامت الصيف الماضي . سمير يدعوها من جديد . تخمس
أئمها تخلص قليلاً من الأفكار التي تضغط على رأسها .
تتذكر إجازتها المثيرة . . سمير . . واهتمامه الخاص بها
وكل شيء ، امرأة أخرى تطل من أعماقها .. تدفع بها
إلى منطقة الظلام وتعود لتنطلق إلى أمها بأسرع ما تستطيع .

في بيت الحالة صافية الضيق المتواضع وفي صدر الغرفة
حيث ايوان جميل . وأرائك خشبية تحيط بها أصص انورود
فوق إحدى الأرائك تمدد الأم هنية وقد غطيت بغضاء
أبيض . سامية ترتعد وتکاد تصرخ . تسرع رجاء فتطمئنها
بأن أمها بخير . الحالة صافية تجلس على كرسي صغير من

القش قرب رأس أختها متکورة كما لو أنها قرب رأس ميته . لم تسلم عليها كما ينبغي بعد هذا الفراق الطويل إنما تبادرها بقصوة :

— ماذا فعلتم لها ؟ هذا الأمر لا يحصل إلا نتيجة ألم وقهـر . بعض الناس لا يعرفون أن لهم أقارب إلا عندما يقع المقدور .

سامية لاتجحـب . تسرع إلى أمها تسأـلها مـا بـها ؟ وبـماـذا تـشعر ؟ وهـل تستـدعي طـبيـباً ؟ الأم هـنية تـتكلـم بـبيـطـء شـدـيد وـسامـية تـلاحظ أـن يـدـها الـيـمنـى تـخـلـج تـحـاـول أـن تـجـعـلـها تـقـفـ لـتـمـشـي فـيـتـضـحـ أـنـها تـسـحـبـ رـجـلـها بـصـعـوبـةـ . الـحـالـةـ صـفـيـةـ تـقـولـ إـنـها وـقـعـتـ فـجـأـةـ وـهـيـ تـصـعـدـ إـلـىـ الإـيـوـانـ وـأـغـمـىـ عـلـيـهـاـ ثـمـ حـمـلـوـهـاـ إـلـىـ الـأـرـيـكـةـ وـسـقـوـهـاـ مـاءـ الزـهـرـ وـرـشـوـهـاـ بـالـمـاءـ وـرـجـاءـ حـاـوـلـتـ أـنـ تـنـادـيـ الطـبـيـبـ لـكـنـ الـأـمـ هـنـيـةـ رـفـضـتـ بـعـدـ أـنـ أـفـاقـتـ . أـمـاـ الـحـالـةـ صـفـيـةـ فـظـلـتـ تـقـرـأـ لـهـاـ الـأـدـعـيـةـ .

سامـيـةـ تـرـتـبـكـ تـجـلـسـ ضـامـنـةـ تـتـنـظـرـ إـشـارـةـ منـ أـمـهـاـ . عـيـنـاـ الـأـمـ زـائـغـتـانـ لـاتـكـادـانـ تـسـقـرـانـ عـلـىـ شـيـءـ . . دـقـائقـ

صعبه كأنها ساعات . يالمذا البيت بيت خالتها كم أحبيته وهي صغيرة . . وكم ملأت أرجاءه ضحكات مع أولاد خالتها . . وكم خالفت أوامر والدها فنامت فيه ليالي الصيف القائمة . . كم تبدو الأشياء غريبة عننا إذا انقطعنا عنها . لكن الحنين يعيد كل شيء إلى مكانه .

الأم هنية تطلب أن تذهب إلى بيتها . بصعبه تقف . .
بصعبه تمشي . . ورجاء تتوسل بعينيها إلى أمها أن ترافق
سامية . الحاله صفيه توافق على مضض . وتمضي ساميه
بالأم هنية . . المهدوده مثل شجرة اقتلعتها عاصفة .

الطيب يقول بعد فحص الأم هنية إنه ليس إلا وهنأً
عصبياً والعناية الشديدة هي التي تبعد شبح شلل محقق .

ساميه تسأل ملهوفه :

— والسبب ؟ ماهو السبب ؟

— ربما لم يكن هناك أي سبب مباشر لكنه ضغط
شريري . إلى جانب ضغط نفسي والحاله ليست خطيرة
والمكانيات كبيرة للشفاء بشرط المثابرة على الأدوية

المقوية والposure للشمس والهواء وألا تبقى المريضة في حالة انفرادية .

يشرد ذهن سامية . الشيء الوحيد الذي تخشاه بعد انصراف الطبيب هو أن تبقى مع أمها وحدها . أن تواجه التعبير الغريب المرتسم في عينيها . أن تتلقى تلك الإشارات الخفية بالتعasse . . بانذار الهالك والموت .

الخادمة تدخل هلعة . بدل أن تخفف على سامية تبكي وتصرخ وتدعى على نفسها بالموت فداء للألم المسكينة التي داهمتها المرض .

سامية تتشاغل بمحكمات هاتافية تطلب فيها أدوية . . وبالبحث في أرجاء البيت عن أشياء وهمية . . تسمع صوت أمها بقرار هادئ :

— سامية . . سامية

الإطمئنان يسري إلى أطرافها . تحس أن حواجز تنهاوی بينها وبين أمها وأنهما تعودان إلى علاقتهما العادية : — ها أنا يا أمي . . نسيت أين وضعت مفتاح خزانتي . .

الأم تقول مصالحة :

— خدي مفتاحي . . القفل واحد .

تدور الأرض سامية . لاتعرف هذه الحقيقة كيف يتفق أن يكون ذلك ؟ هل تعرف أنها محتويات خزانتها ؟ هل جربت المفتاح حتى عرفت أن القفل واحد ؟ في خزانتها أسرار حياتها كلها ، حتى رسائل مراحتها . بطريقة ما تشعر أن الأم هنية أقوى مما تتصور .

تأخذ سامية المفتاح وخيط رفيع يشدّها إلى عدم التصديق . . تعود خاضعة للرأس . تناوله لأها . كان ما قالته صحيحاً . أمام خزانتها تقف لتأمل الأدراج والرفوف وكل ما تحتويه هذه الخزانة . ليس بامكانيها أن تخمن شيئاً . أول أمس فتحتها وأخرجت دفتر مذكراتها وكتبت فيه طوال الليل فكيف تكشف عبث يد أخرى غير يدها ؟

تتذكر سامية قوله . الألّم يجعل المرء قاسياً ويصلب إحساسه . هي الآن مثل البحر وينابيع عاطفتها محبوسة . تدخل غرفة أها وهي تمتلك الحرأة لأن تواجه عينيها مهما

كان نوع التعبير فيهما . تفاجأ بأن الأم هنية أغمضت عينيها في محاولة الإسلام للنوم . لاتحدثها بشيء تسحب فوقها الغطاء وتغادر الغرفة مسرعة .

في الليل تنتظر سامية رجاء . . . همست لها سرًا أنها ستأتي . على الشرفة انتظرتها بشوق كبير عندما تخطت الباب الرئيسي للبناء تهرب سامية لفتح لها قبل أن تقرع الدرس . تدخلها إلى غرفتها دون أن تشعر أنها أو الخادمة . رجاء . . رجاء يا هذا الشباب النقي الجميل . مثل زهرة برية أنت . هل لازلت سجينه البيت في انتظار العريس دون دراسة أو عمل ؟ هل لازلت تتفتحين ابداعات صغيرة في أعمال البيت والطعام ؟ كم تبدو براءتك نوعاً من الرضى والقناعة . . جهلنا بأشياء يجعلنا نقنع ونرضى بغيرها . . كيف لو أنك اكتشفت عوالم المجهول يارجاء . كيف لو عرفت مافي دنيانا على صغرها من أسرار ومحاريات ؟

رجاء تدخل متبرجة . . بثوب ضيق يكشف عن مفاتنها .

— كيف وصلت يارجاء ؟

— أخذت — التاكسي — .. ثم إن أمي لا تعرف .
ماذا تسمع سامية ؟ رجاء . . تخرج بغير إذن أمها
وتجروء على أن تأخذ التاكسي وحدها ؟ لابد أن هناك
تطوراً ما . .

رجاء تندار بحركة تمثيلية واضحة تشعل سيكارا
بينما يفوح منها عطر نفاذ . إذن . . لم تعودي أنت رجاء
كما في الماضي . . هبت ريح ما . . قامت زوبعة . .
ترى هل دخلت دائرة الدوامة ؟

رجاء تبدأ تغمرها بأسئلة كثيرة لاتجده مهرباً من الإجابة
عنها ثم . . عرضت عليها أن تناول الليلة عندها . . حسناً
سوف أفهم أشياء كثيرة رددت سامية لنفسها وهي تجذب
مترانحية :

— ألن تفتقدك خالي ؟

رجاء تضحك مثل رنين بلور صاف :

— خالتك لافتقدني . . أنا أمضي ليالي وحدي . .
لأحد يطرق بابي من أين لها أن تعرف أنني لم أعد ؟ هي

مشغولة الذهن بأولادها المسافرين أكثر مني . . قلت لها سأذهب إلى الحياة وسأتأخر . وهي إن صعدت إلى غرفتها في الدور العلوي لاتنزل منها إلا صباح اليوم التالي .

— مادمت أصبحت جريئة هكذا فلم لم تتصل بي كل هذه المدة ؟ كنت أظنك غير ذلك . . وأقول رجاء لاتخالف إرادة أمها . . لاتجروء أن تراني . . بل لماذا تراني ؟ .

— لكنني كنت دائماً أفكّر فيك . . وأكثر من مرة حاولت المجيء وتهيأ لي أنك لا تريدين أحداً من أهلك .

بنبرة حادة تقول سامية :

— أنا التي لا تريدين أم هم الذين لا يريدونني ؟

— قالوا : أصبحت متعرجة ، لا يعجبك العجب . . وخاصة بعد . .

— بعد ماذا ؟ قولي . . بعد زواجي . آهٌ من هذا الزواج . . كم حملني أشياء . ومن هو الذي تزوجته ؟ رجل بسيط ومتواضع . .

— بل هو أقل منك . . لكنه . . ولأنه مثقف علمك العجرفة .

— لا تقولي هذا يارجاء . . أنت لا تعرفين الحقيقة .

سامية تدفع رجاء إلى غرفتها :

— تسللي بسرعة . . سنسهر دون أن يعلم أحد ونتحدث . .

وفي غرفة سامية الأنيقة . . المظللة بأضواء خافتة ترتميان .

— ما الذي دعاك إلى المجيء إلى ؟ أنا توقعت ذلك بعد لقائنا اليوم . . وكأنني أنتظرك .

تنهد رجاء منكسرة :

— شيء غريب ياسامية . أحسست أن صوتك في أذني طوال النهار يدعوني أن آتي إليك . كأنني آرتبط بك بأكتر من القرابة والدم . . لعلها روحك ياسامية . . لا أدرى .

بمرارة تهتف سامية :

— مؤسف أن أهلاًينا ي يريدون لنا أن نتبادل عواطفهم

هم . . . أن نخشوا رؤوسنا بأفكارهم هم أو بالآخر أن نكون تابعين لهم فإذا اصطلحوا علينا أن نحب بعضنا . . وإذا أختلفوا يجب ألا يعرف أحدهنا الآخر .

— آه ياسامية . . . ماذا أقول لك ؟ لا أحد يفهمني في هذا العالم . . . حتى أمي . أخوتي مشغولون عنِّي . . . حتى — باسم — الذي يعيش معي لا أكاد أحدثه . . . يخيل إلي أحياناً أنني لأحبهم ولا يحبونني . ماذا تظنين ؟ هل يمكن للإنسان ألا يحب أقرب الناس إليه ؟

سامية ترد على الفور :

— الحب مرهون بالتفاهم . على أي حال يكفي أننا لانكرهم إن كنا لا نحبهم .

— بل أنا أكرههم أحياناً . . . وأكره نفسي .
سامية تحس أن قلبها ينفتح لرجاء حجر وقع في البحيرة الساكنة بينهما شيء مشترك يجمع بينهما والأحساس الذي تتفجر في أعماقها وتتحول إلى تصرفات هي التي تضطرب وتصطخب في أعماق رجاء . الفرق أنها يمكن أن تحول

إحساسها أو فكرتها إلى فعل أما رجاء فتختبط ولا تجسر على أن تصارح أحداً حتى نفسها .

سامية تطمئن على الأم هنية ، تناولت أدويتها ونامت .

ترجم إلى غرفتها بخفة أرنب . جرس الباب يرن . تضايقت . .

تود لو تفتح . من الذي يتطلّف عليها في هذا الوقت ؟

إنه جابر وقد لمح شبح رجاء في غرفة سامية وهي تغلق

الباب على نفسها يسأل سامية :

— هل عندكم أحد ؟ هل أزعجتكم ؟ .

بفتور تجذب :

— لا . . لا زعاج . خير . . هل هناك شيء ؟

جابر يبتلع ريقه :

— الحقيقة جئت أتفقد إن كان يلزمك شيء . .

و خاصة أن أمك مريضة .

— أمي حالتها حسنة . نامت الآن وأنا استطعت أن

أؤمن لها كل احتياجاتها .

جابر يرتكب لا يعرف كيف يتصرف :

— ظنت . . ظنت أنَّ كَرِيم قد رجع .
وجهها يظل جامداً قاسياً . جابر يشعر بالرَّهبة .
يلمح حقيقة سفر صغيرة إلى جانب الباب فيمتصع ويحاول
أن يتخلص من سؤاله :

— ظنت ذلك عندما لمحت حقيقة السفر .
سامية تضحك وكأنَّها كشفت محاولته :
— أنا هيأتها لنفسي . . كنت أُنوي السفر إلى بيروت .
مرض أمي أعاقي . أُجنبني يا جابر هل يمكن أن تساعدني ؟
إذ نطقت باسمه هكذا مجرداً . . وبشحنة من حنان
ناعم أُجفل . هذا مالم يعرفه فقط من سامية طيلة جوار
لسنين . .

يحيب بلهفة :

— أنا مستعد لأي خدمة . . أنا تحت أمرك .
سامية تبكي بشعرها الحريري الطويل . تنهد ثم
ترتقي فوق المقدَّم الصغير قرب الباب .

يمؤه ارتباك محير :

— ماذا تريدين ؟ هل أنت بحاجة إلى المال مثلاً .

تضحك ضحكة خفيفة :

— دققة واحدة وآتي لك بالرسالة .

تدخل إلى غرفتها بينما يمسح الرجل عرقه . . . تعود بثوب سهرة يكشف جمال كتفيها المدورين وصدرها الأبيض . امرأة تقطر أنوثة . . . وجمالها من النوع الذي يسحر ويخدر أكثر مما يفتن ويثير . هذا ما كان يتردد في ذهن جابر عندما تقول :

— هل توصل هذه الرسالة إلى كريم ؟ قررت أن أكسر عن حياتي أطواق الجمود . أليس هذا ما تحدثنا عنه ؟

— طبعاً . . طبعاً . . هذا ضروري .

— ليس بالنسبة لعلاقتي مع كريم بل للكل شيء .
لعلك ستفهمي يوماً .

جابر لم يدرك أبعاد كلماتها . يحبها بشكل عفوي وهي تستمر في كلامها الملغز : على المرء أن ينفض الصدأ عن حياته كلما تأكلت . . أن يجدد عمره . وما يهم أن

ظهر للآخرين كما هو ؟ لماذا يظل التزيف قانون المجتمع
وأن يعيش الناس وراء أقنعة ؟

سامية تقرب من جابر . . تخرج من دفتر أنيق مظروفين
ورسالتين ، وتناول جابر إحداهما و كأنما تتشاغل بالكلام :
— أمس كتبت رسالتين هامتين . . هذه رسالة كريم.

يسحب جابر الرسالة . وهو يطويها ليغلق المظروف
يامح عبارات . يرتجف :

— هل أنت واثقة أنها لكريم ؟

— طبعاً . . طبعاً . .

وهكذا أوحت إليه أن يكون هو الآخر خبيثاً . يأخذ
الرسالة .

— حسناً . . سأرى ماذا أفعل بها .

يسحب جابر خارج البيت دون أن ينظر إلى سامية
أو يلقي تحية الوداع .

سامية تستند إلى الباب بعد أن يخرج جابر . تضحك
بمكر . ما أسف هذا النوع من الرجال . تصرف كما

توقعـت له أـن يـفـعـل . الرـسـالـة الـي أـعـطـتـهـاـ لـهـ لـمـ تـكـنـ لـكـرـيمـ
بلـ لـصـدـيقـهـ تـدـعـوـهـ فـيـهـ إـلـىـ أـنـ يـعـودـ إـلـىـ عـلـاقـتـهـ بـهـ . تـعـمـدـتـ
هـذـاـ خـطـأـ لـتـرـىـ مـاـذـاـ سـيـفـعـلـ جـاـبـرـ . حـجـرـ آـخـرـ . رـيـحـ
جـدـيـدـةـ . . وـدـوـامـةـ مـنـ نـوـعـ خـاصـ . هـذـاـ الرـجـلـ الـمـحـافـظـ
عـلـىـ التـقـالـيدـ الـمـتـرـمـتـ الـذـيـ يـرـىـ اـبـتـعـادـهـ عـنـ زـوـجـهـ فـيـ حدـ
ذـاتـهـ خـطـأـ كـبـيرـأـ مـاـذـاـ سـيـفـعـلـ ؟ لـمـ يـغـمـضـ عـيـنـيـهـ عـنـ اـسـتـمـرـارـهـ
فـيـ الـعـيـشـ وـحـدـهـ . . وـلـمـ يـسـكـتـ . صـارـحـهـ بـذـلـكـ مـعـتـبـرـأـ
هـذـاـ الـوـضـعـ انـخـرـافـأـ وـشـدـوـذـأـ وـتـشـوـيـهـأـ لـعـلـاقـةـ الزـوـاجـ .

كيف سينظر إلى علاقة بين امرأة متزوجة ورجل .

سامية تتصور كل ردود الفعل التي يمكن أن تحدثها
الرسالة في نفس جابر . تضحك . . وتضحك . . لكن
احساساً عميقاً يقول لها إن جابر سيتصرف بأسلوب مغاير
من كل مرة ماضية : لا تدري لم تحس كذلك . . ولا تشعر
بارتياح . تريده أن يتصرف بشخصية جابر التي تعرفها و يعرفها
الآخرون جمعاً :

تستعيد فقرات من الرسالة :

عزيزي هاني : الشوق يدفعني لأن أرتاح بأسراري إليك . . أنا المرأة التي تعيش في صحراء العطش . . أنت لي الواحة بما فيها من ظل وماء . حياتي لم تعد تطاق لكوني لم أعرف الرجل الحقيقي إلا بك لكوني الصبية التي تفتح براعتها الأولى للمسات الحية . . أنا المرأة المجربة .. أمري عجيب معك . . ما يشدني إليك أكثر مما يشدني نحو أي إنسان آخر . . وأنا أمامك لا أضطر إلى التزييف . . أكون هكذا . . عارية مثل شجرة ، حقيقة مثل صخرة .

عندما تصل إلى هذه العبارات وما يمكن أن تثيره في نفس جابر تضحك من جديد . لن يفهم أنها تقصد عري نفسها وحقيقةها أمام هاني ، سوف يتصوره عريأً جسدياً لا أكثر ، وسوف يلعنها ويستمها ولن يتوانى عن أن يلحق بها أبشع الصفات . . لا يهم .. المهم أن تفك الأكفان عن هذا المخلوق المسمى جابر .. هذا الكيان سيظل محسوباً على الحياة وهو محظوظ بأفكار تفوح منها رائحة ماض ميت ، ستظل عبارات رسالتها مثل نور كاشف

توجهه إلى جابر وعلى صوئه ترى ما يصيبه من انفعالات وتصرفات .

تبداً سامية تحس التعب رغم أن اللعبة النفسية مثيرة . عندما ترجع إلى غرفتها تجد رجاء وقد تكونت بثيابها ونامت والنافذة مفتوحة ينفذ منها هواء ليلي بارد . تستلقى على السرير إلى جانب رجاء . هل ستبدأ الدوامة ؟ وهل ستكون الرسالة هي البداية ؟ هل هي قادرة على ذلك ؟ يقولون أن إنساناً ما . . أي إنسان لا يستطيع أن يغير قدره . . أو أي قدر لأي آخر . . والأحداث العظمى هي التي تغير الأقدار فهل هذا صحيح ؟ حسبي أنها تحرك التيارات العديدة حولها فتجعلها تصطدم . . تؤمن بوجود هذه التيارات وتحسها وتتکاد ترى لكل إنسان من حولها بقعة يسبح فيها دون أن يلامس بقعة الآخرين . وقد يضيق على نفسه هذه البقعة . . كما يفعل جابر . . وربما يجعلها أكثر اتساعاً . إلا أن هناك بقعاً أرجوانية مبهرة . . خلابة . . تجذب إنساناً إلى آخر . . تجعله يقتحم عالمه مهما يكن الشمن .

سامية تسؤال نفسها : هل أصبحت تعيش في بقعة
موصولة بأسلاك مكهربة خفية ؟ ماذا لو أنها دمرت هذه
الأسلاك وعادت إلى سكونها القديم ؟ ماذا لو أنها ظلت
على حالتها الماضية تنتظر . . وتنظر . . ولا تجرو على أن
تغير أي شيء ؟ صحيح أنه كانت لها محاولات صغيرة . .
لكن هذه المحاولات كانت تحمل سلفاً فشلها . فهي لم تم
تعليمها الجامعي لتناول شهادتها . . ولم تطلب عملاً . .
ولا هي أقامت علاقات حميمة وحقيقة مع أناس من حولها .
ليس أكثر من إطارات اجتماعية فارغة . . وحتى الثقافة . .
ظلت تتناولها بسطحية جوفاء . . تقرأ لأن عليها أن تملأ
أوقاتها بالقراءة . . وتناقش ببرود مصطنع كما لو أن
عليها أن تبدي رأياً مخالفًا لرأي غيرها فقط . . ومذكراتها
نفسها . . هل كانت صادقة ؟ هل صورت فيها مشاعرها
وأفكارها بشكل صحيح ؟ كلما كتبت تخيلت أن أحداً
سيقرؤها . . وكريم بالذات فإذا هي تصبها في أجمل
القوالب . . مموجة ومشوشة كانت تلك الكلمات . .
لتزرقها . . ولتطعمها للريح .

أواه يا كريم . . كم حاولت أن تصوغ مني إنسانة حقيقة . . أو تعيد صياغتي من جديد . . لكنك كنت تفشل . ساخني . . أنا كنت سبب فشلك فقد كنت أو همك أنك تتقدم . . وأني أتغير و كنت استسيغ لعبه القط والفار تلك . لكنك أبداً لم تقبض على هذا الشيء الها رب منك و مي و الذي يتبرج في أعماقي . . من أنا تماماً يا كريم ؟ هل أنا حقاً فتاة بورجوازية كما يقولون و كما كنت تقول لي مازحاً أو جاداً لأدرني ؟ لو كنت كذلك لما استطعت أن أوالي انزلاقتي، و كان انزلاقي الأول والأكبر أني تزوجتك . هل كانت - هنادي - و - مي - و - نبيلاً - أو أي واحدة من أعرفهن من البورجوازيات حقاً تقدر أن تتزوجك ؟ أؤكد جازمة لا . . لم تبد أي منهن استنكاراً لما فعلت ولم تفه واحدة منها بحرف لكتني لمحت الصلابة في عيونهن . . وعندما تزوجن كان أزواجهن من الطبقة نفسها التي إليها ينتمبن أليس هذا أكبر رد ؟ .

وأفكارك يا كريم . ومبادوك التي بهرتني وسلبني والتي بسببها تزوجتك اعترف لك الآن أني لا أجد لها في

رأسي مدلولات ثابتة وأكيدة . . كيف سأكون اشتراكية ؟
لا أعرف . . كيف سأناضل من أجل بلادي ؟ الصورة
أمامي غير واضحة ؟ كيف أعيش ذاتي التي كنت تقول
أني عثرت عليها ؟ كل شيء أمامي مشوش . هل لأنني
لم أعثر على ذاتي أصلاً و كان ذلك استرضاء لكلاً أكثر ؟
ربما هذه هي حقيقة الحقائق التي لم أجرب على أن أصارح
نفسى بها إلا بعد أن ابتعدنا عن بعضنا بعضاً . . لكنني
الآن أحمل شرف المصارحة . . ولعله شرف المحاولة أيضاً .

كريم . . يا كريم . . لم أكن معك كما تحب . .
لأنني أحببت ذاتي أكثر منك أما أنت فقد أحببتي أكثر
من ذاتك ولأنك كذلك أردت أن تمنعني قبساً منها . .
أن تدخلني في منطقة الوهج والنور فيها . . عندك الأمل
لأن تصيرني . . ربما لتصوغ مني معدناً جديداً و كان
هذا انتصارك الأكبر لو تحقق . . لكنه حتى الآن لم يتحقق
جزئياً بل على العكس أخذ بالتراجع منذ انفصلنا أحسست
بالسكين بيننا . . ربما تقطعني . . ربما تقطعك وهذا سبب

عذابك وهذا سبب قلقي. عذابك الذي انعكس في رسائلك. . .
وفي لقاءاتنا المبسترة القصيرة في بيروت والذي لمح جابر
ظلاً باهتاً لها ولم يعرف كيف يعبر عنه . أما قلقي . فهو
الذي يدفعني إلى كل هذه الأمور يا كريم . . . يدفعني
بقوة مجهولة لا أستطيع الفكاك منها مثل منومة مغناطيسياً
أندفع . . هل لأنني أحرص عليك . . . ؟ على حبنا؟ . . .
على بيتنا الذي عشش فيه العنكبوت؟ هل لأنني الآن فقط
أصبحت أعرف أنني إن لم أكن المرأة التي تريدها والتي
أريدها سوف أخسر نفسي وأخسرك؟ تعيسة هي حياني
من دونك . . وأكثر تعاسة لو عدت إليها معك وأنا كما
أنا . .

كريم . . لست أقدر أن أمنحك . . كريم . . لست
أقدر أن أمنعك . . كريم . . كريم . .
سامية تجهش ببكاء حاد . يسمع صوتها وهي تنادي :
كريم . رجاء تفيق مذعورة :
— هل كنت تنادينه يا سامية؟

سامية تلملم دموعها مع شهقة مكبوة :

— لاشيء يار جاء . . أشعر بالشوق إليه لأكثر . .

فتحي النافذة . . أرجوك .

رجاء تفتح النافذة . تعود مثل قطة كسلى لتلتتصق بسامية :

— أحس يار جاء أحياناً أنتا في علبة صماء لا يتحرك

فيها الهواء . . ومثل الذين يسجنون في غرف موصدة حتى يختنقوا أحس أني موشكة على الاختناق .

رجاء تبدو وكأنها لم تدرك تماماً ماذا تعني سامية .

تشاءب وتحرك أجفانها في محاولة ليقظة كاملة .

— ولكنك ياسامية في حال أفضل من حال غيرك

بكثير . . هناك من النساء من يحسدنك ؟

— يحسدني ؟ على ماذا ؟ .

— أنت جميلة . . ومدللة . . وغنية . صحيح أن زوجك

الآن بعيد عنك لكنك أنت لاتريددين اللحاق به . ثم أنه

يغرقك بالشياط والعطور والهدايا .

— هكذا إذن . .

لنفسها تردد سامية : الثياب . . الهدايا . . العطور ..
مسكينة أنت يار جاء . لاتعرفين شيئاً . . لاتدر كين شيئاً . .
ليس حالي أفضل من غيري بل هو أسوأ وبكثير .

لماذا لاتجتاح العاصفة المدينة كلها لماذا لاتثور الزوابع
وتعصف الرعد وتنهمر الأمطار ؟ لماذا لا يأتي الحدث
العظيم فيهتز الشجرة العظيمة فأما أن تصمد أو أن تنهار
وتموت ؟ أما أن تبقى وهذا الدود ينخر فيها . . وهذه
الأوراق تتراقص عنها . . والغبار يسفعها . . والشمس
تحرقها فأمر أكثر من أن يتحمل . . كيف لها أن تحتمل ؟
كيف يتحمل الآخرون ؟ ورجاء نفسها أليست مأساتها
أكبر ؟ لكنه يبدو أن الذي لا يشعر بمساته فكأنه بلا مأساة .
من قلب أفكارها وموج دمعها تلتقط كبر ياءها :

— حسناً يار جاء . . لنغير الموضوع تعالى أريك
مالدي من ثياب . . وهدايا وعطور .

تفتح خزانتها . ترك كل شيء معروضاً أمام عيني
رجاء البراقتين . . ثم تستلقي فوق السرير . . نشاط مفاجيء

يدب في أوصال رجاء . تقوم إلى الخزانة . تبدأ تعث بمحتوياتها وهي تضحك ببراءة .

— أشياء ثمينة . . ورائعة الجمال ياسامية . . تكفي لتسعد أكثر النساء شقاء .

— اختاري ما تريدين يارجاء . . السعادة أحياناً ليس في أن نسعد أنفسنا . . بل في أن نسعد الآخرين .

لنفسها تهمس :

— خاصة إذا كنا عن إسعاد أنفسنا عاجزين .

رجاء تنتقي عقداً زمردياً :

— يا الله . . لم أر أجمل منه في حياتي . .

— خذيه يارجاء . . لاتتردد .

— لكنه مرتفع الثمن . . أليس كذلك ؟

ساذجة أنت وبريئة يارجاء . . مثل طفلة . ليتني أشعر بشهقة الفرح كما تشعرين . ليت الأشياء البراقة تحطف بصرى كما تبدو لك . .

ليتني أستطيع أنأشري ومضة الإحساس ولو بزمرد حقيقي .

— لا يار جاء . . ليس مرتفع الثمن لأنه ليس من الزمرد الحقيقي . .

— لا يهم . . لا يهم أبداً ياسامية . . المهم أنه جميل وهذا الثوب الأسود ، لاشك أنه فاتن إذا ما وضعته على جسديك . .

— لكنني لم أضعه أبداً على جسدي وهل أرتدي السواد وأنا التي أعيش في سواد الغربة وعتمة الفراق ؟ ومن سأخاطب بلغة الجمال والفتنة إذا لم يكن لي رجلي ؟ رجلي المتألق أمامي مثل نجم يبدد كل سواد ؟ .

— أنت تفكرين أكثر مما يحب ياسامية . . بهم تفكرين ؟

— لاشيء يار جاء . . لاشيء . . غداً سترتدين هذا الثوب . . وتضعين العقد . . وستظهرين مثل زنقة .

— تقصدين زنقة سوداء . . وتضحكان . . وتصمتان ثم . . . يلفهما نوم عميق . . عميق . .

صفحة فارغة من أصل الكتاب الورقي
(عازلة بين فصلين)
عادة من عادات بعض المطبع
لا تبدأ فصلاً جديداً إلا على رقم صفحة فردي
(أو على صفحة تتوافق وضعيتها مع غلاف الكتاب)

الفصل الثالث

جابر لا يستطيع أن يدخل إلى بيته . . ولا أن ينفرد في غرفته . يهبط الشارع يدور ويدور دون هدف . يتبه لنفسه وال الساعة قد قاربت منتصف الليل . يدخل إلى مقهى صغير على ضفة نهر بردى مغلق بنوافذ من الزجاج القدر . لم يتعود ارتياح المقاھي ولكن . . هذا المقهى بالذات ألف أن يقصده بين حين وآخر .

إنما . . في غير هذا الوقت . ربما أمضى فيه ساعتين بين السابعة والتاسعة مساء من أيام الجمع خاصة . وعندما يقترب وقت عشاءه ينصرف . هو واقع في إسار عادات يومية صغيرة . ولكن ماذا يفعل ؟ ثم ان أولاده بحاجة إليه لكي يراقب دروسهم . . أما امرأته فهي تقلب الدنيا او تأخر .

إلى المقهى يصل جابر على غير عادته . . متأخراً . .
وشارد الذهن . . ومخترقاً برنامجه حياته التقليدي . . ولا يتوقع
أن يرى أحداً من رفاقه خاصة وأن اليوم ليس جمعة .
يفاجأ أنهم لا يزالون حتى هذه الساعة المتأخرة يلعبون التردد
ويضحكون ويتضاحكون مثل الديكة . . يكاد يرجع لولا أنهم
لمحوه . . ثم نادوه . . لماذا يرجع ؟ بل لماذا يدخل ؟
لайдري . . كل عصب فيه كان مشدوداً إلى عالم آخر . .
عالم سامية والرسالة التي توشك أن تحرق جيبيه . . أحدهم
يصبح بتهكم لاذع .

— ماذا جرى لسيادتكم ؟ هل اختل نظام الكون
أم أنها معجزة ؟ . . كيف تكون معنا في مثل هذا الوقت
وتهجر فراشك الدافئ العزيز ؟ .

جابر لا يحيب . . آخر يحيب بكلمات جارحة :

— فراش الرجل بعد الخمسين ليس دافتاً . . إنه
أبرد من ثلاثة . . وليس عزيزاً على قلبه ولا على قلب غيره .
ثم يبصق على الأرض ويعود ليضرب حبات التردد

بالطاولة بعد أن يستسلم الجميع للضحك . جابر رغم هذا لم ينسحب ولم ينبعس بحرف . يتناول كرسيّاً ويقترب من بشير العون ، وبشير متلاحد عازب هادئ الطبع ميال إلى الصمت ، بينما بشير يستمع إلى الراديو يقول جابر :

— هل هناك شيء في الأخبار ؟

يجيب بشير بهدوء :

— كنت سأمالك أنا لأنني في المقهى منذ ساعات وأنت جئت لتوك ، سمعت أنهم يهسرون لمسيرة في الغد بشجب تصعيد الحرب في فيتنام .

جابر لا يجيبه :

— ظنت أن لمجيك علاقة بالأمر .

يعود الجميع إلى الضحك . جابر يقول مكابرًا :

— وما العلاقة ؟ نحن انسحبنا من الحياة وانتهينا . .

مكاننا خارج حدودها .

جابر يقول بنفاذ صبر :

— ولكن ليس ضروريًا خروجنا.. ليس ضروريًا .
اسمع يا بشير ، اتركتي من هذا الكلام وقل : هل لازلت
تتام وحدك في البيت ؟

يستغرب بشير السؤال :

— طبعاً . . لو كنت تزوجت لعرفت بالأمر . وأمي
وأبي لن يبعثا من جديد . . وأنا مقطوع من شجرة كما تعلم .

يقول جابر متأففًا :

— لاتعد علي اسطوانتك المعهودة في الوحدة والقطيعة
وعدم الزواج ، أنا أسألك لأنني أريد أن تعطيني مفتاح
بيتك لأستريح . لن ألبث إلا ريشما تعود . إن كان هذا
لايز عجل . .

يجهل بشير :

— ولم ؟ خير إن شاء الله . هل ساءت العلاقة مع
أسرتك إلى هذا الحد ؟ على أي حال خذ . .

ويناوله المفتاح . يأخذه جابر ويمضي دون أن يحيي أحداً . وبشير الذي تناول الموضوع جدياً عاد ليمزح .

— جابر . . جابر إياك أن .

يلتفت جابر فيرشقه بنظرة نارية بينما هو يضحك ..

في بيت بشير العون لم يعرف جابر كيف يهبيء لنفسه زاوية ليهداً فيها . الفوضى المزمنة منتشرة في كل زاوية .

إنه بيت عازب عتيق لم تلمسه يد المرأة حتى ولو كانت

خادمة . . والسيد بشير لا يسمح لأحد أن يلمس شيئاً في

بيته ، جابر يتذكر زوجته — أم هاني — فهي مهما تكن

من عدم بحارة العصر لو نفخت على هذا البيت

لاستطاعت أن تمنحه من أنفاسها نفحة من الحياة . . مسكنة

أم هاني . . كم يظلمها . . وكم يتهمها بالجهل والتأخر . .

وكم يعارضها في كل ماتفعل . ثم هو يعبر كل ماتسعى

إلى ترتيبه بحججة أنه لا يحمل شيئاً من الذوق . بيته مرتب . .

ونظيف . وليس فيه أحد لكنه لا يستطيع أن يخلو بنفسه فيه

ليرأ رسالة سامية ويكتب ردها إلى كريم عوضاً عن تلك

التي معه . . عيون أم هاني مغروسة على جدران البيت . .
ثم إنه هنا على الأقل يستطيع للحظات أن ينسى من هو . .
وماذا يفعل . . ولماذا ؟ يزيل طبقة من الغبار عن حشية
جلدية قرب مصباح كهربائي حائطي .

يستند إلى الجدار ويفكر . . ماذا يكتب ؟ عليه
أن يهوي في ذهنه كل ما يريد أن يكتبه قبل أن يبدأ . . وعليه
أن ينهي مهمته بسرعة ويخفي الرسالة ويخفي قبل أن يرجع
بشير . هل يكتب لكريم على لسان سامية باختصار وبلهجة
جدية أن يأتي ؟ إن فعل ذلك فلربما عاد كريم عودة من
أرسل في طلبه فيعاتب سامية وليس مستبعداً أن يطلعها
على الرسالة فينكشف الأمر . هل يكتب رسالة مزورة
من امرأة ملهمة إلى زوج غائب في سفر طويل ؟ في هذه
الحال لابد أن يعبر تماماً عن مثل هذه المشاعر ويعطي الرسالة
طابعاً اثنوياً يتناسب مع سامية وحب كريم لها . . عند ذاك
لن يكتشف كريم أي شيء ويسير الأمر كما أرادت .
ولكن ما يدريه ماذا كتبت له في الرسالة الأصلية التي لم
تصل إلى يده وظلت معها في المظروف الآخر . هل تراها

كتبت بروح المرأة الملهوفة على زوج غائب في سفر طويل
أم أن هناك لهجة خاصة تخاطب بها سامية زوجها وهي
أدرى بها ؟ تضج الحيرة في داخله . والوقت يتزلق من
بين أصابعه وهو حائر مضطرب . يخاطب نفسه . أيها
الغبي لكل زوج أو زوجة أسلوب خاص يخاطب به الطرف
الآخر ويعامله . . ومعلوماتك الإنسانية التي علقت بقايها
في رأسك منذ أيام الدراسة لن تفعلك بشيء . . لن تسعفك
شيء . . يشعر باليأس . . يتصور أن سامية ربما اكتشفت
الخطأ الرهيب الذي وقعت فيه إذ أعطته هذه الرسالة دون
ذلك . وأنها لاشك آتية بسرعة مجنونة إلى بيته لطالبه بها . .
ربما قرعت الباب طويلاً ولم تجد أحداً . . ربما هي تنتظره
 أمام الباب . . وفي أسوأ احتمال هي تزرع النافذة تنتظر
 قدومه بلهفة . . ولكن كيف ستكتشف الخطأ وقد رآها
 تختفي المظروف الآخر أمامه وتهبط الشارع لتضعه في بريد
 الليل ؟ يحس أنه أخطأ في ابعاده عن بيته . . فهناك . .
 وقريباً منها يستطيع أن يتبع أي شيء يحدث معها . أما هنا
 فمن المستحيل أن يعثر عليه أحد حتى ولو انتحرت سامية

بسبب خطئها في الرسالة ، وعلى فرض أنها اكتشفت خطأها عند الصباح . فماذا سيكون عليه الأمر ؟ الرسالة الأخرى قطعاً ليست مشكلة كائناً من كان صاحبها . المهم هذه التي معه . . إنه مستعد أن يستغفر سامية لأنه قرأها ثم يعيدها لها بعد أن يطلعها على نص الرسالة التي أرسلها لزوجها حسب مافهمه من خلال لقائه الأخير معها . . ولكن . . لماذا يستهين بأمر الرسالة الأخرى ؟ . . هل يمكن أن يطلع شخص ما على تفاصيل علاقة زوجية هي في رأيه مهددة بالإنهيار ؟ ألا يمكن بعد ذلك أن تنهار إذا وصلت الرسالة إلى عاشق .

جابر يتذكر أن له صديقاً في مصلحة البريد يمكن أن يساعده في استرداد الرسالة . . لكنه إذ يتذكر قوانين البريد يشك في إمكانية المساعدة . . وهل هو صاحب الرسالة حتى يطالب باستعادتها ؟ .

لم يخلص جابر من قلقه إلا قراره بأن يسافر إلى بيروت . . ويعكث عند كريم . . ويرقب وصول رسالة إليه من سامية

فيصادرها . ثم يقنع كريم بالعودة إلى بيته . . . ويعود . . .
وينتهي كل خطر .

ولكن . . . لماذا يعود كريم وبهذه السرعة ؟ . أمن أجل
سامية الخائنة :

يحس أنه مخدوع بها . . امرأة تعيش حياتها الخاصة
بطيش . . دون أي وازع من ضمير .

ثم إنه لن يكتب أي رسالة ولا بد له أن يذهب قبل
أن يعود بشير .
ويهبط الشارع .

* * *

تفاجأ سامية عندما يرن جرس البيت . لم تكن تتوقع
نجيء أحد في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل . . الأم هنية
كانت قد خلدت إلى النوم بعد أن تناولت أدويتها . والخادمة
في إجازة ورجاء في غرفة النوم . . تضطرب سامية فقد
هيأت في زاوية غرفة الطعام مائدة صغيرة بـ كأسين . . .
لها ولرجاء . وكانت قد أعدت هذا الجو الخاص من أجل

رجاء . . الصغيرة الكبيرة . . الهاجحة الصافية . . ومن أجل
أن تجعلها تتحدث عن أعماقها بما فيها من كنوز وطحالب . .
ومرجان وحيتان . وليس من السهل أن يجعل إنساناً ما يتحدث
عن نفسه بصدق بين يديك . . أصعب وأعظم ما يواجه
الكافر هو الإعتراف . . وأعظم منه الإحساس بأن ما يسمعه
هو الصدق . الصدق أساس القناعة .

قرع الحرس يتواتي . لن ترد . لكنها تخشى أن تزurge
الأم . تنظر من العين السحرية المشتبة على الباب . . ترى
جابر وتلمح القلق على وجهه وهو يحاول أن يطفيء سيجارته
على الأرض بمحذر . تتردد في فتح الباب . لكنه يعرف تماماً
أنها في البيت وربما ألح في قرع الحرس فأيقظ الأم وأفسد
كل شيء . ملعون جابر هذا . . كم هو ثقيل الظل وسمجي . .
إنها لاتطيقه فلِمَ تفتح له بيتها وتدخله في صميم مشكلاتها؟
ألا إنها كذلك لاتطيقه؟ . . كرهنا للأشخاص عامل لأن
نقترب منهم أحياناً . لنفسها تردد : أيها العجوز البليد . .
سوف أجعلك تهجر المدينة كلها ، لو كان لي قدرة السحر

لمسختك قرداً . . أو لأنخرجت ذاتك من الكهف بعد أن نامت تحت ركام الأوراق وبين توابيت الطاولات والحرروف.

تدبر في ذهنها ماذا يمكن أن تفعل حتى تثير - جابر -
تجعل خياله ينشط مثل خلية نحل دون أن تقول كلمة .
أحسن طريقة أن تفتح له باب غرفة الطعام وتتركه يتوهم
كما يحلو له . الغموض أكبر أسرار المرأة . . وهو من
صنع الرجل وليس من صنع المرأة . وما عليها إلا أن تصمت.
ويقع الرجل في الدوامة . . أية لعنة شيطانية بدأتها مع
جابر . . لتمعن بها إذن . .

تلقي سامية نظرة خاطفة على مظهرها في المرأة المثبتة
خلف الباب . تبعت بخصلة شعر فوق جبينها . . تضغط
على شفتيها لتشتت اللون الأحمر فوقهما وتبعد العروة عن
الزر الأعلى في قميصها وتشيع في وجهها ذبولاً ناعساً ثم
تفتح الباب . .

- آه . . جابر . . سيد جابر . . أهذا أنت ؟
يتنهد ويرد عليها كأنما تعب من الانتظار .

— نعم جئت من أجل ..

تنتحى قليلاً عن الباب . ترك له الفرصة لكي يرى المائدة وقد سقط فوقها نور أحمر خافت من رأس راقصة أفريقية . يحدق جابر حوله ويضطرب .. تقول بتकاسل :

— تأخرت في فتح الباب لأنني كنت في غرفتي وراء المرأة . أنت تعرف قصة المرأة مع المرأة .. مثل قصة النحلة والزهرة .

بغضب مكتوم يقول :

— جئت في وقت غير مناسب . ربما تنتظرين أحداً .

ولم يجرؤ أن يقول : أن لديك أحداً :

قبل أن تجib تفتح رجاء باب غرفة النوم . ماأن تطل برأسها وترى جابر حتى ترتد إلى الوراء . جابر لم يرها لكنه سمع صوت الباب .

سامية تقول :

— الحقيقة أنه لقاء صغير . ليس هذا وقته كما تعلم

ولكن كثيراً ما نشعر رغم قسوة الظروف أنه يجب أن نلتقي بانسان ما .

تقترب منه أكثر . تضع يدها على كتفه . ينفرط شعرها الأمليس على كتفيها يحمل عبقاً مسكوناً يدور له رأس جابر . تسأله :

— ماذا معك ؟ رسالة ؟ هل تخضني ؟

جابر يجيبها باضطراب :

— لا . . إنها لي . . أقصد أنها لاتعنيك .

تضحك سامية ضحكة صافية :

— كأنما هي من امرأة . . إن فيها عطراً . . وأنا أيضاً أحب اللون الأزرق للرسائل . . وأعطيها دائماً .

يمتلىء جبين جابر بالعرق البارد . . يوشك أن يقول لها إنها رسالتها . وإنه . . يريد أن يطلعها على الحقيقة قبل أن تكتشف الأمور وتقع الفضيحة .. لكن سامية لاتترك مجالاً للكلام . . ثم هي تتركه لتغيب قليلاً . . وعندما تعود تكون شجاعته قد اختفت وقرر ألا يقول أي شيء .

— إنه — باسيل — الصحفي . . هل تعرفه؟ . .
كلمني هاتفياً .

تدور الدنيا أمام عيني جابر . صحفي . . ويتصل بها
في هذا الوقت المتأخر جداً من الليل . باسيل هذا بالذات
لا يهمه إلا اصطياد القصص ونسج شبكة الفضائح .

بدون وعي يسأل جابر :

— وماذا يريد؟ أقصد . . هل هذا وقت مناسب؟ .

تتظاهر سامية أنها لم تفهم :

— لا يبدأ عمله في الصحيفة قبل العاشرة . وأنا ألتقي
مكالمات في مثل هذا الوقت أحياناً .

ومكالمات أيضاً . . وربما علاقة . . أي بستان من
الشوك تسير فيه يا جابر . . ما شألك بكل هذا؟ أنت الذي
عشت طوال حياتك محافظاً على كل شيء . النظام والعادات
والأخلاق . . و . .

هذا ما أخذ يرددده جابر لنفسه . . يختصر الطريق
للهروب .

— كيف حال والدتك؟ هل تحسن ضغطها؟ . .

تجيب ببرود :

— أظن أنها لن تتحسن بشكل تعود فيه إلى ما كانت عليه . . إنه مرض العجائز . . لكن بنيتها قوية .

يهم بالانصراف :

— وهل تحتاجين لشيء من أجلها أعني أي خدمة . . أنا مستعد .

ترد بضحكه ناعمة :

— أهذا جئت؟ أشكرك . لا أحتاج لشيء . هل لاحظت أن النور الكهربي معطل على السلم؟ كم هو مزعج بالنسبة لزوار لا يعرفون تماماً البيت . يوشك جابر أن يسأل شيئاً . . لكنه يسع . . يطوي الرسالة . . يدسها في جيبه . . ويمضي .

بينما هو يخرج . . كان شبح يخرج من غرفة سامية لم يستطع أن يتبيّنه لأنّه كان عند آخر خطوة . حيث سامية والعطر النفاذ يتغلغل إلى دماغه .

* * *

عندما تعود سامية إلى غرفتها تجد رجاء في ثوب نوم حريري شفاف اختارته من مجموعة أثوابها المكدسة في الخزانة . تشهق سامية عندما تتأكد أن رجاء اختارت هذا الثوب بالذات ولم تأخذه مصادفة . سامية مع هذا الثوب قصة لياليها الأولى مع كريم . . ثوب فاتح اللون يكشف عن مفاتن الجسد بشكل صارخ . . . وهو على جسد رجاء يعيدها بعنف إلى تلك المرحلة من حياتها . مرحلة سن رجاء . أحد عشر عاماً ليست بالشيء اليسير . . أحد عشر عاماً أطفأت النار التي كانت تحت هذا الثوب . . وحطمت من عنفوان الصدر والعنق . . وهدت المشيئه . وجاء الاغتراب . . وجاء الفراق . وما فيهما من خمول وانطفاء . صحيح أنها لاتزال جميلة . . وبها دفقات شباب لا يعرف الذبول لكنها الآن غيرها في تلك السنين . . وهي ليست أبداً كرجاء التي تتدفق حيوية وتمور بفتقته لم تفتح براعمنها بعد على يد رجل . . رجاء جزء منها . . بل إنها هي نفسها . رابطة قوية تشدتها إلى هذه الشابة الجميلة أكثر من رابطة الدم والقرابة . رابطة روحية من نوع عجيب . هل هي

الأمومة؟ .. لا .. لا .. رجاء توشك أن تكون امرأة مثلها تماماً .. كاملة النضج . وهي تعاني من مشاكل عاطفية كما ألمحت لها . تعاطف إنساني غريب يجعل سامية موشكة على البكاء .. وإلى أن تتدفع نحو رجاء لتعانقها . لو لا أنها تتماسك .

تستعين بصبرها وجلدها المعهودين .. تقول بصوت متنهاج .

— كنت سأوقظك يارجاء لتناول عشاءنا على طريقتنا .. لم تدق طعاماً منذ الصباح ، ولكنك أفقت وحدك .
تقول رجاء بلهفة :

— ماذا بك يا سامية؟ هل أنت متزعجة من شيء ..
كأن في صوتك الدموع . الحقيقة أنني أفقت على جرس الباب عندما جاء هذا الرجل .

تجيب سامية متوجهة الجزع الأهم من سؤال رجاء :
— قرع الجرس أكثر مما يجب . إنه جارنا جابر ..
 جاء يسألني إن كنت أريد شيئاً ..

تسأل رجاء :

— أهذا السبب أنت متزعجة ؟ ليس هناك خطر على الحالة هنية . ثم انك امرأة قديرة تعودت حمل المسؤوليات .
تود سامية لو تصمت رجاء . . غباء أن تفكر هكذا .
ولكن لا بأس . . لو لم تتكلم أي شيء لما عادت لها طبيعتها
المتماسكة . . ولما عاد لها إحساسها أنها هي التي تملك الأشياء ..
عاد صوتها هادئاً عميقاً . تقول لرجاء :

— إذا كنت لا تشعرين بالبرد اتبعيني رأساً إلى المائدة . .
وإلا ضعي شالاً . . إنه أمامك . . ذو اللون الأحمر .

تجيب رجاء :

— إلى غرفة الطعام ؟ ولم ؟ نستطيع أن نأكل في المطبخ
فلا تشير في البيت ضرورة .

تعود سامية لتقول لنفسها :

— ليتها تصمت . . ليتها تفعل ما أطلبها منها دون
أن تتعرض .

تتمنى سامية لو أن لها قدرة حتى تجعل رجاء تتحدث

عندما تريـد . . كما تريـد . . باستسلام ورضـى ليس فيـهما
ذرة من إرادة معاـكـسة .

تنـظر سـاميـة إـلـى رـجـاء نـظـرة ثـاقـبة . . تـحس أـنـها تـخـترـقـها
حتـى الأـعـماـق . .

هـنـاك تـعـثـر عـلـى حـمـامـة وـدـيـعـة مـقـصـوـصـة الجـناـحـين . .
تـرـاـهـا تـتـخـبـط بـجـانـحـيـها مـحـاـوـلـة الطـيـرـانـ بلا فـائـدـة . . تـمـدـ
سـاميـة يـدـاـ من حـدـيد لـتـقـبـض عـلـى الـحـمـامـة المـضـطـرـبة . .
لـاتـسـتـطـيـع . . تـفـلـتـ منـهـا . . تـنـقـرـ أـصـابـعـها القـوـيـة فـتـرـتـعـدـ .
إـذـنـ لـيـسـتـ رـجـاءـ عـلـى وـدـاعـتـها كـمـاـ تـصـوـرـتـ . . صـحـيـحـ
أـنـهـ ضـعـيـفـةـ وـمـكـسـوـرـةـ الجـناـحـ بلـ رـبـماـ لـمـ يـنـبـتـ رـيـشـ جـانـحـيـهاـ
بـعـدـ وـلـكـنـهاـ لـيـسـتـ مـسـتـسـلـمـةـ . . وـلـاـ مـنـهـزـمـةـ . . تـقـولـ سـاميـةـ :
ـ هـيـأـتـ لـنـاـ عـشـاءـ صـغـيرـاـ بـطـرـيـقـةـ خـاصـةـ . . تـعـالـيـ . .

وـتـنـظـرـ رـجـاءـ إـلـىـ المـائـدـةـ . . وـتـشـهـقـ . .

ـ بـلـ هـوـ عـشـاءـ فـخـمـ . . أـرـاهـ سـحـرـيـاـ كـمـاـ لـوـ أـنـيـ
فيـ مـكـانـ عـامـ وـجـمـيـلـ . .

ـ هـلـ ذـهـبـتـ إـلـىـ تـلـكـ الـأـمـكـنـةـ الـيـ يـسـمـونـهـاـ الـكـهـوـفـ ؟

— لا . . لم أذهب مطلقاً . . سمعت عنها . . كم أتمنى ذلك .

— تتمنين ؟ ولم ؟ ما الذي يشيرك فيها ؟

— لا أدرى . . أحس أنها عوالم خفية غامضة .
تشوقي حتى تسلبني عقلي .

لا بد أن أذهب يوماً ما . . لابد .

— وماذا تنتظرين إذن ؟

— أنتظر ؟ . أنتظر الفرصة المناسبة . ما رأيك في أن نذهب معاً في يوم ما ؟ .

تنتفض سامية كما لو أن ناراًلامستها . إذن فرجاء هي الأخرى ترى فيها صورة خاطئة . . وخطأة جداً عن نساء يعشن حياتهن إلى أبعد مدى . لعل الصورة أيضاً مشوهة . . ما يدرى بها ؟ هي في الواقع تكره هذه الأمكنة . . لا ترى فيها أي سحر أو جمال . فيها تحس كما لو أنها تتعرى ، بعواطفها . . بعراائزها . . بضعفها . . وكل شيء يغدو حافياً فقيراً رغم مظاهر الضجة والأفacaة وظلال

الأضواء . تفضل ألف مرة الزوايا المادئة في البيوت . .
أو البقاع الجميلة المنسية في الطبيعة :

سامية تضي في اكتشاف رجاء أكثر .

— ومن تفضلين أن يكون معنا إذا ذهبنا ؟

ترتبك رجاء . . يبدو عليها ضيق ممزوج بخجل .

— الحقيقة يا سامية . . أريد أن أحديثك في موضوع
هام . . لأدرني إن كان هذا هو الوقت المناسب .

سامية تقول بثبات :

— كنت أظن أنك ستحديثني عن كل شيء لاعن
موضوع واحد . . هاماً كان أو غير هام .

— وهل يهمك أن تعرفي كل شيء ؟ .

— الحقيقة أن أي موضوع لا ينفصل عن الموضوعات
الأخرى . . حياة الإنسان كل لا يتجزأ . . ولا تستطيع
أن تلقي ضوءاً على ناحية دون أخرى .

ثم تردد بهمس :

— وخاصية ونحن لم نلتقي منذ فترة طويلة .
تنهد رجاء . كأنما تزير عن صدرها كابوساً .

— سيتحول الأمر إلى اعترافات .. ولكن ما المانع ؟ .
أنت ابنة خالي .. وامرأة لا ككل النساء . هل تعرفين
ياسامية أن تجربتك في الحياة تثيرني ، كم أتمنى أن أسمع
منك يوماً عن هذه التجارب .. بل إنني أموت شوقاً لذلك ..
تضحك سامية بصوت مرتفع . تند صحن الفاكهة
إلى رجاء :

— ليست تجاري كما تتصورين من الإثارة . الناس
متشابهون دائماً فيما يعانون في هذه الحياة .. وما يختلف
هو الإحساس بالأشياء .. أقصد قوة المعاناة وشدتها .
يبدو لسامية أن رجاء لم تفهم تماماً ما قصدت إليه
إذ ردت عليها ببساطة :

— الأمور تقاس بأصحابها .
تجيب سامية بخيبة أمل :

— لعلك فهمت هكذا . . لا بأس . . ماذا كتبت
تريدين أن تقولي ؟

بنزرق تقول رجاء :

— الموضوع وبكلمة واحدة . . أريد أن أعيش . .
— حسناً ؟

— أقصد . . أريد أن أجرب . . أن أرى الأشياء
كما هي فأننا الآن وراء ألف ستار . أريد أن أمزق هذه
الأستار . . ورغبي تزداد وأنا معك . . لا أعرف تفسيراً
لذلك . كأنما هناك قوة تدفعني لأن أحطم كل شيء وأندفع .
سامية تشعر أن دوامة بدأت تلفها . لنفسها تقول :

— هذا مدهش . . عجيب . . بل مذهل . هل بدأت
الدوامة هنا أيضاً ؟ هل . .
رجاء تقول بحماسة :

— أخبريني يسامية . . هل أستطيع أن أقاوم أكثر ؟
قاومت طويلاً . . والآن أحس أن الحلقة تضيق حول
عنقي . . تكاد تخنقني .

سامية تقول بخفوت وبلا مبالغة مصطنعة :

— ولم المقاومة إذن مادام الأمر لابد منه أو هو واقع؟ .
لسقوط السكين من يد رجاء . ترك ما كانت تأكله
من فاكهة :

— أهذا ماتقولينه؟ لكنني لست واثقة من شيء . . .
أقصد . . لست واثقة منه . . ولا من نفسي :

سامية تهتف :

— ومن هو؟ . . أجيبي . .
ترتعد رجاء . تحاول أن تتهرب من الجواب لكن
عيني سامية المسلطتين فوق عينيها ترغمها على القول :
— طبيب مشهور . . يعطف على ويفهم أحوالى .

لنفسها تردد سامية :

— أسوأ أنواع الحب ذاك الذي يبدأ بالشفقة والعطف . .
وأنا شخصياً لا أحب الأطباء . . نفعيون . . مغرورون . .
مسكينة رجاء .

تسأل :

— هل فاتحك في موضوع الزواج ؟

رجاء تجيب :

— زواج ؟ لا .. أبداً .. قلت لك أنه يعطف علي
ويفهم حالتي .. ثم إني بعد ذلك لاستحقه .

تنفجر سامية :

— أية حالة ؟ وأنت ماذا ؟ لم لاستحقينه ؟ هل أنت
ناقصة ؟

تجيب رجاء وهي تبكي :

— نعم .. ناقصة . لست متعلمة .. ولا أقدر أن
أجاريه في حياته الاجتماعية .

تضحك سامية بتحد :

— حياته الاجتماعية ؟ ياسلام .. أي حياة اجتماعية
تقصدين ؟ حياة هؤلاء الذين يلتصقون بالبورجوازية من
أمثاله ؟ أو يتمسحون بالثقفين وأصحاب النفوذ ؟ هؤلاء

لَا يساوون شيئاً .. و أنا أرفض أن أستقبلهم في بيتي أو أمضي
سهرة واحدة معهم .

تنهمر الكلمات من أعماقها من بين ضباب يغلف
صورة كريم .. آه يا كريم .. إنها آراؤك .. وها أنذا
أدافع عنها مثل لبواه .

تقول رجاء من بين الدموع :

— ولكن .. لابد أن أوضّح لك ..

— ولكن ماذا؟ .. قولي .. ماهي حالتك؟ مريضة؟

تجيب رجاء ، وقد خففت من دموعها :

— ليس مرضًا بالمعنى الصحيح . ولكنني أحياناً
أشعر بضيق في التنفس وميل إلى البكاء . وتنقطع شهيتي
عن الطعام وأصبح هزيلة شاحبة .. ولا ألبث أن أتحسن
بعد أن أتناول أدوية .

لنفسها تقول سامية :

— تظن أن هذا مرض .. انه الحرمان والقلق لا أكثر ..

فتياتنا مسكيّنات . . . أكثرهن مسجونات في قمّاقم عواطفهن
وغيرائزهن قبل أن يسجّنّهن المجتمع .

ترفع صوتها :

— أهذا كل شيء؟ إنها حالة نفسية يار جاء . . والدليل
أنك تتحسّن كلما أعطاك أدوية . . أعتقد أن زيارته
وحدها تكفي .

تحاول رجاء أن تضحك . تفشل . تعود فتقول :

— نعم هذا ما يحصل . أصبحت أرغب في زياراته
فقط . وقد لا أتناول الأدوية .

— وهل يعرف بذلك؟

تضطرب رجاء :

— صارحته بكل شيء . . . لكنه لم يجني بشيء .
لنفسها تقول سامية :

— حماقة أخرى . أعطته ولم تأخذ منه . ليس أكثر
إذلاً للمرأة من أن تبدأ هي بالحب . . : تسأّلها :

— وهل ظل مستمراً في علاقته بك؟

— استمر . . وكأني لم أقل شيئاً .

وتهمس وكأنها تخاطب نفسها :

— هل سأفضي لك بكل هذا منذ الاجتماع الأول ؟
أنا خائفة . .

تابع سامية :

— أعتقد أن هذا أفضل . . أن تفضي لي من أن تفضي
لغيري . . ومم تخافين ؟

— ألن تقولي لأحد ؟

تقهقه سامية :

— مثلاً ؟ لأمك . . أليس كذلك ؟

— لا أقصد هذا . . إنما .

— يامغفلة . . أنت الأخرى تظنين مثل الآخرين ؟

تلعثم رجاء :

— الحقيقة . . الحقيقة أني ياسامية لا أجدهك مثل
الآخرين وهذا أحدهك . : وهذا جئت لعندك • أتصرف

معك كما لو أني مسحورة . ولن أخفي عنك شيئاً .
ولكن ليس بهذه السرعة .

سامية تقول بحزم :

— كما تشاءين . والآن تعالى نرجع إلى غرفة النوم .
بدأت أحس بالبرد .

— هل . . هل سأنام في غرفتك يا سامية ؟ لا . .
دعيني . . سأنام فوق هذه الأريكة . ما رأيك ؟

— بل تعالى . . ستنامين عندي . . لا أرى مانعاً
من ذلك . . سننهر قليلاً قبل أن ننام .

تستلقي سامية ورجاء في السرير العريض الذي تزيشه
زهارات (أوركيدة) كبيرة بيضاء .

تنهد سامية . رجاء تقول :

— ما اسم هذه الأزهار ؟ أنا لم أرها في حياتي ؟ . .

— إنها أزهار (أوركيدة) . . لاتنمو في بلادنا .
وأنا أحبها . . زينت برسومها سريري . . وصلتني

واحدة منها وأنا في الفندق في باريس أول يوم من شهر العسل .

تضحك رجاء :

— أهذا تنهدت؟ عفواً . . جعلتك تتذكريين كريماً .

سامية تجيب بنبرة ثابتة :

— لم تكن الزهرة من كريم . . بل من أحد نزلاء الفندق .

تشهق رجاء . تقول سامية بهدوء :

— لم تستغربين؟ في النفس زوايا صغيرة نستطيع أن نوقد فيها الشموع كلما ضاقت بنا الحياة .

— وهل . . هل كان فرنسيّاً؟

— بل هو سوري . كان يدرس هناك في الجامعة . . وهو الآن استاذ فيها .

— إذن . . فأنت تعرفيين أخباره . . ؟

لنفسها تهمس سامية :

— سأظل اتتبع كل شيء عن أخباره . . حتى اللقاء .

أو حتى نهاية عمري . . كان اسمه — ناجي .
أرسل لها زهرة الأوركيدية قبل أن يعرف من هو زوجها .
رأها وحدها في صالون الفندق . لما صادفها مع كريم فوجئت
أنه يعرفه . . وتصافحا . . وتعانقا . . واكتشفت أنها
صديقا طفولة . . ودعاهما إلى سهرة في حي (مونمارتر) ..
وكانـت سهرة رائعة . . تعبق بسحر الفن وروعة الجمال .
وشعرت أنها فراشة زرقاء تطير فوق سماء باريس الفسيحة . .
بل فوق سماء الكون بأسره . . وبفارغ صبر انتظـرت
أن يرد زوجها له الدعوة . . وفعلاً تحققت . في القمة من
(برج إيفل) عند ذلك أحـست أنها معلقة بين الأرض
والسماء . . ظـل هذا الشعور يلازمـها كلـما فـكرـت فيه .
ناجي نموذج مختلف عن كـريم . . مـثقـفـ مثلـه . . وـمـطلعـ
عـلـىـ ماـفيـ العـصـرـ منـ تـقـدـمـ وـحـضـارـةـ . . وـوـطـنـيـ صـادـقـ . .
لـكـنـ أـسـلـوبـهـ لـاـيـشـبـهـ أـسـلـوبـ كـريمـ . . كـريمـ عـنـيفـ . .
وـصـارـمـ فـيـ تـطـبـيقـ أـفـكـارـهـ إـلـىـ حدـ القـسوـةـ عـلـىـ نـفـسـهـ . . وـعـلـىـ
الـآـخـرـينـ . . نـاجـيـ عـلـىـ الـعـكـسـ . . هـادـئـ . . وـيـؤـمـنـ بـالـثـورـةـ
الـفـكـرـيـةـ قـبـلـ السـيـاسـيـةـ وـالـاجـتمـاعـيـةـ يـرـىـ أـنـ كـلـ مواـطنـ

يمكن أن يكون ثورياً بطريقته الخاصة . . وأن التطبيق العملي للمبادئ عن طريق العمل أو المهنة هو أئجع سبيل . . وعندما سأله : كيف يمكن للمرأة أن تكون كذلك وخاصة إذا كانت لاتعمل ؟ أجاب : بأن تعيش أفكارها . . بأن تكون متطابقة مع نفسها . . بأن لا تقول شيئاً وتتصرف آخر مهما كان صغيراً . كانت أفكاره هي أفكار كريم ذاتها فيما يتعلق بالمرأة . . ولكن ومن خلال حوار طويل استطاعت أن تقنع معه أكثر . . أن تتلمس طريقها بوضوح أكثر .

وفي المطار . . عندما ودعته أحسست أنها تودع شخصاً عزيزاً . . صديقاً منذ الطفولة كما هو لزوجها . ورأت العالم فارغاً من حولها وعلى الرغم من حضور كريم الواضح والكبير ، أوشكت أن تنسى نفسها . . وتزرع لفتها في عينيه عندما أصطدمت بكريم ينظر إليها بدهشة واستغراب . ارتدت منطوية وقالت بما يشبه اليأس . . بما يشبه الأمل : لعلنا سنراك في دمشق : أو هنا .. وبعد ذلك لم تره أبداً .

ظللت تتبع أخباره تقرأ ما يكتب من أبحاث ومحاضرات
كأنما تواكب صعود نجمه .. انطلاقه .. تفكيره .. كل
ما يطرأ عليه من جديد .

سامية تنقض عن رأسها مطر ذكرياتها . ياهذه
الذكريات . . كم أصبحت تعذبها . تحاول أن تواصل
الحاديـث من رجاء فقد وعدتها أن تسهر معها قليلاً . :
وأن تحدثها كثيراً . لكن فأـس الصـمت كان قد وقع رغمـاً
عنـها . لم تعد قـادـرة على أن تواصل حوارـها الخـاص في
ذاتـها الخـاصـة وبرـزـت عـلامـة الاستـفـهام الكـبـيرـة لماـذا ؟ لماـذا
حصلـالـذـي حـصـل . : ولـماـذا يـحـصـلـ ماـيـحـصـل ؟ . .

وتـدقـ السـاعـةـ الثـالـثـةـ صـبـاحـاًـ وـسـامـيـةـ لمـ تـعـرـفـ النـومـ . .
خـيلـ إـلـيـهاـ أـنـ وـجـودـ رـجـاءـ فـيـ سـرـيرـهاـ هوـ السـبـبـ . .ـ فـهيـ
قـدـ انـكـمـشتـ فـيـ مـسـاحـةـ صـغـيرـةـ مـنـهـ بـيـنـماـ رـجـاءـ نـامـتـ بـحـرـيةـ
مـثـلـ طـفـلـةـ مـتـعبـةـ . جـمـعـتـ غـطـاءـ السـرـيرـ فـوقـ رـجـاءـ . تـنـاـولـتـ
آخـرـ وـانـسـجـبـتـ إـلـيـ أـرـيـكـةـ قـرـبـ النـافـذـةـ لـتـنـامـ . تـنـظـلـ عـيـنـاهـاـ
مـسـمـرـتـينـ فـيـ السـمـاءـ الدـاـكـنـةـ . . تـتـابـعـانـ رـحـلـةـ النـجـومـ حـتـىـ
بـنـطـفـيـءـ آخـرـ نـجـمـ .

صفحة فارغة من أصل الكتاب الورقي
(عازلة بين فصلين)
عادة من عادات بعض المطبع
لا تبدأ فصلاً جديداً إلا على رقم صفحة فردي
(أو على صفحة تتوافق وضعيتها مع غلاف الكتاب)

الفصل الرابع

سامية ورجاء تفيقان على صوت عويل وصراخ . . .
رجاء تذعر .. تظن نفسها أنها تحلم.. توشك أن تصرخ هي الأخرى . ترفع الغطاء وتهب من السرير . تنادي : سامية .. سامية .. وتخرج من الغرفة لتسمع الحادمة تولول . . وتقول إنها فتحت المفتاح الباب كالعادة صباحاً ودخلت بهدوء عندما سمعت جسماً يقع على الأرض في غرفة الأم هنية .. لم تجرؤ على الدخول وأسرعت فأيقظت سامية ، عندما دخلتا كانت الأم هنية فوق سجادة الصلاة والعرق يتصبب منها .

سامية والحادمة تحملانها إلى السرير . . تسرع سامية ل تستدعي الطبيب . أما الحادمة فلا تفتأ تردد :

— غصباً عنى صرخت والله ياست سامية .. غصباً عنى .

سامية لاترد والخادمة تستمر :

— إن شاء الله سلامتها .. افر كي يديها الباردين ..

أنا ولا هي .. روحى فداتها .. فداكم كلكم .

تضع سامية أصابعها المرتعشة فوق صدر الأم هنية ..

تشعر أن قلبها يضرب بسرعة بينما صدرها يعلو ويبيط

وأنفاسها متقطعة ، تصرخ برجاء :

— اسرعي واستدعى الطبيب يار جاء .. أسرعي .

— هل أنادي الدكتور سالم ؟

— أي طبيب .. المهم أن يكون معنا طبيب .

لحظات رهيبة تمر وسامية مزعزعة الكيان هلعة ،

تغرس عينيها في عيني أمها اللتين تحيطان جامدتين خائفتين .

الأم تتمم بكلمات مبهمة وتذكر أولادها وكريم ..

تفجر سامية بالبكاء . ترثي فوق يدي الأم حتى تحس

الباب يصفع وتدخل رجاء مع الدكتور سالم .

والدكتور سالم لم يكن باستطاعته أن ينقذ الأم هنية .

أمر بأن تكون هادئة وتعطى المسكنات وأدوية تخفيف الضغط ، سامية تقول :

— هل ستأتي غداً يادكتور ؟

— بل مساء . . عندما أنتهي من عيادي .

رجاء تتدخل :

— أنا باقية هنا يادكتور . . أريد أن أطمئن هل سيرتفع عنها الخطر ؟

تطرق سامية برأيها . . وكذلك الطبيب . . فهما يستغربان سؤال رجاء . واضح إنه لا أمل .

يقول الدكتور سالم :

— الواقع أنني كنت أسمع عنك كثيراً ياست سامية . وانها فرصة أن أتعرف بك . . ولو أنني كنت أتمنى غير هذه الظروف .

سامية ترد بابيحا :

— وأنا كذلك .

في الليل تهدي الأم هنية . . تطلب أن يعطوها المفتاح ولا أحد يعرف أي مفتاح . . تنسج . . تنادي أولادها وكريم . . وهكذا طوال ساعات .

سامية غائبة عن الوجود . . هل يمكن أن تنطفئ
أمها هكذا مثل شمعة ؟ هل يمكن أن تتركها وحيدة هكذا
وترحل ؟ هل الحياة قاسية إلى هذا الحد ؟ مواجهة الموت أمر
رهيب . . يبعث الرعدة في الأوصال . . أن بعث الموت
أهون من أن يشهد موته من يحب . يوم مات أبوها كانت
لاتزال في مرحلة حياتها الزوجية الأولى . . وكانت أكثر
شباباً . . وأكثر ابتعاداً عن فكرة الموت . ولم تر أبيها ميتاً
فقد منعوها عنه و كان لها بيتها الخاص فلم تلتقط هكذا برأته
الموت و شبحه المريع . أواه يا كريم . . أين أنت ؟ تضمني
طفلة ينتزعون منها أمها . . تمسح دمعتي . . ترفع الأثقال
عن قلبي ؟ كم أنا بحاجة إليك . .

سامية تبعد رجاء إلى بيتها بحجة أن تستأذن أمها في
البقاء عند بيت خالتها هنية لأن سامية مريضة وليس الأم .
في أعماقها رغبة أن تغيب رجاء عن طائر الموت الذي
أخذت تراه يطوف . . يضرب بمحاجيه الباردين فوق جسد
الأم فيستل منها الحياة . قطرة . . قطرة . .

ويزداد هاث الأم . . وتدرك سامية أن لافائدة من الطبيب . . من كل أطباء الدنيا . . فأمها تختصر وعليها أن تختزن في ذاكرتها هذا الوجه الحبيب في لحظاته الأخيرة . . وتظل مسمرة قرب الفراش . . . تحدق بذهول . . تكاد لاتسمع ما تهدي به الأم . . وقطعاً لاتدركه .

وعند منتصف الليل ثبت الأم عينيها فوق الساعة المعلقة على الحائط . . ثم ترحل. وتقف الساعة عن الدوران في اللحظة التي توقف فيها القلب عن التحفzan . . انتهي ملء الساعة وانتهت حياة مليئة أيضاً . ثوان كالدهر كالموت . . تلك التي حملت الموت .

سامية تظل مرتمية فوق الجسد الذي بدأ يبرد . . حتى الصباح .

عند الصباح تعود رجاء . . سامية تعلن موت الأم هنية لها وللخادمة . رجاء تنفجر بالبكاء مثل طفلة . الخادمة تنشب صوتها بصراخ مليء . سامية تطلب منها أن تكف عن هذا السخف . . تفتح عينيها متعجبة :

ـ عزاء بلا عويل وصراخ . . اللهم عفوك يارب .

ـ لكن العزاء لن يكون اليوم . . أفهمت ؟ لا بكاء . .

ـ لاصراخ . لاشيء .

ـ والدفن ؟ ألن ندفناها اليوم ؟ تكرييم الميت ترحيله
ياست سامية .

ـ وأنا لن أفعل ذلك . . لن أتركمهم يختطفونها مني
إلى القبر بهذه السرعة. لا أريد أن يأتي أحد..أن يعلم أحد.
رجاء تكاد تموت من الفزع ، فهذه أول مرة ترى
فيها الموت. وزاد الصمت في الرهبة . . فقد قطعت سامية
خط الهاتف . وحضرت على رجاء والخادمة أن تبلغوا الأهل
والجيران . سامية تناقش نفسها .. لابد من الدفن اليوم
ولكن ليس بهذه السرعة لا أقل من ساعتين تودع فيهما
أمهما . : وحدها . . وحدها . .

تغلق الباب على نفسها في غرفة الموت حيث الأم مسجاة
فوق سريرها المرتفع والنواخذ مغلقة والستائر . . سامية
تخاطب نفسها بصوت شبه مسموع :

— سأقوم لها بكل ما كانت تريده لنفسها بعد موتها .
ما أقسى ما سأقوم به . . لكنني شجاعة . . أمي يا أحب
إنسانة . . انظري إلى ابتك الصامدة التي تحاول أن تظل
صامدة . . ألمي ألم طفل يفصل عن ثدي الأم . . توشك
أكثر من مرة أن تسقط إذ تستعيد كلمات أمها :

— أريد أن تغسليني بيديك هاتين وأن تكفيني . .
ليس هذا مجرد دعاء أنا أريده فعلاً . . وأوصيك به . .
أنت شجاعة .

وتتمثل لها صورة النساء المكلفات بغسل الميّة وهن
يقتمنن البيت بنظراتهن الصلدة وأوشحتهن السوداء الوسخة ..
لقد رأتهن يوم ماتت إحدى قريباتها وهن يصرخن بأصوات
كصفارات الإنذار أو كنعيّب البوّم . ثم يهجمن على الفقيدة
بكل قسوة يعولن يمزقن عنها الثياب ويضعنها على المنصة
الخشبية كما توضع الجثة فوق المشرحة ثم ينظفنها وهن
يطلقن عبارات لاتمت إلى احترام الموت بصلة وعندما يتلّكأ
 أصحاب البيت في إمدادهن بما هو مطلوب كالماء والصابون

وأنواع الزيت والعطر والطيوب يزعن صارخات بأن الوقت يلحقهن وعملية الغسل يجب أن تتم بأسرع ما يمكن لأن عندهن - زبونات - في أمكنة أخرى . هذا عدا عن أخذهن كل ماتصل إليه أيديهن من حوائج الميتة وثيابها . . حتى مصاغها . . بحجة أنه حرام لغيرهن . . حلال لهن .

تتصور سامية كل ذلك . . وتضن بحسد أمها التحيل الرقيق أن تحكم به نسوة متاجرات بالموت . . تصمم على أن تقوم بكل ما يلزم دون استعانة بأحد .

* * *

تكشف سامية الغطاء عن جسد الأم . العينان لاتزالان مفتوحتين وفي بريق الزجاج . حوالي الفم شبه ابتسامة واللامح لم يتغير فيها شيء . تلقي بنفسها فوق الصدر الحاف . تحس تنهدة كبيرة تخرج من بين الشفتين وتغمرها . تجفف . لاتثبت أن ترمي نفسها مرة أخرى فوق اليدين المسبليتين والقدمين الباردتين . . تمسك كف اليد اليمنى . . كانت

مطبقة على مفتاح . لا تجرو على أن تفك الأصابع . تقرر
ألا تنتزعه منها . لعله مفتاح خزانتها أو أي مفتاح آخر .
وما دامت حريصة عليه حتى اللحظات الأخيرة فلتتر كه
لها . تنزلق يدها إلى الخاirstين . . . تعثر تحت العطاء على
دفتر . تمسك به كالمجنونة وتزق أوراقه . تبدأ عملية
عسيرة شاقة وهي أن تنزع الشياط عن الجسد الهايم الذي
تزداد برودته شيئاً بعد شيء . ترك لوجهها أن يتمرغ
فوق هذا الجسد الذي أنجبها . تبكي بحرقة وتتذكر حرقه
أمها من أجلها لأنها لم ترزق بولد :

— لو كان لك ولد يا سامية ... لكنت أطمئن عليك
أكثر . الولد سر الحياة . إن شاء الله أنت تكفيني وتدفيني .
وطالما حاولت أن تنزع من رأس أمها هذه الأفكار
القديمة إذ تقول لها :

— أما أنا يا أمي فأتمنى أن أغرق في بحر أو يلتهمي
حريق ، لا أريد أن يمد أحد يده إلي بعد موتي . . أليس
هذا أفضل ؟

و كانت الأم تتأوه . . ولا تملك أن تجibها بشيء .

اليوم تحس أن ما كانت تقوله أمها صحيح .. للجسد قداسته وخاصة بعد الموت وهي لاتفترط الآن بهذا الجسد بين يديها ولو أطبقت عليها الدنيا . لابد أن تنظفه وتعطره وتملؤه بالدموع والقبالات قبل أن تواريه في التراب الأخير . تحس أن قبلة أو دمعة هي قطرة رحمة تنزل فوق هذا الجسد الأسير فتساعده على أن ينطلق من أجواءه الروحانية السماوية . الجسد . . الجسد . . مشكلتها هي سامية . . كانت دائماً مع هذا الجسد . لم تستهتر به يوماً بل احترمه وجنبته كل رخص ولم يمر وقت إلا وهي تعطره ونظافته وأناقته وكتيراً ما كانت توقع عليه العقوبة بالحرمان . . ذلك لشعورها بقداسته . أي مصير ينتظر جسدها ؟ بل كل جسد ؟ جسد أمها مثلاً ؟ . لاتستطيع أن تبقيه بين يديها إلا لساعات . . سوف تملأ الرائحة الكريهة الجو . . وسيرغماها ذلك على الأقل على أن تهرب من البشاعة والتن .

تفتح الخزانة . تخرج ثوباً أبيض فضياً كانت أمها قد أعدته لموتها منذ زمن . تشمها . تضمها وتقبلها ثم تضعه

على طرف السرير . . بسرعة تملأ حوض الحمام في الغرفة .
تفعل كل هذا بثبات وهدوء وفي أعماقها يتعدد موال حزين
كانت تحفظه عن جدتها منذ الطفولة لا يسمع منه بصوت
عال إلا كلمة : ياموليا . . ياموه ليَا .

عندما تنتهي تحس النار تلتهب في كل جسدها . .
وبالنور والعجز عن أن تحمل الجسد إلى الفراش مرة
أخرى . . ولكن . . لابد من ذلك . تعبيء طاقتها كلها
وتنقل الجسد إلى الفراش وتسترخي إلى جانبه . لحظات
تحس أنها دهر . أين شموخ أمها وعنفوانها وكبرياؤها ؟
أين تمنعها من أن يرى أي إنسان عجزها ؟ أين خجلها
الفطري العميق الذي كان يدفعها لأن تسحب ثيابها فتغطي
أجزاء من جسدها تحس أنها ظهرت ؟ إنها الآن عارية
معطلة الإرادة . . وباستسلام كامل مطلق . إذن . . فالإرادة
هي الحياة لأنها نقىض الموت .

سامية تم المراحل الأخيرة من لف جسد الأم وتطيبه
ثم تندده في وضع متناسب مع المعتقدات الدينية فتدبره

للقبلة وتحفي الشعر المشتعل بالشيب بغضاء أبيض ثم تضع مصحفاً صغيراً في الصدر وكذلك قطعة من حجر العقيق مجلوبة من الأرض المقدسة . تسبل فوقها غطاء نظيفاً وتخرج من الغرفة بعد أن تغلقها بالفتح .

* * *

رجاء في الصالون ترتجف والدكتور سالم في حيرة هل يتركها ويذهب أم ينتظر سامية حتى تخرج من غرفة أمها ؟ يقول :

— في الحقيقة أنا محجج . . مارأيك يارجاء أن أنصرف ؟
رجاء ترتجف وتتمسّك به . بين لحظة وأخرى تصرخ ببكاء حاد . تخرج سامية من غرفة الأم ووجهها مثل شمعة .
الدكتور سالم يقول همساً :

— رجاء في أزمة لا تدعها تدخل أو ترى شيئاً .

سامية تقول بحزم :

— لن تدخل هي . . ولا غيرها . . لن يدخل أحد .

- هذا من شأنك . المهم أن أعصاها تعبت وأنت . .
هل تحتاجين لمساعدة ؟
- أبداً . أشكرك . كل ما أريده هو أن ترك لنا رقم الهاتف في منزلك إذا اضطررنا لشيء من أجل رجاء .
- اتصل بي بيت صديقي — مازن النجار — هذا رقمه . . سأمضي السهرة عنده .
- يقول ذلك دون أن ينظر في وجه سامية ثم يردد :
- الواقع أنني لا أريد أن أحمل زوجي هموم مهني .
تجفل سامية . . تأخذ الرقم بصمت . ينظر كل منهما إلى الآخر نظرة طويلة . ينصرف الدكتور سالم وتعود سامية بعد أن تودعه على عجل .
- رجاء لاتزال ممددة على أريكة في الصالون وهي ترتجف كورقة خريف . سامية تمسح فوق رأسها :
- استريح في غرفة نومي إذا شئت . لن أدعك تشاركين في شيء . طفلة لازلت يارجاء . .

تهب رجاء واقفة :

— لا . . . سأساعدك . ماذا تريدين ؟ هل أتصل بالأهل والجيران والأصحاب أم أشتغل بتنظيف البيت ورفع الأشياء التربيعية منه ؟

سامية تقول :

— لن نتصل إلا بأقرب الأقارب . . . جو الموت هو السكون والصمت فلم الزعيم والضجيج كمن فقد رشه ؟ ثم إنني لن أرفع أي شيء مما يزين هذا البيت . إنها سخافات يجب أن نتخلص منها . هل إذا مات عزيز يعني ذلك أن ننفر أنفسنا في الحياة ؟

تسأل رجاء بذعر :

— ماذا تقولين ؟ هذا شيء فظيع سوف يتقدنا الناس .

— ليتقدو كما يشاؤون لست أبالي بهم كل ما هنالك أنني سأرتدي السواد رمزاً للحداد ألا يكفي هذا ؟

تشهق رجاء :

— السواد؟ هذا خطأ آخر.. أنت متزوجة.. وهو
شئم على زوجك كما يقولون.

— لن يموت زوجي إلا عندما يريد له القدر أن يموت.

لبست السواد أم لم ألبس فالامر لا يرتبط بعضها ببعض
بهذه البساطة كما تتصورين.

— بالنسبة.. ألن تتصلني بزوجك ليحضر؟

سامية لاترد..

تسألف رجاء:

— الناس ألسنتهم طويلة يا سامية وعليك ألا تخترقي
الأصول في مثل هذه المناسبات.

— ماذا سيقولون؟ لست مضطرة لأن أدافع عن
حزني أو أشهره أمام أحد.

تقوم رجاء مثاقلة تنسحب إلى غرفة النوم لتغير ثيابها
وتمسح آثار الزينة من فوق وجهها. أما الخادمة فلا تزال
تضرب كفافاً بكف وهي تتلقى الأوامر من سامية وتبلغ
في حلتها ولولات مكبوتة. ايه.. من هذا الزمان..

كل شيء تغير . حتى الماتم أصبح فيها — موضة — لا تملك إلا أن تنشر دموعها هنا وهناك في أرجاء البيت بينما تنظفه وترتبه .

بعد ساعتين أو أكثر تسير الأمور كما أرادت سامية .

الأهل يكتمون غيظهم لكن الموقف يحتمد عندما تدخل الحالة صفية منتقدة كل ما تراه عينها . سامية ترد بقسوة ولو لا تدخل رجاء والحرارة — أم هاني — لوقعت قطيعة فورية . تضفت الحالة صفية لكنها تقرر بينها وبين نفسها أن تبرأ من سامية فلا تزورها أبداً وبالطبع فلن ترك رجاء تضع قدمها في بيتها أيضاً .

سامية تلحظ وشوشات النساء حولها وتلمح في عيونهن الغيظ والحدق فلا تهم . عندما يكتشفن أن سامية هي التي غسلت أمها وكفتها دون أن تلجم إلى المعلمات في هذه الصنعة ، ادعت بعضهن أن هذا خروج عن الدين وانسحبن الواحدة تلو الأخرى ولم يبق إلا القليلات . توشك سامية أن تنفجر بهن : ماذا تعرف النسوة الجاهلات الالتي يغسلن

الميّة بأمور الدين . . ليس أكثر مما تعرف هي . وقد قامت بكل ما يجب . . حتى الأدعية قرأتها في أذن أمها. لكن سامية لم تشاً أن تدخل معهن في حوار فالمناسبة لاتسمح . . ولا أعصابها كذلك . تكتفي بأن ترك من أرادت منهن الإنسحاب أن تفعل . . عندما يحين وقت الدفن تصر سامية على أن تذهب مع الجثمان إلى المقبرة والرجال من أقاربها يقنعنها بأن هذا مخالف للأصول . . فلم يسبق لأمرأة أن واكبت الدفن حتى مراحله الأخيرة . لكنها تصر والأخ فائز الذي وصل من حلب يتركها تفعل . تسيل الغطاء الأسود على وجهها وتمشي معه خطوة خطوة . .

وتشهد المدينة منظراً عجباً لم تشهده من قبل .

* * *

سامية لا تخرج من بيتها أثناء الحداد . الناس يتوافدون إلى بيتها الصغير الأنيدق في قاسيون بعد أن أغلقت بيت أمها . يأتون بداعف العزاء . . أو بداعف الفضول . . ي يريدون أن يعرفوا سر المرأة التي تعيش بين الناس . . وليس ككل

الناس . أكثرهم يصابون بخيبة أمل . . بيتها صغير وادع . .
الحياة تجري فيه مثل نهر . إذن ما الذي يجعل من هذا البيت
سراً ؟ الذين يحبون سامية حباً حقيقاً يدركون أن السر
هو روحها التي أضفت على كل زاوية في البيت طابعاً
خاصاً جعلت منه واحة صغيرة . . أما الذين يكرهون . .
فهم دائماً يكابرون . . والحقيقة يغالطون .

بعد أيام يصر الأخ فايز على الرجوع إلى حلب مع
زوجته وأولاده . .

— لو أن كريم رجع كنت أطمئن عليك . . ثم
أني كنت أرجو أن أترك أحد أولادي عندك . . لكنك
تعرفين زوجي يسامية .

— ومن قال لك أني سأفصل طفلاً عن أسرته ؟
هل أنا أناية إلى هذا الحد ؟ ثم أني لست بحاجة إلى أحد . .
وأنت تعرف .

— لكن الناس يأنثي . . وأنت تعيشين وحدك . .
لو يعود كريم ونتهي من كل هذه الأمور .

— أنت أيضاً تعلق أهمية على هذه الأمور ؟ أنا شخصياً لا أبالي . .

— واسم الأسرة ؟ وسمعتنا ياسامية .

— الزمن تغير . . وأرضنا اسفنجية تمتضي كل شيء .

— وأنا أراها بحراً يحفظ الردىء ويحفظ بالجيد .

— لتكن بحراً . . أو رملاً لا يهمني وعوده كريم لا تغير من الحال شيئاً . .

— هذا امر آخر . . إنما المهم بالنسبة لي أنني أديت واجبي ولم أتركك وحيدة بل مع زوج .

— وماذا ستفعل ؟ مادمت مضطراً إلى السفر ولن تبقى أحد أولادك عندي ؟

— تسفرين معي ريثما يعود زوجك .

— لن أسافر . . أنا تخليت عن كل المظاهر السخيفة . . تلك التي تتستر أنت وراءها . هذا في نظري ضعف .

— أصمني ياسامية . . أرجوك .

— مازلت ذلك الفتى ابن الأسرة البورجوازية الذي
يحافظ على اخته ، كنت تحمل لي كتبى وتوصلنى إلى
المدرسة . . هل اختلف الأمر الآن ؟

— اسكتي بالله . . أنت تذبحيني .

— ليتني أذبح فيك الغرور والتفاهة . كل ما ادعنته
خلال هذه السنين لم يكن إلا مظاهر كاذبة . . حتى
ابتعادك عن العاصمة هو كذلك . . حتى لا يعرف من حوالك
ما هي ثروتك ولا كيف تعيش .

— كم أتمنى لو . .

— لو ماذا . . تضربني ؟ تعال سوف تكون على الأقل
 حقيقياً ولو مرة واحدة ولكنك لن تفعل . .
 يترافق صوت الآخر :

— ساحيني يا سامية . . أنا مخطيء . تعالى نتفاهم .

— حول ماذا ؟ الميراث ؟

— حول كل شيء .

— بالنسبة للميراث سأترك لك ما أوصلت أمنا به

من مجوهرات وأموال نقدية وسأترك لك ولأخيك الأرضي . .
لن أحفظ لنفسي إلا بيت أمنا الصغير . . سوف أنتقل
إليه إذا اقتضى الأمر .

— أي أمر . . أن تفترق عن كريم ؟

— هذا يخصني وحدي . .

— ومن أين ستعيشين ؟

— سأشغل . .

— تستغلين ؟ بماذا ؟ وهل هذا يليق بك ؟

— يليق أو لا يليق . المهم أن أجد ما يناسبني . .

واهتماماتي كثيرة في الصحافة والفن والموسيقى .

يسترخي فائز على الأريكة . يضع رأسه بين يديه .

تسود فترة صمت . ما الذي يجري في هذه البقعة من الأرض ؟

هل كل المجتمعات كذلك ؟ وهل الحوادث العادية هي التي .

تغير واقع الناس بهذا الشكل ؟ زواج سامية . . سفر زوجها . .

موت الأم . . بعد أن خوّلها عنها . . هل هذا مما يغير كيان

إنسان ويزعزع فكره ومادرجه عليه من عادات ؟

فائز يقول بهدوء :

— وهل كريم يعرف أنك ستشتغلين ؟

— كريم سيعود .. وعودته لن تغير شيئاً من الأمر .

— لا تغير .. لكنها تخفف .. أنت على أي حال أنتي .. ومن أسرة — الشامي — هو هذا المهم .
والذي أريد أن أفهمه لماذا تركلك كريم كل هذه الفترة ؟
من أجبره على مغادرة سوريا ؟

— هذا أمر يتعلق به وحده ..

— إنه يحيط نفسه بهذه الإطارات .. يعتبر نفسه لاجئاً سياسياً .. زعيمًا مناضلاً .. إلى آخر هذه الكلمات الرنانة التي لا أتعامل معها أبداً ..

— أرجوك يافايز .. لاتعد بحرمي من جديد ، إنه

زوجي .

— اسمعي ياسامية .. باختصار لا أريدك أن تشتغلين ..

ولا أريد لك هذه الحياة .

— أى حياة تعنى؟ حياتي هذه؟ أنا لم أعش بعد كما أريد ثم أن حياتي ملكي أنا أقررها كما أشاء.

— إذن.. فنحن مختلفان أساساً وسوف يحرم أحذنا من الآخر.

— قل إنك تريد أن تتعاقبنا كما لو كنت بنتاً صغيرة.

— المهم أننا لم نتفاهم.

— وهل القطعية لغة تفاهم؟

ويخرج الأخ من البيت وتقع سامية على أول أريكة تجهش ببكاء حاد. يعز عليها أن تفقد أخاها مثل هذه الأسباب لكنه لا يقنع.. لا يريد أن يقنع - صحيح أنه يعيش في بلد آخر بعيداً عنها إنما حساسها دائماً أنه قريب. وأنها تستطيع في كل لحظة أن تذهب إليه أو يأتي إليها أو تحدثه هاتفياً على الأقل، أما الآن فلديها احساس أنها فقدته بطريقة ما. ما أفعى أن يفقد الإنسان الاحياء من حب أنه أفعى من أن يفقدهم موته. وعندما ترى زوجته

وأولاده يجتمعون حول الجهم للسفر توشك أن تملأ حقيبتها
لتذهب معهم .

لكنها لم تذهب . . بل انهارت في شبه إعياء .

* * *

الصباح ندي مشرق في تبشير صيف دمشقي . .
الخادمة في إجازة وهي تستمرىء وحدتها هذه . . لكن
رأسها يضج بالأفكار .

كريم لم يرد على رسالتها . . وهي غير التي أوهمت
جابر بها . جابر انقطعت أخباره . رجاء لاتزورها . لماذا
لم يأت كريم رغم علمه بموت أمها ؟ ألم يخبرها أنه سيعود
ولا شيء يمنعه ؟ هل سيعود الطوق يحكم حول عنقها
من جديد ؟ فراق فائز ترك جرحًا في قلبها كبيراً . عدم
مجيء صلاح من الكويت جرح أكبر . .

تقوم متشائلة تسحب الصحيفة من تحت الباب كأنما
فيها شيء يعندها . اسم كريم اختفى من هذه الصحيفة
منذ سافر إلى لبنان . . ماذا يشكل الآن بالنسبة لرفاقه هنا ؟

لا شيء . . . اسم منسي . . . رقم من الأرقام التي ابتلعتها طاحونة هائلة من المخاضات الثورية العنيفة . . . و كريم صلب مثل حجر . . . لم يتعنت ولم يغير موضعه الأولى . . هي تعتبر موقفه عناداً . . وهو يعتبره ثباتاً .

تقرأ إعلانات المسرح والسينما والأخبار المنوعة الخفيفة . . في زاوية صغيرة خبر صغير - عودة كريم السعدي إلى دمشق - الخبر مثير للضحك والمقت معاً . كتبوا عنه كما لو كان مجرماً قد أفرج عنه . المهم بالنسبة إليها أنه عائد . . وهي امرأته لم تعلم بعد هل تغير كريم إلى هذا الحد ؟ ماذا يقصد من مفاجأتها ! ؟ . لا يمكن أن ينقطع كل شيء بينهما بهذه البساطة . صحيح أن خلافهما غامض وخفى وينمو يوماً بعد يوم لكنهما لا يزالان مرتبطين . . هل اتصل هاتفياً ولم يكلمه أحد ؟ تعيد الحرارة لجهاز الهاتف فاذا به يرن فوراً .

- ألو . . رجاء ؟ كيف أحوالك ؟

- بخير وأنت ؟

— كما أنا .

— هل آتي لعندك لأقضى نهاري ؟ أمي ذهبت لبيت
خالي وأنا وحدي .

— هل ستوافق على مجئي ؟

— لا يهم . . هل بإمكاني المجيء ؟

— قررت العزلة هذا اليوم ، ومع ذلك لامانع . . تعالى .
تضيع سامية السماعة من يدها وهي تشعر بانفراج ما . .
الباب يطرق بعنف . ترى من يكون ؟ لم لا يقرعون الجرس ؟
تسمع صراخ امرأة كأنما هي تعول وتندب . . تفتح الباب
بلهفة . إنها — أم هاني — زوجة جابر ومعها إحدى بناتها .

— ماذا أقول لك ياست سامية ؟ اختفي جابر . .
أبو هاني . .

— اختفي ماذا تقولين ؟

— منذ عشرة أيام لم يعد للبيت . بحثنا عنه في كل مكان
ولم نجده . قال لنا أحد أصدقائه المقربين أنه رأه في قرية
— دوما — في دكان صغير يهيئة ويرتبه لبيع فيه الكتب

واللوازم المدرسية . . والآن جاء صديق آخر ليقول لنا أن
نبحث عنه في المستشفيات سأله إن كان يعلم شيئاً أجاب :
أنه مجرد احتياط .

— هل . . هل أساعدك بشيء ؟ هل أطلب لك
المستشفيات واحدة واحدة ؟ أتفصلين أنه هجركم وأصبح
يعيش حيث دكانه خارج المدينة ؟

— لعله تزوج أيضاً ياست سامية المهم أن تسألي في
المستشفيات ورحمة أملك .

— سأفعل . . ولكن . . ألم يقل لكم أي شيء يوم
تركتكم ؟ ألم تلاحظوا أنه كان ينوي نية ما ؟ .

— من جهة أنه قال فهو لم ينطق بكلمة في المدة الأخيرة
كان قد تغير كلياً لم يعد جابر الزوج والأب ولا حتى
المتقاعد القانع بعيشته . ماذا أقول لك أصبح يتضائق من
كل شيء حتى أولاده . . ينهرهم ويدعو عليهم . . وأنا . .
أنا المسكينة المغلوبة على أمري لم أعد في نظره أستحق حتى
كلمة شكر على ما أقوم به نحو بيته . حاولت أن أجره

إلى أي حديث . . لم يكن يترك لي فرصة . في نهاية الأمر
قاطعني نهائياً ولم يكن يعود إلى البيت إلا بعد أن أنام وإذا
خرج فذلك قبل أن أستيقظ .

— شيء مؤسف والله يا أم هاني . . تعالى نتصل هاتفياً
بالمستشفيات قبل كل شيء .

من رقم إلى رقم تنتقل سامية وأم هاني تتكلم وتتكلم
بلا انقطاع . والبنت تتشاغل باحدى المجالات ، لم يأتها
الحواب بأنه في مستشفى ما . تقول أم هاني بحرقة :

— صديقه (بشير العون) يقول أنه أخذ منه كل
ما ادخره لديه . . واحتوى بذلة جديدة وربطات عنق . .
ألا يدل هذا على أنه متزوج ؟

— لا . . لا . . ليس هذا شرطاً .

— إذن . . فهو عاشق . العشق فوق الخمسين مثل
حد السكين .

— وهذا ما لا أظنه أيضاً .

— علامات العشق واضحة عليه ياست سامية إن

أردت الحق فهو ساهم شارد وغائب عن الوجود . . في
ليلة اختفائه سكر . . وغمغم بكلمات عن امرأة . . وعن
جمالها . . وأنه أرسل بسببها رسالة . وقام ليأتي لعندك لكننا
منعناه . وفهمت أشياء عنها .

— مثل ماذا؟ قولي . . لاتخفي عني . .

— فهمت أنها متزوجة . . وهي لاتريده أو تفكري فيه .

— هل . . هل ذكر اسمها؟

— لا

— وأنت . . ماذا ستفعلين؟

— سأذهب لبيت أهلي . . وأرجوك أن تنتبهي للبيت
في غيابي إذا ذهبت وتفقدت بيت المرحومة . وأن تكلمي
جابر بما عندك من ذوق وفهم ولباقة . . عسى الله أن يهديه .
الأولاد سبقوني . . وسنذهب الآن أنا ومني . .

— أليس الأفضل أن تبقي في بيتك يا أم هاني؟

— لا . . لا أستطيع . المصيبة تكبر علي يوماً بعد يوم .

— كان الله في عونك .

تنسحب أم هاني مكسورة الجناح وهي تلملم دموعها
وتشعر سامية أن سكيناً تنغرس في قلبها .

خلال أقل من ساعة تأتي رجاء . . بثوب بسيط أزرق
دون زينة فهي لاتزال تراعي مشاعر سامية في حدادها لكن
عطرها كان بمقدار كبير . . ومن نوع فرنسي قوي . .
أما شعرها الأسود الطويل فهو منسدل وعلى عينيها نظارات
قائمتان باطار فاتح اللون . تسلیم على سامية وهي تقفر
مثل عصفورة نشطة وقد استخفتها نشوة مبهمة ويهتز
ثديها الرائعان كما لو أن موجة غامضة من الفرح قد
اجتاحتهم . ترحب سامية برجاء . لكنها تفاجأ بسعادة
الطاقة .

— سأتركك لمدة ساعة فقط يارجاء . . أنا مضطربة
لأن أنزل وأشتري بعض الحاجات . .

— تركيني وحدي ؟

— وماذا في ذلك ؟ عندك المجالات . . والموسيقى . .
والهاتف أيضاً . تسللي كما يحلو لك حتى أعود .

تلتمع عينا رجاء بسرور خفي . . وتدرك سامية رأساً
أنها ستتصل بالدكتور سالم .

في الطريق تسرع سامية الخطي وحذاؤها بالكعب العالي
 يجعل خطواتها أقل سرعة مما تريده .

عند منعطف الشارع تنادي سيارة أجرة . تلتفت حولها
بحذر قبل أن تصعد إليها . لا تريده أن تذهب بسيارتها حتى
لاتلتفت إليها الأنظار . تقول للسائق :

— إلى دوما من فضلك .

— إلى دوما ؟ أمرك ؟ إلى أي حي ؟

ترتبك سامية . لا تعرف بم تجib :

— إلى . . إلى مدخل البلد . إلى الشارع الرئيسي . .

هل تعرف أنه يوجد مكتبة هناك ؟ أقصد مكتبة افتتحت
حديثاً ؟

— مكتبة ؟ ومتى أصبح في دوما مكتبة ؟ أنت مخطئة
يا سيدتي . .

— أقصد دكان صغير لبيع الكتب واللوازم المدرسية..
على أي حال استمر . وسرى ذلك . . أو نسأل الدكاكين
هناك .

أمام المسجد نزل السائق وأخذ يسأل الدكاكين هناك
حتى اهتدى إلى زاوية الساحة العامة حيث عشرات من الباعة
المتجولين والنساء اللواتي يعرضن البيض والدجاج والخبز
المرقوق وأنواع الحشائش النافعة . عثرت على دكان عبارة
عن مكتبة صغيرة . لم يكن فيها سوى غلام صغير ، . متوجّب
متربّق مثل نمر .

— أين صاحب الدكان ياابني . .
— هذه ليست بالدكان .. إنها مكتبة (العلم و التقدم) .
— حسناً . . ومن أنت ؟
— أنا عمر . ابن اخت صاحب المكتبة . . وسأداوم
عنه الصيف فقط . . أحب القراءة . . وسيأتي خالي بكتب
كثيرة . . وخاصة الروايات .
— عظيم . . إنما لم تقل لي أين خالك ؟

— ستأتي بعد قليل . تفضلي استريحي . استريحي
ياسيلتي .

يقرب لها كرسيًّا واطئًّا من القش . . تحاول أن تجلس
عليه عندما تشعر أن عدد الأولاد قد ازداد أمام الدكان . .
وإن الأعين الفضولية ترمقها بدهشة .

— سافرج على المكان ياعمر حتى يعود خالك .
المكتبة أو الدكان مهياًة لمكتبة صغيرة . . لكن ذوقاً
جلياً يبدو على تصمييمها رغم أنها لم تستكمل بعد . في
الزاوية علب كرتونية مليئة بالكتب .

— هل تسمح لي بأن أطلع على هذه الكتب ياعمر ؟
— ممكن . . ولكن انتبهي لاتنزععي غلافها الورقي
وإلا لن يشتريها أحد .

تبعد سامية معجبة بحراة الغلام . وتفتحه . .

— وما هي الكتب التي قرأتها ياعمر ؟

— كتب كثيرة . . هل أعددتها لك ؟
ويبدأ بالعد . . و تستنتج أنه لم يقرأ إلا بعض القصص

البوليسية والروايات التافهة . أليست هذه الطاقات المخزونة
والتي يمكن أن تتفجر في أي لحظة بحاجة إلى العناية
والتوجيه ؟ حسناً فعل جابر . إذا كان موفقاً بفكرة مثل
من وراء ذلك .

ويأتي جابر . . وتكون المفاجأة بالنسبة له شديدة .
يتحقق لونه ويکاد يقع على الأرض . يقول بصوت مرتجف :
— سيدة سامية ؟ أنت هنا ؟ ما الخبر ؟ ما الذي جاء بك ؟ .

* * *

المفصل الخامس

سامية تشعر بالتهيب والخشية فجابر رجل جاوز
الخمسين وحياته غدت في مهب زوبعة . وليس سهلاً على
المرء أن يخرج من دوامة لم يصنعها بنفسه بل صنعها الآخرون ..
إنه لا يعرف كيف دخل فكيف الخروج ؟ إنفعاله المفاجيء
أكده لها أشياء كثيرة وأحسست بالندم يفرض داخلها مثل
فأر . لكنها لا تريده أبداً . لم تحاول ذلك . كل مآرادته
أن ينفجر شيء في حياته . . أن يخرج من الرتابة والملل
والسأم . أما إذا وصل الأمر إلى نقطة الخطر فهي مستعدة
لكل شيء . . حتى الإعتراف .
تقول بهدوء .

— جئت لأهنيك على فكرتك الرائعة هذه بتأمين حاجة حيوية لبلدة صغيرة لم تعد في الحقيقة قرية . هل أنت سعيد هنا ؟

— سعيد جداً . . أشعر أنني عدت إلى العشرين من عمري .

— عظيم . . دعني أرى الكتب التي اشتريتها .

— عدد بسيط جداً ولهذا اشتريت بعض اللوازم المدرسية كعنصر متم . ماذا نفعل ؟ يلزمهم وقت هنا كي يتعودوا شراء كتب للمطالعة .

— صحيح . . لكن العدد يظل قليلاً . .

— لم أجرؤ أو بالأحرى لم أغامر بشراء أنواع كثيرة من الكتب . هذه قرية محافظة وعندما أدرس الجوه سيكون الوضع أفضل .

— المغامرة لا تتجزأ . أما أن تقدم على أشياء أولاً تقدم . هل أنت خائف من شيء ؟ .

— خائف ؟ مم ؟ كل مافي الأمر أنني أراعي جو القرية .

— إذن . . لازم للمراعاة خاصة وأنت غريب
عن القرية .

— اقرحي لي أسماء كتب وأنا أشتريها .

يأتي شاب . . يقلب الكتب بين يديه يقرأ عناوينها
وربما الصفحات الأولى منها ، وسامية وجابر يتحدثان
همساً . . يسألها عن بيتها فتتظره أنها لا تعرف شيئاً .
يُسأله الشاب :

— أليس عندك روايات الحبيب أو قصص إحسان
عبد القدوس ؟

تقول سامية :

— أسمع ؟ .

يُجيب : — ليس هذا مقياساً . إنهم يطلبون أيضاً
قصة عنترة وألف ليلة وليلة أيضاً .

— أسأل إذن معلمي القرية . . ربما هم أدرى بالاتجاه
الشبان وبما يفضلون أن يقرؤوه .

— المعلمون؟ لأنهم لا يعيشون هنا . . . أكثرهم من
المدينة ويعودون إليها كل مساء .

وتقترب سامية من جابر في محاولتها الاطلاع على
محتويات المكتبة الصغيرة . يمد يده كأنه يتسلك بيدها
أو يصافحها . تبتعد نافرة بهدوء :

— وبعد؟

— أريد أن أتأكد أنك أمامي بلحmk وعظمك .
 وأنك أتيت من أجلي .

وتصاحك :

— أنا أمامك فعلاً . هل هذا عجيب أم أنها معجزة؟

— المعجزة هي عندما . .

ويتهادج صوته ويرتجف . كأنما الدموع ترید أن
تخونه . . تدرك سامية أي عذاب يعانيه :

— أنت حر في عواطفك . . وفي ماتقوله وتقوم به . .
ولكن لا تنسى مسؤوليتك نحو أسرتك . . هذا كل مالدي .
— أنت تأمرين .

— ولم الأمر؟ دعنا نتحدث كصديقين . . ألا يعجبك
أن تكون أصدقاء .

يطرق جابر . تلمع شبح دمعة :
— أنا مصر على كلمتي — أنت تأمرين — . أنا لم
أتخل عن مسؤوليتي . . لكن العصفور الذي سجن طويلاً
وأحس بهروب الزمن منه بخنق بخناحية يريده أن يطير
قبل أن يموت .

— بعد الشر . . ألم تقل لي منذ قليل أنك تحس كما
لو كنت في العشرين؟ .

— الاحساس شيء . . والحقيقة شيء آخر . وبالنسبة
لأسرتي فأنا تركت لهم راتبي كاملاً .

— لكنك انقطعت عنهم . . إنهم لا يعرفون أين أنت؟
— سيعرفون فيما بعد . . إلا أنني لم أشاً أن أطلع
أحداً أول الأمر حتى لا يتدخلوا في شؤوني . استأجرت
بيتاً صغيراً هنا وأسأدعوههم إلى أن يأتوا لزيارتي متى أرادوا .
اليس الغد هو الجمعة؟ . . سأنزل المدينة غداً .

تطرق سامية . تودع جابر بعد أن تعددت هي الأخرى بزيارته إذا سُنحت الفرصة . عندما تصرف تلاحظ عيون الشبان الذين تجتمعوا قرب المكتبة تكاد تلتهمها بينما أخذت النسوة يتهمسن .

السائق الذي ما يزال ينتظر يقول :

— عظيم أن يصبح هنا مكتبة . لم أكن أعلم بذلك . . . رغم أن أهلي من هذه المنطقة .

ترد سامية بفتور :

— المهم أن توجد لدينا قابلية للتطور . وعندما تقبل الأفكار فهذه أول خطوة لتحقيقها .

ويisksك . . . ويهرب هواء منعش من بساتين الغوطة التي تزهو بأشجار اللوز والمسمش والتفاح .

* * *

رجاء تقول وهي تطفر حيوية :

— أراك لم تشتري شيئاً . . ألم توقفي إلى ذلك ؟ .
— الحقيقة لم أذهب إلى السوق يارجاء . . غيرت رأيي وقمت بزيارة ضرورية لأحد الأصدقاء .

— أحد الأصدقاء ؟

— ما المانع . إذا كان يزورني في بيتي ؟ زرته في محله الجديد الذي افتتحه .

— قولي لي هذا . . في المحل . ظننت أنك ذهبت إلى بيته .

تردد سامية لنفسها :

— ألم تحسبني غبية ؟ هي التي تفعل ذلك و تستغرب .
تردد :

— خبريني . ماذا فعلت أثناء غيابي ؟

— لاشيء . . تسلية كما قلت بالهاتف .

تضحك رجاء . سامية كأنها تريد جواباً أكثر تفصيلاً :

— هذا إذن كل شيء . مع من تحدثت ؟

— الحقيقة . . اتصلت بالدكتور سالم لأسأله عن الدواء .

تصادف أنه لم يكن عنده أحد . . و طال بنا الحديث .

— والآن ماذا تنوين أن تفعل ؟

- لم تسائلني عن أي شيء تحدثنا ؟
- هذا من شؤونك يا عزيزي . . ألم ألا تريدين أن أكون فضولية ؟ .
- الحقيقة أني أريد أن أعرف رأيك في الدكتور سالم .
- من أي ناحية ؟
- أقصد رأيك ك . .
- كطبيب ؟ أم كرجل ؟ أم كزوج ؟
- كل هذه الأمور جميعاً .
- كطبيب . هو لم يعالج أمي كما تعرفين بل أشرف عليها في ساعاتها الأخيرة . و كرجل . أنا لم أنظر إليه كذلك لأسباب كثيرة . . أما كزوج . . فأنا أولاً متزوجة . . و ثانياً هو زوج ناجح كما فهمت .
- يشحب لون رجاء . . تكاد تقع على الأرض .
- تقصدين أنه . . هو . . متزوج ؟ .
- نعم يارجاء . . ألم تكوني عارفة بذلك ؟

- تجهش رجاء ببكاء حاد مثل طفل :
- لم يخدني عن ذلك أبداً .. لم يتعرض لهذا الموضوع.
- هل قال لك إنه غير متزوج ؟
- لا ..
- إذن .. فهو على الأقل لم يكذب . كان عليك أن تعرفي هذه الحقيقة وتتحري عنها . ما أغيانا نحن النساء عندما تستبد بنا عواطفنا . . ألم يخطر ببالك هذا السؤال ؟ هل هو متزوج ؟
- أبداً والله يسامي .. أبداً .. حتى أني لم أسأله لنفسي .
- أنت طفلة .. والآن .. لا يغير هذا من حقيقة الأمر الذي بينكمما . أنت تخبيه أليس كذلك ؟ .
- نعم .. ماذا أقول لك ؟
- وهل هو يحبك ؟
- لا أدرى ..

- هذه هي المصيبة . اسمعي هل يهمك أن تحبّي
أم أن تكوني محبوبة في الوقت نفسه ؟
- لا أدرى أيضاً . .
- هذه مصيبة أخرى . باختصار يار جاء . هل أنت
مستعدة لأن تعطيه أي شيء يطلبه منك ؟
- امنحه كل شيء . .
- أنت لا تعرفين الحب إذن .
- ماذا ؟ لا أعرف الحب . وهل هناك أكثر
من هذا الحب ؟
- إنهرأبي . . ولن تفهمي ما أقصد . كل ما أتصفح
به هو أن تستمرّي في علاقتك به حتى يتّهي في نظرك .
ولكن . . إياك أن تفرط في .
- تقصدين أن أفرط بمحسلي ؟
- وهل أحسست أنه ي يريد ذلك ؟
- إلى حد ما . .
- طريقك مليئة بالشوك يار جاء . . أنا أحذرك .

سامية تقول ل نفسها :

— لن تصمد هذه المسكينة أمام هذه الزوبعة إلا إذا
كانت جذورها من حديد .

تبكي رجاء مرة أخرى . تشعر سامية باشفاق الأمومة :

— لا أريد لك القنوط والبكاء . أنت شابة . .
والشباب فرح . . وأمل . . وضحك .

— أنا تعيسة يا سامية . . تعيسة . . أنقذيني .

— الحب قدر كل إنسان ياحبيتي . . لا أحد يستطيع
أن يغير قدر الآخر إنما . . عليك أن تقامي . .

— وإذا لم أقاوم ؟

— هذا قدر جديد يضاف إلى أقدارك الأخرى .
الإرادة ذاتها هي قدر .

يرن جرس الهاتف . تثب رجاء باندفاع غير شعوري .
كان الدكتور سالم هو الذي يتحدث . . ترتبك تحرر
وجنتها وتضطرب لديها الكلمات كل ماتفهمه سامية أنها
تتهرب من موعد كان مفروضاً فيه أن يلتقيا على الغداء .

تسرع سامية وتتناول السماعة وتحيي الدكتور سالم بحرارة
وتدعوه إلى أن يتناول الطعام معهما هي ورجاء . ولا تسمع
رجاء إلا العباره الأخيرة :

— سنكون سعيدتين إذا شاركتنا . . نحن وحدنا . .
وجود رجل بين امرأتين يبعث جوًّا من البهجة .

تشهق رجاء من بين الدموع :

— هل . . هل دعوته ياسامية ؟ كيف ؟ .
— كما سمعت .

— أقصد . . لماذا ؟ ثم إن ماقلته شيء غريب .

— دعوته لكي تري عن قرب بعض جوانب حياته
كانسان . لعل الوهم يتحطم في رأسك . . فتعرفي أنه رجل
ككل الرجال وليس مارداً أو أسطورة . . ثم إن ماقلته
لا يخرج عن عباره بجامله لطيفة لا أكثر .

— مأجراك ياسامية . . أنا لا أستطيع في أدق الظروف
أن ألفظ كلمة من عباراتك التي ترمي بها بقوة وعفوية .

— وهكذا الأزهار . . أجملها تلك التي يفوح عطرها
بقوة وعفوية .

تلتفط رجاء ذاتها . تستعيد شيئاً من حماستها وحيويتها .

— هل أذهب إلى الحلاق لأرتب شعري ؟

— ماذا كنت أقول لك ؟ أجمل الأزهار هي التي . .
ابقي كما أنت . . دون تكلف أو تعقيد . ليس هناك ما يقتل
العواطف الإنسانية أو يشوها كالتكلف والتعقيد .

— ولكن .

— اذهبي وتناولي كتاباً واقرئي ريشما أعد الطعام .

— آ . . تذكرت . . أنت وحدك بلا خادمة . . لابد
أن أساعدك إذن .

— لا . . شكرأً ، اليد الواحدة أفضل للطعام ألحيد . .

والعكس صحيح .

— كثرت الأيدي احترق الطعام . .

— بالضبط .

وتنسحب سامية إلى المطبخ . كانت قد أعدت كتاباً خصيصاً لرجاء وتركته في المكتبة قريب المتناول لتأخذه رجاء بشكل عفوي . بالفعل تم رجاء يدها لتناوله بينما سامية تدخل لتأخذ علبة الدخان . تلمحها بطرف عينها فتضحك في سرها . . الهواء بدأ يهب رقيقاً . . لكنها تتشوق أن يقوى ويشتد . . أن يغدو زوابعة .

* * *

عند إنتهاء الطعام لم يكن الدكتور سالم يرفع نظره إلى رجاء بعد أن كان في البدء يعاتبها بنظرة جريئة . سامية استطاعت أن تتحكم بالحول الذي حاول أن يخلقه فتحوله إلى جو ودي ناعم وأليف ومعطر بروح مودة . أخذت توحى إليه أنه إنسان محترم لديها وأنها مدينة له يوم محتتها . . أما رجاء فهي أخت صغرى لها ترعاها وتهتم بشؤونها وتوجهها . وما دامت هناك صداقه بينهما فلا بد أن تساعدها في أمور كثيرة . . أهمها المستقبل . . تشجعها على إستعادة دراستها . . أو إتقان مهنة ما . . أو لغة أجنبية . والدكتور سالم لا يعرف

كيف يهرب من كل تلك الينابيع الصغيرة التي تنفجر حوله..
وهكذا حتى وجد نفسه غريقاً.. واستسلم.. هل أحس بالحقد على سامية؟ ربما.. فهي تقطع عليه الطريق إلى رجاء.. وعندما وصلت إلى موضوع ملء أوقات الفراغ وجد منفذاً :

— ولم لا تشتعل بالتمريض؟.

توافقه سامية على الفور :

— مهنة إنسانية عظيمة.. لكن رجاء لا تريده مهنته..

أليس كذلك يارجاء؟

تضطرب رجاء ثم تستدرك :

— صحيح.. أنا لا أريد أن أعمل ولا أهلي يقبلون..

لكن التمريض شيء آخر.. أعتقد أنه جيد..

تنظر سامية إلى الدكتور سالم نظرة طويلة.. يفهم كل منهما الآخر.. يطرق، ثم يستأذن بالإنضاج..

تندفع رجاء بخفة وطيش وكتأنها لم تفهم ما قيل :

— هل أعجبك الدكتور سالم؟ مهذب ولطيف..

أليس كذلك؟

ثم تردد :

— كم الساعة الآن؟ أريد أن أعود إلى البيت قبل الخامسة ولدي أيضاً ما أشتريه.

تجيب سامية بخزم :

— لكن الساعة الآن بعد الثالثة بقليل.. والسوق مغلق.

— إذن.. اذهب لعند فادية حتى يفتح السوق.

تنتفض سامية :

— فادية.. فادية توفيق؟ وهل تعرفينها يارجاء؟

— صديقة الطفولة.. كنا معاً في المدرسة وصادفتها منذ مدة.. وتعانقنا في الطريق - تصوري - وأعطيتني عنوانها وطلبت مني باللحاج أن أزورها..

— تزورينها؟ هكذا بدون موعد وفي مثل هذا الوقت؟

— ألم تقولي أنه يجب أن أبعد عن التعقيد والتتكلف؟

سامية تحس بضجر من نوع خاص يملأ صدرها تكاد تنفجر. تقول بقسوة :

— كما تريدين. إنما كنت أحب أن تبقى معي هذا الوقت. أشعر بوعكة.

تنظر إليها رجاء نظرة ثابتة ثم لاتلبث أن تنهار :

— الحقيقة .. الحقيقة أن لمدي موعداً مع الدكتور سالم.

— كنت أشك في ذلك . اذهبي .. إنها تجربتك .

لاتستشيريني بعد هذا في شيء .

— أنا .. أنا في الواقع أريد أن أنتقم منه . عندما

علمت أنه متزوج شعرت أن في داخلي ذئبة ت يريد أن تفترسه . سوف أمد له حتى يقترب أكثر وأكثر . وبعد ذلك .

— وبعد ذلك يفترسه هو .

تصرخ رجاء :

— ماذا تقولين يا سامية ؟

— لاشيء .. إنما أنا .

— أنت تحذريني .. أنا أعرف ..

تتمتم سامية لنفسها :

— بل أنت لاتعرفين شيئاً .

وتخرج رجاء بعصبية .

تبليت سامية مستسلمة لحالة من الإسترخاء تحس معها أن كل جزءاً من أجزاء جسدها معطل ماعدا دماغها . . فهو يعمل مثل مضخة . . تفكير . . وتفكير . . وجزء كبير من تفكيرها ينصب حول رجاء . . تتخيلها وقد مزقها الدكتور سالم بأنبياب معدنية — معقمة — وبلطاف إنساني شديد وربما بخنان طبيب على مريض مسكين . . تتمثله كما لو أنه أسبل فوقها الغطاء ثم ينسحب راجعاً إلى عيادته بحججة مهمته الإنسانية في معالجة المرضى . رجاء لا تعرف قيمة نفسها . . لا تعرف الرجال على حقيقتهم . . لا تعرف طبيعة العلاقة بين المرأة والرجل . . لو تعرف كل ذلك . . شيئاً من ذلك لتغيرت رؤيتها للأشياء جميعاً ولكنها هكذا . . خلفتها ظروفها بهذا الشكل ولا سبيل إلى تغييرها إلا عن طريق التجربة . . فلتتجرّب . . تسمع سامية جرس الباب يقرع . . تخزّر أن هذه رجاء :

— آسفة إذ أزعجتكم . .

— أبداً . . إنما كنت مسترخية .

ترتابع سامية للهجة الإنكسار والتي كانت رجاء تنتطق
بها عباراتها . تحدق في وجهها فلا ترى في عينيها آثار الكحل ،
شعرها مضطرب . . وثيابها فقدت رونقها وملاستها . .
تصرخ :

— رجاء . . ماذا جرى ؟ خبريني .

تجهش رجاء بكاء حاد :

— إنه ماكر . ثعلب . لن أراه بعد اليوم . تصورني
أنه لم يعترف بزواجه ولم يعلمني بشيء . . ولم يرتبط معي
بأي عهده .

— قصي علي بالضبط ماذا جرى ؟

— إنه شيء فظيع يسامية . . فظيع . لم أجده نفسي
إلا بين ذراعيه .

— هكذا دون مقاومة . أم كان ذلك بارادتك ؟

— بالعكس . . قاومت كثيراً حتى كادت ثيابي
تتدحرج وكاد الجيران يسمعون صوتي .

— أي جيران ؟ هل أخذك إلى بيته ؟

— بيت مشترك على ما يبليو بينه وبين أحد أصدقائه
و . . طلب مني أن أسرع إذا خرجنا حتى لا يراه .

— لا يراه . . أو لا يراك ؟

— لماذا تسأليني بهذا الأسلوب ياسامية كما لو أنني
 مجرم أمام القضاء ؟

— هل تريدين ألا أسألك ؟ لا تتحدثي إذن نهائياً .
أنت بدأت ولم أطلب منك ذلك .

تغضص رجاء بالدموع :

— عفوأً ياسامية . . أنا ضائعة . . لا أدرى ماذا أقول
ولا ماذا أفعل ؟

— المهم أنك لم تستطعي أن تخدعه كما تصورت .

— بل هو الذي خدعني . . قولي لي . ماذا تساوي
لحظات الجحود إذا عاد الماء فجأة إلى الندم والحرمان والقلق ؟
أحس أنني أقذف من قمة إلى قاع واد أسود . . أنا يائسة . .
يائسة . . أريد أن أموت . .

- تموتين؟ لماذا؟ . ألا نك خسرت اللعبة مع رجل؟
- أنت منذ البدء تراهنين على جواد خاسر .
- ماذا تقصدين؟
- أقصد أن النتيجة معروفة أما أن تموتي فهذا ما لا أفهم له سبيلاً .
- أريد أن أنتحر .. ضميري يعذبني .. أليست ساقطة؟
- منحطة؟
- أهديه ولا تبكي . ثم .. حدثني ما هو السقوط في نظرك أو الإنحطاط؟
- لا أعرف بالضبط .. ولكن أليس هو الذي جرى معى؟ .
- هل تكرهين نفسك؟
- أكرهها لأنني ساقطة و ..
- لا تعيدي هذه الكلمات ولو أمام نفسك . أنا أقدر موقفك .. فلو جرى الذي جرى قبل أن تقرري الإنقاص لما نقمت .

أنت لا تعرفين . . ولا أحد يعرف . .

— بالضبط . . اجتمعنا مرات . . وفي كل مرة
كنت أقع في الإغراء . . ويأخذني بين يديه . . وأغفو بين
ذراعيه ويوقظني بقبلاته . . وكنت أحس نفسي طاهرة
وسعيدة . .

— الموضوع لا يتجزأ يارجاء . لا يأثم عضو من الجسم
ويبقى الآخر طاهراً مطهراً . إنه جسد واحد . والخطيئة
شعور ينبع من الأعماق ، ينتشر في الجسم كله . حتى
يغرقه . ولكن الندم . . على الرغم من أنه قطرات مريدة
وشحيدة إلا أنها قادرة على أن تغسل عن هذا الجسم شعوره
بالخطيئة . ما رأيك في أن ندعك هذا سيفتح لك السد وأن
دمو عث ستطهرك فتعودي كما كنت ؟ قبل أن تعرفي
الدكتور سالم . يحصل هذا . . إنما بشرط .

— أنا أقبل بكل شروطك .

— ليست شروطي أنا . . بل شروط الندم الصحيح
وهي إلا تعودي لما فعلت مرة أخرى .

— أعاهدك على ذلك . . واقسم لك .

— بل عاهدي نفسك . . واقسمي أمامها . . أنا لست
إلهك . ولا منقذك . أنا شاهدة .

تقوم رجاء وقد هدأت قليلاً وأفرغت آلامها واطمأنت .
تسوئي من شعرها . تصلاح من هنامها تهم بالإنصراف .
تستدرك سامية :

— إذا استطعت أن تعودي لتنامي عندي فسأكون
مسروقة .

— لا أظن يسامية . . أمي أصبحت تشدد في معاملتها
لي أكثر . . . سأحاول .

* * *

عند الصباح تذهب سامية لعند — هاجر — زوجة
قريب لأمها . تحب هاجر . . وترتاح إليها . . بيتها . .
البساطة التي فيه مظهرها المادي . فنهما للحياة دون تزييف
أو تعقيد . . تربيتها أولادها الخمسة على القناعة والرضي . .
كل هذا يشدها إلى هاجر . . الوجه المغسول دائمًا بالمحبة . .

المعطر بالإبتسام . . القلب الكبير الذي يتحمل ولا يشكو بل يستوعب شكوى الآخرين . تسرع خطواتها إلى بيت موظف محدود الراتب لكنه يشع بالسعادة . . نخلقها زوجة متفائلة مخلصة . . وبصمت .

ما أكثر ما كانت تقول لسامية :

— العمل الجيد يتلهمه الكلام عنه . . ولا شيء يقتل التضحية كالحاديث عنها .

تستعيد سامية في ذهنها أشياء كثيرة عن هاجر . . كلها مثالية وتطامن من أي عنف يتفجر داخلها . لم إذن تذهب إليها وهي التي ت يريد أن تبعثر كل ما حولها وتشير زواج بلا حدود ؟ هل لأنها تفتقد ما تعيشها هاجر وهو أن الأشياء في وضعيتها الصحيح ؟ هاجر على ثقة من كل ماتفعل .. أما هي فالعالم أمامها مزعزع . . متقلقل قابل لأن يتغير في كل لحظة . وعلى الرغم من أن هاجر تحيا مثل نهر مطمئن هادئ فهي لا تستنكر أي شيء . . لا تستغربه وذهنها واسع إلى أبعد حد وهذا فهي تفضي إليها بكل أسرارها . ولا تخفي

عنها ما يدور معها أو ما تفكر فيه . . دائمًا تقول لها : (وماذا في ذلك ؟ كل شيء يحصل في هذه الحياة . إنها مليئة بالعجبات والمتناقضات ومامن حادثة تقع إلا ووقع مثلها فيما مضى إلا أن الإنسان هو الذي يتغير) . و دائمًا كانت تشعر أن هاجر قصة ما . . ولم تحاول أبدًا أن تعرف ماهي .

تتشرح للتفكير في هاجر . . ستجلس إليها بينما الأولاد في المدارس . . وستتناولان القهوة . . وربما فتحت لها فألاً بالفنجان لتشجعها على أن تقول لها كل شيء . وتقول كل شيء . . وتنفض همومها ومثل أرض عطشى تشرب من مطر خريف تعود وقد ارتوت . . تصل لعند هاجر . تستغرب هاجر اضطرابها :

- ماذا في الأمر يسامية ؟
- انصحيني يا أم غسان . . ماذا أفعل ؟
- أنسألك . . أنا ؟ وأنت المتعلمة التي تفهمين كل شيء ؟ ومني كنت بحاجة إلى نصيحتي ؟

- أنا دائماً بحاجة إليها . . . وآخذها منك دون أن
تشرقي .
- لكنني امرأة بسيطة .
- الحقيقة في البساطة . قولي لي . . هل أرجع لكريم؟
- ترجعين لكريم . ؟ إنه زوجك .
- الحقيقة أننا لم نعش كزوجين كما يجب ولا فترة
من حياتنا . نحن غير متسجمين في نواح ما منذ البدء . .
والآن ماذا سنفعل بعد فراق طويل ؟
- ما أعرفه هو أنكمما متفاهمان . . فهل أنا مخطئة ؟
- نحن غير متفاهمين جسدياً . . هل أدركت لما
أقول ؟ لم أحب جسده . . أحببت فكره وروحه ورغبت
من صميمي أن يكون زوجي . . وكنت صغيرة ولم أدرك
هذه الناحية . . . وفوجئت بها منذ شهر العسل . . .
- تقصدين أنه لم يكن بينكمما معاشرة زوجية ؟
- لا . . ليس هذا ما أقصد . كان يحبني . . وكنت
أُسكت . وعندما فرقتنا الظروف لم أفتقد لبعده .

— آ.. ظنت ذلك وكانت أفسر عدم حمله .

— عدم حمي لي له أسباب أخرى مجهولة . . لعلي لم أرغب أن يكون لي منه ولد . . وإن كانت الأمومة تحرقني بين حين وآخر .

— أية تفسيرات غريبة هذه يسامية . . حمل المرأة كحمل الشجرة .

— صحيح . . لكنه يخلي إلي أن المرأة التي لا ترغب أن يكون لها من زوجها ولد لا تحمل .

— إذن . . فكل امرأة تكره زوجها تصبح عاقراً . . ونصف نسائنا يعشن كرهاً مع أزواجهن .

— لم تفهمي ما أقصد . . أقصد الإرادة الوعية التي في رأيي تعطل كل شيء ولا أقصد الكره المبطن بالرغبة الجنسية أو الإعراض الموقت .

— أعترف أنني لم أفهمك . . هذه فلسفة تقوم هاجر لتهيء القهوة ، تلحق بها سامية باندفاع :

— سأطاب الطلاق يأم غسان .

تجفل هاجر . تقع القهوة تنتشر بقعاً سوداء على أرض المطبخ النظيفة .

— تعقلي يا سامية . . وفكري . . أن ما تقولينه شيء فظيع . ثم أنك أصبحت وحيدة بعد موت أمك .

— سأعيش حياتي . . وربما تزوجت غيره إن استطعت .
هاجر تجذب بألم :

— ولم لا تستطعين ؟ من يقدر على الطلاق يقدر على الزواج . . .

— أقصد أني لا أعرف إن كان من أريده سيتزوجني أم لا ؟

— وهل تقصدين رجالاً معيناً بالذات ؟

وتقصس سامية على هاجر قصة لقاها بذلك الشاب في باريس . . والرسالة الوحيدة التي تلقتها منه والدعوات . ويوم الوداع . وكيف أنها تلاحق أخباره وإنه لم يتزوج بعد . تقصس كل ذلك دون أن تنتبه إلى وجه هاجر الذي كان يمتنع . . تستمر :

— اعتبري ما أقوله لك طيشاً . . . ونوعاً من الجنون .
أن أفكـر بـاـنسـان لم أـلـقـ به إـلا قـلـيلـاً . . . وـمـنـذـ سـنـينـ طـوـيـلةـ .
وـمـعـ ذـالـكـ أـحـسـ أـنـ هـذـاـ حـلـمـ هوـ الحـقـيـقـةـ الـوـحـيـدـةـ فـيـ
حـيـاتـيـ .ـ اـسـتـمـعـيـ إـلـيـ .ـ تـحـمـلـيـ .ـ كـمـاـ تـفـعـلـيـنـ دـائـماًـ .ـ
أـنـتـ وـحـدـكـ مـنـ أـسـتـطـعـيـ أـنـ أـفـضـيـ إـلـيـهـ بـمـاـ فـيـ قـلـبـيـ .ـ قـالـ لـيـ
فـيـ الرـسـالـةـ أـنـ لـنـ يـتـرـوـجـ حـتـىـ يـعـثـرـ عـلـىـ اـمـرـأـ مـثـلـيـ .ـ .ـ
أـوـ يـعـثـرـ عـلـيـ .ـ

هاجر تقول بصوت ضعيف :

— لـيـسـ مـنـ أـجـلـ هـذـاـ أـنـ مـاـ تـأـثـرـ بـهـ .ـ إـنـماـ .ـ لـمـ أـسـمعـ
مـنـكـ هـذـهـ القـصـةـ قـبـلـ الـيـوـمـ .ـ إـنـهـ فـظـيـعـ .ـ .ـ فـظـيـعـ .ـ
— وـمـاـ هـوـ الـفـظـيـعـ ؟ـ أـنـ أـعـيـشـ بـفـكـرـيـ وـإـحـسـاسـيـ
مـعـ إـنـسـانـ وـأـكـونـ صـادـقةـ .ـ أـنـاـ لـمـ أـخـنـ زـوـجـيـ جـسـدـيـاًـ .ـ .ـ
أـلـيـسـ هـذـاـ مـاـ يـعـرـفـ بـهـ الـمـجـسـمـ ؟ـ .ـ

— وـلـكـنـ .ـ .ـ أـلـمـ تـحـاـوـلـيـ أـنـ تـلـتـقـيـ بـهـ ؟ـ

— لـمـ يـحـاـوـلـ هـوـ .ـ .ـ لـعـلـهـ يـظـنـيـ زـوـجـةـ سـعـيـدةـ .ـ

— أليس اسمه هو ناجي المهدي .

— صحيح . . . وكيف عرفت ؟

— ألم يخطر لك أن يكون من أسرتي على الأقل ؟

— آه . . . ما أغرباني . . دائمًا كنت أقرن اسمك باسرة زوجك وأنت من أسرة المهدي اليافي .

— لقب والدي — اليافي — اكتسبه في يافا . . عاش فيها مدة طويلة . . . اشتغل فيها بالتجارة وأصبح ثرياً . . . وكم علامه فارقة أطلق عليه اليافي .

يشرد ذهن سامية . . . بشيء من الحيرة تنظر إلى هاجر . . كأنما لا تصدق . . هاجر تستمر :

— نعم . . أبي كان غنياً . . . وغنياً جداً وقد ساعد الثورات التي نشبت في فلسطين ضد الإستعمار وأمدتها بماليه . . حقد عليه الإنكليز واليهود معاً . . ولما وقع التقسيم رفض أن يبيع شبراً من أرضه . . أو أن يرحل . لكنه اضطر إلى الرحيل عندما وقعت الكارثة وسلبت فلسطين . رحل مثل جواد عارٍ حتى من السرج . لم يأخذ

معه مالاً . . ولا أوراقاً أو مستندات .. ولا أي شيء .
وعاش في دمشق . . وعشنا على حلم العودة وأمل الثروة .
ظل يجهد ويكد ويتعب من أجلنا . . ويندوب مثل شمعة . .
حتى مات . . ووالد ناجي هو ابن عم له . . مثل أخ . .
ماتت زوجته أم ناجي . . وأتوا بالصغير إلينا . . نشأ
معنا . . ودرج على محبتنا . . فلم يكن يعرف غيرنا . .
وكان أبوه يشترك في الحركات السياسية المعادية للواقع
العربي في ذلك الحين أي لما كانوا يسمونه في سوريا . .
الكتلة الوطنية . . وفي الأردن . . مشروع سوريا الكبرى . .
ولهذا كان يسافر كثيراً . . يغيب ويختفي كثيراً . . وناجي
لا يفتقده لأنه مغمور بحب أبي وعطف أمي ويعامل كواحد
من أبنائهما . . حتى حلت المصيبة بموت والد ناجي فلم يعد
يرضيه شيء . . أو يفرجه شيء . . لعل طريقة الموت كان
لها أثر في ذلك . . لاحقته السلطات الأردنية على الحدود
وهم يظنون أنه مهرب بضائع أو حشيش عندما يكتشفون
أنه يهرب أسلحة وأوراقاً ومناشير . . طاردوه فلم يستسلم . .
ظل يهرب حتى وصل إلى مشارف دمشق . . أطلقوا عليه

النار فجرح . . وضع يده على جراحه وظل يقود سيارته حتى وصل إلى البيت . . بيتنا وكنا صغاراً . . وافقنا . . ورأينا . . وذهلنا . وكانت صدمة ناجي شديدة جداً عندما رأى الدم يتدفق من صدر أبيه ثم بعد ذلك يقع في فلك الموت . ظل هائماً على وجهه أياماً لا أحد يعرف أين هو . . ثم عاد صامتاً هزيلاً منكسرأً واكب على دروسه حتى نال الكفاءة . بعد ذلك انفصل عنا تلقائياً . . فلم يكن أبي يشعر إلا أنه واحد من أولاده . ونال الثانوية بتفوق . . ورغم البعثة التي حصل عليها للدراسة الحقوق في فرنسا فقد أعطاه أبي مبالغأً من المال قال له إنه حصة أبيه . . ومات أبي . . وتزوجت . . ولم أعد أرى ناجي . . رسائله إلينا انقطعت تقريرياً .

تنهد هاجر . . كأن ناجي ذكرى عزيزة على قلبها .

سامية وكأنها لا تصدق ما تسمع :

— لكنك لم تحدثيني أبداً عنه . لماذا ؟

— بل لماذا أحدثك ؟ طيف من الماضي . انطوى

مع أيام طفولتي وصباي .. والحياة شغلتني .. البيت والزوج والأولاد . عالم جديد للمرأة قد ينسيها كل شيء .. حتى نفسها .

سامية لاتفكك أَن تمسك بالخيط الذي يجمع هاجر بناجي . كل تفكيرها يتوجه إلى أن تستزيد من المعلومات عنه .. عن طفولته .. عن شبابه الأول .. عن أفكاره وطموحاته .

ـ وهل .. هل كانت له آراءُ الخاصة .. وطموحاته الخاصة ؟

ـ كان دائماً يحلم بأن يكون شخصاً مرموقاً . . . ويسعى ليس من أجل أهل بلاده فقط بل من أجل الناس . . كل الناس . . كانت له آراءُ الخاصة جداً . يتحدث عن مجتمع موحد للبشرية يعيش فيه الأفراد كما النحل في الخلية . . كلهم يعمل والنتائج للجميع . . وأبي رحمه الله كان يستغرب هذه الآراء . . يراها متطرفة . . وكان يخدرني أن أهتم بها أو أميل إليها . وخفف أبي عليه من أن

يجرؤه إلى أحزاب سرية ومتروكة فاستعجل قصة ذهابه إلى فرنسا .

تقوم هاجر إلى خزانة عتيقة . . . تدبر مفتاحها الصدئ بحدر . . . تخرج رزمة أوراق وبعض الصور :

— هذه صورة ناجي عندما كان في الإبتدائية . . . وهذه . . . وهذه .

وتغيب سامية في دهليز ماض معم طويل . . . ماضي ناجي . . . تشعر أنها تعرفه . . . ليست غريبة عنه . . وأنه يشبه ما تمثل في خاطرها عن ناجي . هذا الجبين المتألق . . وهاتان العينان العميقتان الخزینتان . . وهذا الشعور بالتفرد ففي كل صورة هو وحده . . تقول هاجر بصوت مخنوق :

— وهذه الأوراق . . هل هي رسائل ؟

— بعضها رسائل أرسلها إلى . . وبعضها الآخر أوراق له خاصة وصفحات من دفاتره المدرسية . . ترکها عندي وديعة عندما سافر . . وأنا حافظت عليها طوال هذه السنين من أجله .

— هل تسمحين بأن ألقى عليها نظرة؟

— ولكن بسرعة.. أريد أن أرجعها إلى مخبئها
قبل أن يعود الأولاد أو يراها أحد.

وتتشاغل هاجر بصنع القهوة من جدياً.. وترتدي
لحفة سامية فوق الأوراق. إنه خطه نفسه. وإنها عباراته..
وهذه الروح التي تضطرب بين الكلمات هي الروح ذاتها
التي كتب بها إليها. تغير على مقاطع لكتاب كبار:
— دستويفسكي وهيدغر وكيركجارد ولو كاش..
وعلى خواطر وأشعار. أي شخص هذا الذي يجمع كل
هذه الآراء والأفكار منذ شبابه الأول.. ما الذي يضطرم
في صدره.. يشتعل في رأسه.. يتحقق له قلبه. سامية
تشعر أن هذا هو عالمها الخاص أيضاً.. وأنها لم تكن بحاجة
إلى جسور لتصل إلىه.

هاجر تعود بالقهوة شاردة. كأنما ت يريد أن تطوي
هذه الصفحة التي فتحت عنوة:

— نحن تقريباً في عمر واحد.. أنا وناجي وكنا

نتشابه في أمور كثيرة لكن الحياة دفعت كلاماً منا في طريق ..
هكذا الحياة دائماً ياسامية .. تجمع الناس فترة ولو كانوا
أسرة أو أقارب لتعود فتفرقهم . و علينا أن نرضي بستتها
وناموسها .

وترتشف القهوة الحارة . ترمي من يدها الأوراق
بينما تطير ألف الصور والإنطباعات لتعشش في رأسها
ثم تمضي .

• • •

الفصل السادس

يخرج من دار جريدة — التقدم — وهو حائز .
لابد أن يقوم بعمل صحفي كبير . . كبير حتى يلفت
إليه النظر . ويسير في طريق الصحافة ثم الشهرة . كل
المناقشات التي كانت تدور بين الشبان حول ملامح المجتمع
التقدمي الجديد لم نكن تجد لها أي صدى في نفسه . إنه
لايفهم في التقدمية . . لاتشير الاشتراكية ولكنه مدفوع
إلى هذه الطريق . لم يجرؤ مرة على أن يحدث رفاقه بما يعني
أو يفكّر وإلا لطربوه خارج الدار ولقطع عنه الراتب
الصغير الذي يناله ، اليوم بالذات وقف أمام امتحان
صعب . . قال له رئيس التحرير :

— حان الوقت لأن تأخذ اتجاهًا في التحرير . . .
أو على الأقل تضع امضاءك على ما تكتب حتى يعرفك الناس .
وأجاب :

— وهل أهرب من مسؤولية ما أكتب ؟
ضحك رئيس التحرير وقال :
— الواقع ليس هناك مسؤولية قط . . . الجريدة هي
المسؤولة والإتجاه هو الذي يتبنّاك . نحن نقرأ ما تكتب
وإلا لما نشر . . . أم ماذا نظن ؟
وشعر أنه أخطأ خطأً كبيراً وتصبّب العرق من جبينه .
قال :

— أنا راض هكذا . . . لا بأس . . . هذا أفضل لي .
أجاب رئيس التحرير :
— لكن الحال لا يمكن أن تستمر على هذا الشكل . . .
نحن نريد محررين مسؤولين^١ .
وفغر فاه من الدهشة . . . أردف رئيس التحرير :
— أقصد محررين مسؤولين أمام الجماهير لا أمامنا . . .
مفهوم ؟

ويخرج . . والدهشة لاتزال تحتل رأسه تدور . . كيف تنتفي عنه المسئولية أمام . . هؤلاء . . ويتحمل كل المسئولية أمام . . أولئك . . ؟ كيف يجمع بين المتناقضات ؟ الالتزام . . والحرية . . لا . . لا يريد بحمد اليوم أن يكتب في موضوعات حول التقدم والانتاج والمشاريع والمؤسسات إلخ. سينتقل إلى موضوعات أخرى مثيرة ومحاللة وتجذب القراء وتبهرهم . . هذا قراره الأخير . . لماذا لا يكتب عن حوادث الاجرام مثلاً أو عن فضائح المجتمع أو غير ذلك ؟ لماذا لا يقوم بتحقيقات حول المراهقة والجنس والأفلام إلخ . . ؟

يتذكر تلك الحادثة التي رواها له رفيقه بالأمس حول فضيحة وقعت في أحد المستشفيات عندما جاءت زوجة الطبيب المشرف لتضبطه مع فتاة في غرفة المعاينة . . كانت قد سمعت بعلاقة بينهما فسبقتهما . . أخذت تضرب الفتاة . . وأوقعتها على البلاط حتى كسرت ذراعها . . والفتاة لم تجرؤ على أن تعلن عن اسمها واسم أسرتها وفضلت أن تخرج من المستشفى دون معاملة حتى لا يعرفها أحد . . وتذكر أن رفيقه قال له أن الفتاة اتصلت بالسيدة سامية الشامي . .

وأدت هذه بسيارتها وأخذتها بعد أن توسطت في المستشفى
أن يطوى الحادث .

يفكر - بأسيل - في أن يتصل بسامية ثم يتعدد ..
ماذا سيقول لها ؟ ماذَا سيطلب منها ما دامت قد توسطت
لإغلاق الحادث ؟ وبأي حق ؟ يقولون عن سامية إنها
امرأة ذات شخصية خاصة بها . . وأنها ذكية وذات تجربة
فهل يستطيع أن ينفذ من خلاطها إلى ما يريده . ؟

من دكان قريب يمسك - بأسيل - بدليل الهاتف ..
يبحث عن أسرة الشامي .. ثم يتذكر أن زوجها هو كريم
السعدي .. ومع ذلك لا يعبر على الرقم إلا باسمها شخصياً .

- ألو . . سيدة سامية . . أنا بأسيل النجار .

- الصحفي ؟

- ولكن . . من أين عرفت ؟

- ولو . . يا أستاذ . . إذا كان اسمك وراء الحروف
فهل يعني هذا أننا لانعرفه ؟ أي خاتمة ؟

باسيل يتمنى أن يكون بلا اسم على الإطلاق. باضطراب يقول :

— في الواقع .. أريد أن أزورك لأمر هام .. وخاص ..

— خاص بمن ؟ بك ؟ لامانع .. متى تنتهي من عملك في الجريدة ؟ أظن أن لديكم هذه الأيام مشاغل كثيرة ..

— في الحقيقة أنا غير مرتبط بدوام معين .. ذلك لأنني لست مرتبطاً بعمل معين ..

— كيف ؟ ألمست محرراً ؟ المهم .. أستطيع أن أستقبلك الساعة التاسعة .. هل تعرف البيت ؟
ويتمم لنفسه .. رائع .. وهي امرأة بكل ما في الكلمة من معنى ..

* * *

سامية تقول وهي تضحك :

— أنت صحفي إذن ..

— اعتقدت أنك تعرفين من حديثك في الهاتف .
أم أنني مخطيء؟ ثم إني اتصلت بك مرة . . أتذكريين؟ .
تحدق فيه بعينيها المشعتين :

— أقصد . . هل تعتبر نفسك صحفياً؟

يغفل — ببسيل . — لم يحادثه أحد بهذه اللهجة لامن الرجال ولا من النساء . لم يقتحم أحد عالمه الخاص بمثل هذه الحرأة . هو الذي يقتحم عوالم الآخرين . . هو الذي يحرجهم ويضيق عليهم وكم من مرة وصفوه بأنه وقح .
— سيلتي . . بكل تواضع أقول لك إني مازلت
صحفياً ناشئاً .

تضحك من جديد :

— إذن فالاعتراف موجود بأنك صحافي وكفى .
لا يهمني إن كنت ناشئاً أو مخضراً أو عتيقاً . أيعجبك
هذا التعبير — عتيق — .

— يعجبني وأستعمله .

لنفسها تتمم : الذهب العتيق . . واللحر العتيق . .
والصاحب العتيق . .

يشعر بالإرتباك . لا تقتصر عوالمه فقط بل تخترق أعماقه
مثل سهم . . يجبر باضطراب :

ـ الحقيقة أني . . لا أعتبر نفسي صحفيأ .

ـ إذن . . لماذا تشتعل في الصحافة ؟

ويرى أنها قصة طويلة لو حدثها بها . كل تلك الحياة
التافهة الساكنة التي كان يعيشها مع أمه وجدته العجوز
دفعته لأن يبحث عن أشياء مثيرة خارج عالمه الرتيب الذي
يشبه ساعة انتظمت دقايقها على الرغم من أنها شاخت واهترأت .
لم يكن يجد إلا الجرائد ليروي عطشه إلى الحوادث المثيرة . .
وبعد ذلك صار يخترع حوادث مماثلة أمام أولاد الحارة
ينسبها لنفسه أو لمن يفهم . وعندما كبر قرر أن يصبح
صحفياً وترك المدرسة قبل أن ينال الشهادة الثانوية على
الرغم من دموع أمه وتوسلات جدته .

التحق بالجريدة . . ماتت أمه حسرة على ضياع
مستقبله . . وجدته لا يزال القهر يملأ صدرها رغم أنها
لاتخذلك بشيء عن عمله . هل يقول للسيدة سامية إنه لم يفكر

إن كان يصلح للصحافة أم لا؟ هل يقول لها انه عندما
التحق بالجريدة كان كل همه منصبًا على قبوله فيها لا على
اماكنياته؟ إنها امرأة واعية فلم لا يقول لها ذلك؟ ولكن ..
ألا يشعر بالكره لها ولنفسه لأنه جاء إليها؟ هل هي التي
ستقوم بالتحقيق معه أم هو الذي سيتحقق معها حول الفتاة
والفضيحة؟

يقول بنفاذ صبر :

ـ إنها قصة طويلة .. المهم الآن أن أعرف موضوع
تلك الفتاة .

ـ والمهم بالنسبة لي أن أعرف هل أنت صحيحي
أم لا قبل أن أعطي أي حديث .

يضرب المنضدة بيده حتى يوشك فنجان القهوة
أن يقع ـ يجيب :

ـ لم أتعامل مع النساء .. يبدو أننا لن نتفاهم .
تجيب ضاحكة :

ـ لم تتعامل مع النساء؟ مستحيل . قل أنك لم تتعامل

مع نساء مثلـي . لتـكن تعـبـيرـاتـك دقـيقـة . أـنتـ صـحـفيـ .
لـمـاـذاـ تـهـمـلـ الدـقـةـ فـيـ تعـبـيرـنـاـ ؟

يـشـعـرـ باـسـيـلـ أـنـ يـرـيدـ أـنـ يـشـدـ عـلـىـ عـنـقـهـاـ بـهـذـاـ .ـ الإـيـشـارـبـ .ـ
الـمـلـوـنـ حـوـلـ عـنـقـهـاـ الـجـمـيلـ .ـ يـنـهـضـ .ـ يـقـرـبـ مـنـهـاـ .ـ تـجـفـلـ :

ـ مـاـذاـ تـرـيـدـ أـنـ تـفـعـلـ ؟ـ اـفـعـلـ .ـ وـإـلاـ فـكـيـفـ نـعـتـبـ
أـنـفـسـنـاـ أـحـرـارـاـ إـذـاـ لـمـ نـقـلـ مـاـ نـرـيـدـ .ـ أـوـ نـفـعـلـ مـاـنـرـيـدـ ؟ـ

ـ هـلـ أـعـبـرـ عـنـ حـرـيـتـيـ وـأـقـولـ إـنـيـ .ـ .ـ

ـ إـنـكـ مـاـذاـ ؟ـ قـلـ .ـ لـاتـخـفـ .ـ كـنـ جـرـيـئـاـ .ـ

ـ أـرـيـدـ أـنـ أـخـنـقـكـ .ـ .ـ

ـ تـمـعـنـ فـيـ الضـحـكـ :

ـ اـفـرـاغـ الـعـدـوـانـيـةـ أـوـلـ مـرـاـحـلـ الشـعـورـ بـالـحـرـيـةـ .ـ .ـ
تـأـكـدـ أـنـيـ لـسـتـ خـائـفـةـ .ـ هـلـ تـصـدـقـ ؟ـ لـاـ أـحـدـ فـيـ المـتـرـزـلـ
سـوـىـ فـتـاةـ مـكـسـوـرـةـ الـذـرـاعـ لـاتـقـوـىـ عـلـىـ الـحـرـاكـ .ـ

ـ يـنـسـىـ باـسـيـلـ مـاـكـانـ فـيـهـ مـنـ ثـورـةـ .ـ يـسـأـلـ :

ـ تـقـصـدـيـنـ .ـ .ـ الـفـتـاةـ الـتـيـ أـبـحـثـ عـنـهـاـ ؟ـ

- بل تبحث عن قصتها . إنها هي بعينها . ماذا تريـد من قصتها ؟
- أريد أن أعرف الحقيقة كاملة وأنشرها . طبعاً لن أشير إلى اسمها . .
- ولماذا الحقيقة الكاملة ؟ ولصالح من ؟
- حادثة اجتماعية . . تعدى الرجل القوي على المرأة الضعيفة . يحب أن يرتدع هؤلاء عن أن يغروا بالفتيات وخاصة إذا كانوا متزوجين .
- ومن أعطاك حق المحافظة على حقوق الناس وأخلاقهم ؟ هذا إذا اعتبرنا الموضوع تعدياً . أو منافاة للأخلاق .
- ماذا تعتبره إذن ؟
- أريد رأيك أنت . . بصرامة . . هل تعتبره كذلك أم أنها واجهة . . بضاعة نور دها للناس ؟ . . بالمناسبة كم عمرك ؟ ألم تحب مرة ؟
- يستغرب باسيل هذه الأسئلة المتناقضة المحرجة :

- الحقيقة أنني لا أعتبر العلاقة بحد ذاتها غير أخلاقية . . . إنما الوضع غير أخلاقي . .
- إذن . . . فأنت ضد أوضاع ولست ضد أشخاص ، تستطيع إذن أن تكتب ما تريده دون أن تتعرض لأحد . . . سألتكم ما عمرك فلم تجبني . .
- عمري ست وعشرون سنة . . وأحبيت مرتين .
- هل أنت تقدمي . . ؟ اشتراكي ؟
- يتلعم . . ما علاقة هذا بموضوع الفتاة ؟ يسرع بتناول سيجارة . . يشعلها ليختفي انفعاله . . تقول دون أن تنتظر جوابه :
- لو كنت تقدميأً حقاً لعالجت الموضوع من زاوية أخرى . . انتبه لعبارتي — الموضوع — هذا إذا عالجته . .
- مثلاً ؟
- ألا تعتقد أن الأطباء يشكلون في مجتمعنا طبقة بورجوازية جديدة ؟ أو طبقة ذات امتيازات واحتياكات ؟ . .
- . . ولكن ما دخل هذا في — الموضوع — .

— هذا هو المفتاح : طبقة ، استغلال للمال . . .
استغلال البشر . . للمرضى . . للضعف الإنساني بأشكاله . . .
امتداد الإمكانيات بنوع من التفرقة الطبقية . الطبيب يشعر
بالتالي على مرضه مثلاً على الرغم من أنهما عاملان في
حقل واحد . لماذا ؟ هل لأن دخله أعلى ؟ هل لأن مكانته
الاجتماعية أرقى ؟ هل ؟ تساءل أيها الصحفي . . لم
لا تتساءل ؟ أكتب هذا إذا كنت تقدمياً حقاً . . .

تضحك سامية . . وتشعل لنفسها سيجارة أيضاً .
يطرق ببسيل . . إنها امرأة ذكية ورائعة . . في
ثوبها الأسود هذا . . لكنه يكرهها :

— لم أفهم رأيك بعد . . هل يمكنني مقابلة الفتاة أم لا ؟
— أريد أن أعرف لماذا أولاً ؟ هل لمزيد من الطعنات ؟
لست مستعدة لأن أضعها فوق مشرحة . .
— أعتقد أن مناقشتها في هذه الأمور سوف تساعدها
نفسياً لأنها ستفرغ آلامها من خلال الحديث أو إبداع
رأيها بما حصل . .

— ها قد انتقلت إلى ناحية نفسية . . وهي أكثر خطورة . . أعتقد أن الصحفي يجب أن يكون ملماً بعلم النفس أيضاً . .

يقطعاها باسيل :

— أنا لست كذلك للأسف . . اسمعي . . لم أعد أرى سوى أن أقول لك أذلك . .

تقترب منه سامية :

— إنني ماذا؟ أشياء كثيرة أعرفها عن نفسي ولكنني أرغب أن أضيف شيئاً آخر .

باسيل يبتلع ريقه :

— إنك امرأة رائعة . . لكنني أكرهك .
ويغلق الباب بعنف وينصرف . وتنتم سامية لنفسها :
الكره بدليل الحب .

* * *

ويضي أسبو عان ورجاء لاتزال عند سامية . . . تطلب سامية من خالتها أن تترك رجاء عندها حتى تشفى ولا تعارض الحالة سامية لأسباب كثيرة أولها رغبة رجاء . . ثم إن رجاء مخطمة ونحيلة أكثر منها مريضة وبقاوها عند سامية ربما يفیدها في بيت حدیث . . مشمس وصحي . . تقول الحالة لأبنة أختها :

— الجيران يقولون لي افرضي رجاء تزوجت . . .
تعودي فراقها . لم . . ليتها تتزوج ياسامية وأستريح .

— من تستريحين ؟

— من همها .

— ألا يكون همها أكبر لو فشلت لا سمح الله ؟
ادعى لها أن توفق إلى من تحبه وتحبها .

— الحب لا يهمنا يا البنى . . يهمنا الستر والتفاهم .

— لكن الحب هو التفاهم . . وهو الستر على حد قوله .
وهكذا . . بين غصات الحالة وتشجيع سامية لخالتها
بقاء رجاء عندها . . تأخذ رجاء تطل من نافذة جديدة
على حياة ليست حياتها .

المساء بارد . . سامية تعود لتجد رجاء وقد اتصلت بالدكتور سالم وقيل لها إنه غير موجود . . تنفجر رجاء بيكانه حاد . . وسامية تخفف عنها :

— ألم يخلق الله رجلاً غيره ؟ انتهينا . . أما يكفي ما فعله بك ؟

— لكن لازلت . .

— وهو لا يحبك . . هل قلت لنفسك هذه الحقيقة ؟

— لا أستطيع أن أبتعد عنه .

— إذن . . اتبعيه كالعبدة الذليلة .

— هناك شيء أقوى من إرادتي يجعلني أتبعه .

— هل . . هل تطورت العلاقة بينكما .

رجاء تهز برأسها وعيناها ترکض فيهما وعول مذعورة .
يسقط مافي يد سامية من صحف وأشياء . تستلقي على كرسي عريض وتنهي :

— نذهب إلى الطبيب إذن . .

— أنا خائفة .

— تخافين؟ مم؟ من الفضيحة؟ أم أن لديك الأمل
أن يتزوجك سيادة الدكتور؟

تعود رجاء إلى بكاء حاد:

— أليس هذا أفضل؟

— لا... ليس أفضل... لو كان لديه ذرة حب لك
لما تهرب... ألا يعرف ماذا بينكما وما هي نتائجه؟

— لكنك وعدتني أن تتحدىي معه في الموضوع.

— قلت هذا لتهذئة أعصابك... وقبل أن أعرف
ما عرفت. لن أجعل منك خرقه يتمسح بها عندما يريد.
إنها كلمة واحدة إما أن يصح الخطا وإلا فلكل منكما دربه.

— تقصددين قطع العلاقة بيننا؟ علاقة الحب؟

— وهل تسمين هذه علاقة حب؟ إنها قذارة.

تصرخ رجاء:

— سأذهب إليه بنفسي... سأشرح له كل شيء...
يمكن أن يعطف علي. اتركيني ياسامية. أرجوك.

تحاول رجاء أن تخرج . تدفعها سامية إلى الأريكة
ثم تصفعها بقوة :

— الآن يعود لك عقلك أيتها المجنونة .

تصاب رجاء بنوبة حادة من البكاء تحس معها أنها
منهكة ، تأيتها سامية ببطانية ومخلاة من الريش . . تساعدها
على خلع حذاءها وتمدها على الأريكة . ومن غرفتها
تتحدث بالهاتف . ترهف رجاء السمع :

— لكن رجاء تحبك يادكتور . . فتاة بريئة وبسيطة
ولا تعرف شيئاً في الدنيا .

— تقول إنك لن تراها ؟ لماذا ؟ هل أخطأت معلمك ؟

— خطأها مع نفسها كان من أجلك . . فتيات كثيرات
يهبن أنفسهن من أجل الحب فقط .

— إذن فأنت لا تريد الزواج منها ولا رؤيتها ؟ حسناً . .
وإذا قلت لك أن رجاء . .

تبصرخ رجاء مقاطعة :

— لا ياسامية . . أرجوك . . لا تقولي له شيئاً . .
اقفلي الخط .

تعيد سامية السماعة وتجلس إلى جانب رجاء التي تتحبب . . تمسك برأسها . . تقبلها تمسح فوق الجبس الذي تكوم فوق الدراع المكسورة .

— ساحيبي يارجاء . . كنت قاسية معك . . لكنني أحبك وأعرف الرجال أكثر منك .
تعص رجاء بدموعها :

— نذهب إلى الطبيب . .
سامية تحفر بأظافرها فوق الجبس حروف اسم رجاء
تنهض مسرعة :

— كلما أسرعنا كان ذلك أفضل . .

* * *

ثلاثة أيام مثل كابوس . . رجاء تتمطى في الفراش شاحبة اللون مهدودة كما لو أنها مريضة منذ شهور . . تتملك نفسها لتعتصب ابتسامة صغيرة تمنجها سامية مع كثير من الإيمان . تشعر بما يشبه الهزيمة :

— إذا كنت قد استرحت يمكن أن نذهب إلى بيتي في بلودان . . وهناك توفر لك الراحة .

— هل تظنين أنني لن أصاب بأذى ؟
— وما الأذى ؟ أنت شابة . . وهذه عملية بسيطة
كما رأيت . .

تمقصدين أملك ؟ ستظن أننا في المستشفى من أجل يدك . .
ألم تتوهم ذلك يوم العملية ؟ هيا . . ضعي معطفك الأبيض
ولنذهب . . تبددين به مثل قطة برية .

تنهى رجاء :

— قطة بدون مخالب للأسف . .

— القطة الحقيقة هي التي تتسلخ بمخالبها قبل أن
تقع فريسة . .

تضحكان . . تنطلقان في طريق جبلية جميلة . رجاء
في المقعد الخلفي وسامية تحاول أن تثير حوالها شيئاً من المرح .
— هل كنت سائقة عند أبيك ؟ ها أنتا عليك أن
تنهقدي لي أشيائي إلى جانبك : الصحف والتراانزستور
وعلبة الورق .

— سامية . . ألا تلاحظين هذه السيارة التي تلاحقنا ؟

- أتظنين ذلك ؟
- ولم لا ؟ ساقطة حسنة . .
- تضحكان : تخفف رجاء من همومها :
- هذا الشاب . . لعلي رأيته مرة لا أدرى أين ؟
- سأخفف من سرعتي حتى أراه في المرأة .
- أنا خائفة
- مم تخافين ؟ هل نحن لصوص أم مجرمون ؟ أمرنا طبيعي جداً .
- تخفف سامية من سرعة السيارة ثم تقف بشكل مفاجيء .
- تصرخ رجاء فقد ظنته حادثاً .
- عندما تقف سيارة بمحاذة سيارتهما ويطل وجه شاب :
- العجلة الخلفية توشك أن تهبط . هل أقدم مساعدتي ؟
- تنظر إليه سامية بحدة . . تهبط من السيارة كأنها لاتصدق ما يقول :
- معك حق . . لكنني لا أقدر على تغييرها .
- عرضت مساعدتي . . أم أنك ترفضين ؟

— لامجال للرفض . آسفة لأنني سأخذ من وقتك .

أثناء تبديل العجلة سامية تقول :

— إذن . . فأنت ابن القانوني المشهور — معروف عبد الرزاق — إنه أكثر الأساتذة احتراماً بين طلاب الجامعة .

— وهل تعرفينه ؟

— معرفة بسيطة فأنا في كلية الآداب . هل تعيش معه ؟

— لا . . إنه منفصل عن أمي ومتزوج من جامعية كانت تلميذة له .

تتدخل رجاء :

— أعتقد أنها التقينا في مكان ما .

— أظن أنها إلتقينا في نادي الفن والموسيقى . . كنت مع أبيك . . أليس كذلك ؟

يشحب وجه رجاء . . تذكر أنها كانت مع الدكتور سالم . يظنه أباها . . حسناً .

— هل تحبين الموسيقى ؟

سؤاله يخرجها من شرودها .

— جداً . آه . . تذكرت . . كنت تعزف على الكمان ولكنني عندما رأيتك في السيارة استبعدت أن تكون أنت واستبعدت أكثر عندما قلت إنك محام وأبوك القانوني الأستاذ — معروف —

— وماذا في ذلك ؟ ألا يمكن أن تكون لي هواية إذا كنت محامياً ؟

— أقصد الناس يتشاربون . .

تتدخل سامية :

— قل لنا يا سيد عرفان . . منذ متى وأنت تعزف ؟

— منذ كنت طفلاً . . كانت أمي تشجعني . : و كنت ألتقي دروس البيانو في مدرستي منذ السادسة ولكنني بعد ذلك أحببت الكمان ولا زلت حتى الآن .

باهتمام تقول رجاء :

— ألا يتعارض هذا مع عملك ؟ أقصد : . هل تجد وقتاً للعزف ؟

تسأل سامية بفضول :
— هل ألغت قطعاً ما ؟
— قليلاً ما ألغت . . عندما كنت في المراهقة وضعت
قطعة أسميتها — القطة الحزينة — .
— أنت موهوب إذن .
ويضحك الثلاثة .

وإذ تصبح السيارة جاهزة للانطلاق يقول عرفان :
— هل أستطيع أن أنقل الآنسة بسيارتي حتى لا تتعرض
للتاعب الجديدة .

سامية ترحب بالفكرة إذ تلمح شعاعاً من الفرح في
عيني رجاء وكذلك إعجاب عرفان برجاء .
تقول سامية : أوشكنا أن نصل . تستطيع أن تستريح
معنا قليلاً . . بيتي صغير وجميل وكل شيء فيه مهياً لمرة
قادمة . . سترى . حتى آلة التسجيل .
— لا تهتمي . . سأعزف أنا .
يقول عرفان ذلك بحماسة وتسأل رجاء :

— وهل معك الكمان ؟

— طبعاً .. هل يفارق الحبيب حبيبه ؟
تخجل رجاء : لا تدري لماذا .. أما سامية فتسأله :

— هل لأسرتكم بيت في الزبداني ؟

— نعم .. لكنه ليس على استعداد كاف .. شبهه
مهجور . أنا لا آتي كثيراً في الصيف .

رجاء تسرح بصرها فوق الجبال بعد أن وضعت وسادة
صغيرة لتريح ذراعها المكسورة . النافذة العريضة تغرق
الغرفة بضياء مبهر . سامية تبحث عن شراب العناء وهي
تقفز وتضحك وتحاول أن تخرج رجاء من صمتها :

— هيا . ساعديني في إعداد مائدة صغيرة . معنا جبن
أبيض . وخبز . ومعلىات .. إلياك أن تخطيء يا عرفان بين
قطعة الجبن ويد رجاء في الجبس ألا تبدو كقطعة جبن
كبيرة ؟ .

— لكنه جبن قاس .. أليس كذلك يارجاء ؟
رجاء تبدأ تخرج من شرودها :

— هل يخاطبني أحد منكما ؟

يحيى عرفان :

— كنا نتحدث عنك . بل عن ضماد يملك الحجري
هذا . هل تسمحين بأن أوقع بامضائي عليه ؟

تقول سامية :

— أنا حضرت حروفاً . . وسأكتب قصيدة . . ولعلك
تفكر ببنوته موسيقية ؟

ترد رجاء بمرارة :

— إنها صفحة بيضاء فلم لا . . يلدي صفحة بيضاء
أليس كذلك ؟

تقول سامية بلهجة واثقة :

— أظنها كذلك يارجاء . . وسعيد من سيخط
حروفه فوقها .

ينظر عرفان إلى سامية نظرة طويلة . يخرج إلى سيارته
ويأتي بالكمان ، تقول سامية بلهفة :

— ألا تدخل القطة من الباب الخلفي ؟

يجتاز البهو . رجاء أمام النافذة ، يخرج من الباب الثاني للبهو قرب المطبخ . يلحق برجاء تقف أمام مراة صغيرة تسوی شعرها :

— آه . . إنها اليـد الـيمـنى . . مشـكـلة ، مـرـأـةـ أـسـبـوـعـ وـلـمـ أـتـرـيـنـ . . كـيـفـ ؟

— أـنـتـ جـمـيـلـةـ دـوـنـ زـيـنـةـ .

يـقـرـبـ مـنـهـاـ تـبـعـثـ رـائـحـةـ أـنـوـثـةـ وـحـشـيـةـ .ـ بـلـ شـعـورـ تـدـ يـدـهـ إـلـىـ شـعـرـهـ الـحـرـيرـيـ .ـ يـلـامـسـهـ بـلـطـفـ وـحـنـانـ .ـ تـنـفـرـ رـجـاءـ مـذـعـورـةـ .

تنادي سامية وهي تبتسم : — هل أدخلتـماـ القـطـةـ ؟
ولـاـ يـأـتـيـهاـ جـوـابـ .ـ تـخـرـجـ مـنـ الـبـابـ الرـئـيـسيـ .ـ تـلـوـرـ حـوـلـ الـحـدـيـقـةـ الصـغـيـرـةـ حـتـىـ الـبـابـ الـخـلـفـيـ .ـ تـحـمـلـ القـطـةـ وـهـيـ تـخـمـشـ بـأـظـافـرـهـاـ وـتـمـوـءـ .ـ تـرـجـعـ فـتـجـدـ رـجـاءـ مـسـتـلـقـيـةـ عـلـىـ الـأـرـيـكـةـ فـيـ الـبـهـوـ وـعـرـفـانـ إـلـىـ جـانـبـ النـافـذـةـ يـبـدـأـ الـعـزـفـ .

— اـعـزـفـ لـنـاـ مـنـ أـلـحانـكـ .

— الآن يضطرب في قلبي لحن . . ربما يسيل على
أصابعي . . سأجرب . .

رجاء تقول :

— هل تخاطبني ؟
تقول سامية ضاحكة :

— طبعاً يخاطبك . . أنت ساهمة أكثر مما يجب .

— سوف أسمى اللحن — نزهة — ما رأيك يار جاء ؟
يعزف عرفان . . والإشنان تنصتان . . لاتلبث رجاء
أن تفجر بكاء .

تقول سامية وهي تلطف الجو :

— ييلو أن نزهتك شتائية . . ذات عواصف ورعد
وأمطار .

تستسلم رجاء للبكاء أكثر . لم تخف عنها نكتة سامية . .
بل على العكس :

أما عرفان فقد توقف عن العزف . يقترب من رجاء :

— هل أساءت إليك يارجاء ؟ أنا لم أفعل سوى أن
عبرت عن شعوري .

— وهل تظني ساقتعن ؟

— شعوري صادق نحوك . . أعجبت بك منذ رأيتك
لأول مرة في نادي الفن والموسيقى . . واليوم . . عبرت
لنك عن حبي . .

— أنا أرفضك . . وأرفض حبك .

تتدخل سامية كأنما هي تحسم موقفاً :

— سنشرب القهوة بسرعة . ثم نرحل . . وأفضل
أن أترك سيارتي هنا ونعود معك ياعرفان . ما رأيك ؟

— هذا سرور لي . .

يرد عرفان بامتنان .

في الطريق والمساء رائع . . إلتزم الثلاثة الصمت . .
رجاء إلى جانب عرفان وسامية في المبعد الخلفي . . سامية
تقول فجأة :

— هل أطلقتنا القطة؟ كانت محبوسة في المطبخ.
يحيى عرفان.

— أنا لم أفعل... ولا أظن رجاء أيضاً، هل نعود
لتأكد؟

سامية ترد بسرعة:

— لامانع... وسندور حول الجبل ونعود من الطريق
الأخرى.

ينتهزها عرفان فرصة:

— وأمر على بيتنا لدقائق... أريد أن أضع فيه بعض
الأغراض.

ينزل عرفان ثم يعود مسرعاً وفي يده رزمة ملفوفة
بورق أبيض كان يضعها تحت المبعد الخلفي... تلاحظ
سامية ارتياكه:

— وهل هي أشياء تحتاج إلى مخبأ؟
يقول ضاحكاً:

— أنا أمزح... مجرد أشياء عادية لكنني أخبرتها من
أصدقائي.

يلتمع بريق في عينيه وتحس سامية أن في الأمر سراً .

* * *

في الليل تعاتب رجاء سامية :

— كنت أفضل لو اختصرنا الطريق .. تضايقتنـه :
— لماذا ؟ هل أزعـجـك بشيء ؟ أنا وجدـته لطـيفـاً ..
وكان اهتمـامـه بكـ وـاضـحـاً .

رجاء كأنـما تـحاـصـرـها حـيـرـة سـؤـالـ كـبـيرـ :

— سـاميـةـ ، هل يـعـبـرـ الرـجـلـ بـالـحـسـدـ عـنـ الـحـبـ ؟
— قد يـعـبـرـ عـنـ الـحـبـ .. وقد يـعـبـرـ عـنـ الشـهـوـةـ أـيـضاـ .
— ومن أـينـ لـنـا نـحـنـ النـسـاءـ أـنـ نـعـرـفـ ؟
— إنه الإـحـسـاسـ يـارـجـاءـ . المـرـأـةـ الـتـيـ تـمـلـكـ أـنـوـثـةـ
حـقـيقـيـقـيـةـ يـصـلـقـهاـ إـحـسـاسـهاـ .
— هل تـرـيـدـيـنـ الـصـرـاـحةـ: أـحـسـسـتـ الـيـوـمـ أـنـ عـرـفـانـ
وـحـشـ .
— أـعـتـقـدـ أـنـ إـحـسـاسـكـ الـآنـ غـيرـ دـقـيقـ فـتـجـرـبـتـكـ مـعـ

الدكتور سالم لاتزال تؤملك . . توجهك . . تطغى على الأشياء من حولك .

— كيف عرفت؟ كان وجه سالم طوال اليوم معي .

— لاتدعني هذه التجربة تحطمت يارجاء أنا أنصحك .
إذا تمثلت رجلاً ما في كل الرجال فمعنى ذلك أني تقتلين حياتك :

ويقع بينهما الصمت . وكل منهما تغرق في أمواج
قلقها وحيرتها .

سامية تبحر في الماضي . طفولتها وشبابها الأول . .
الطفولة واضحة مرسومة في أعماق ذاكرتها كما لو أنها
حفرت فيها . . أما الشباب فيبدو باهتاً رجراجاً لا ملامح
له ولا سمات حتى يأتي كريم وتبدأ حياتها معه . أتراءها
لم يكن لها شباب مثل كل الفتيات؟ أتراءها هي التي مزقته
ورمته إلى رياح كريم تعبث به كما تشاء؟ هل ضيقـت
نفسها بذلك؟ . . تحـن إلى أن تعيش تجـاربـها . . حـماـقاتـ
الصـباـ . . حتى ولو تعذـبتـ كما تعـذـبـ رـجـاءـ الآـنـ . . حتىـ

لو تحطم فمن نار التجربة يصهر البشر . . وأن تظل
وراء زجاج ترافق الحياة ليس معناه أنها تعيش . . ليتها
تحطم هذا الزجاج . . وتدمي يداها . . تتناثر سكاكين
صغيرة تنغرس في جلدتها . وهي تحاول . . وتحاول . .
ومنذ ذلك الحلم العجيب الذي روتة لها أنها قبل أن تموت
وهي تتمنى لو تثور الزوجة . . لو تجرفها في وديان المجهول ..
حتى ولو أصبحت المرأة ذات الرأس المقطوع .

أبوها عزها عن العالم . . جعلها تعيش طفولة ناعمة
متفرقة . . لم تعرف يوماً أنها شردت في البساتين كما يفعل
الصغار . . ولا تسلقت جبلاً أو شجرة . . أو أمسكت
بيدها قطة أو عصفوراً . حتى الفراشات لم يشجعها أحد
على لمسها . أما تلك الجنادب الزيتية الملونة فقد كانوا
يربطون قدمها في خيط ويجعلونها تطير وهي ممسكة بالخيط . .
حتى إذا حطت على يدها أو كتفها صرخت وأفلتت الخيط
فتطير منها وتقف تنظر إليها بحسرة وهي تغيب في الفضاء
ساحبة وراءها خيط الدخان هذا .

كم مرة أملت أن يعود إليها الجندي أو أن تُعثر عليه.. .
وأبداً لم يتحقق هذا . أبوها غمرها باللذعى والألعاب الفاخرة
الأنثى . . ودائماً كانت تبعث في نفسها الملل . وتهرب إلى
بيت الجندي حيث - نهلة - الفقيرة اليتيمة التي تصنع
دمية لنفسها من خرق بالية . . أي سعادة كانت تغمرها
عندما كانت نهلة تتركها لترسم للسمعي حاجبين أو شفتيين
أو رموشاً . . كانت تحس بمحنة تفسرها الآن بأنها متعة
الخلق والإبداع . وعندما كانت - تقايض - نهلة على
دميتها هذه باللذعى الشمعية الجميلة كانت أمها تزجرها . .
وتوقع عليها عقوبة الحرمان من المتصوف اليومي . العقوبة
لم تكن تؤلمها . . فما أروع أن تقنع نفسها أنها بلا متصوف
حتى تبدأ جولة تفتيشية في مخابئ البيت وخزاناته عن
الحلوى والشيكولاتة والملابس . . إذ ذاك كانت تجده لذة
عظيمة في أن تأكل ما تريده . . وتحسوا جيوبها منه لتهرع
إلى - نهلة - فتطعمها ، لم تكن تشعر بأي ذنب . .
ولم تصدق أن هذه سرقة كما كانت أمها تقول . الآن
تعرف أنها روعة الإكتشاف والحصول على أشياء بعد التعب

في سبيلها والمخاطر التي تحول دونها . عندما وقعت عن
السلم في اليوم الوحيد من حياتها الذي تقع فيه كان بسبب
عصفور التجأ إلى أعلى النافذة . . وقررت أن تقبض عليه . .
ولم تجرؤ أن تطلب من أحد أن يتحقق لها أمنيتها . ورفعت
السلم الخشبي بشكل مغلوط . . وتسقطت بخفة . . لكنه
انزلق معه و كان هذا الجرح الذي لا يزال أثراه فوق جبينها .
كلما لامسته اقتنعت ما معنى أن يدفع الإنسان ثمن ما يريده
أن يكتشف . . ما يريده أن يحصل عليه . .

تشعر سامية أنها توشك أن تختنق . ترسو إلى القاع .
قاع ذكرياتها القريبة والبعيدة . . تحاول أن تفتح عينيها على
اللآلئ وجزر المرجان . . والأزهار الصخرية . . يندفع
نحوها وحش بحري هائل تكاد تصرخ .

تفيق مذعورة فقد استسلمت للنوم وهي لا تزال فوق
مقددها . . تقوم إلى خزانتها . . تحاول أن تخرج صوراً
وأوراقاً هي رسائل ومذكرات . . لماذا لا تحرق هذا الماضي
كله . . لماذا لا تخلص منه وتستريح . . حتى الأوراق

التي طلبت من أمها أن تكتبها لها ماذا ستفيدها ؟ ماذا
ستعطيها ؟ لا شيء . . . سوى مزيد من القلق والضياع
والتوتر . هذه الأوراق بالذات لا تجرؤ على لمسها . . . كأنما
ساهمت بطريقة ما في موت أمها . الموت هو أن يموت
الإنسان ببطء في ماضيه لكنه إذا بتره وخلق حاضراً
جديداً فمعنى هذا أن يعيش من جديد . . فلتبت هذه الماضي ..
من أجل أن تعيش مرة أخرى من جديد . هل هي قادرة ؟
هل تملك الحرأة والإرادة ؟ عليها إذن أن تترك كل شيء .
حتى بيتها وثيابها وربما اسمها وعنوانها أيضاً . عليها أن
ترك زوجها فوق ذلك فهو قد أصبح جزءاً من هذا الماضي
لكنه الجزء الذي لا يبعث فيها الرعب . . . ولا البرودة . .
ولا الألم لاحساسها أنها يمكن أن تقطعه عنها وتنساه .

تحمل سامية كومة كبيرة من الذكريات . . . ترکض
بها في البيت كما لو أنها في غابة . تصل إلى المطبخ . تضعها
في وعاء نحاسي كبير قبل أن تضرم بها النار تفيق رجاء
تفاجئها :

— ماذا تفعلين يا سامية ؟
— أوراق قديمة أريد أن أحرقها . ارجعني إلى فراشك .
— لكن بينها صوراً جميلة . . . ورسائل . لن أدعك
تفعلين .

— هي ملكي وأنا حرة بها . سأحرقها .
تحاول رجاء أن ترجعها عن عزمهَا: تتشبث بشوتها . . .
تشدّها إلى الوراء . لكن سامية ترمي كبريتهاً مشتعلةً فوقها
ثم تخرج رجاء من المطبخ وتمضي .
تهداً سامية إلى نوم قسري . تتسلل رجاء إلى المطبخ .
تلقي بعاء فوق الأوراق . تشعر أنها تستريح . عندما تعود
ت تكون سامية قد نامت .

* * *

الفصل السابع

بعد منتصف الليل يرن جرس الهاتف . . . كان كريم على الخط . . عبارات قليلة . . والصوت عن بعد مخنوق . . وما يشبه الدمع في حلقتها مخنوق . . بسرعة تفهم أن كريم سيعود . . وبأقرب وقت . تغلق الهاتف . ورأسها يدور . عائده إذن يا كريم . . عائده إلى البيت المهجور . . والزوجة المزقة . تظل عيناه مصلوبتين في السقف وأفكار كثيرة تفترسها . لم تقرر بعد ماذا سيكون من أمرها مع كريم . انتهت أيام المنفى . . والطائر المهاجر يفكر في عشه من جديد . أي عش هذا الذي بقي . . . أعاد هزيلة تذروها رياح الفراق ويحصدتها قدر قاس عنيد . كيف سيعيشان في بيت واحد ؟ كيف سيضمها

فراش واحد؟ كيف؟ هذا مالم تتصوره مرة أخرى : جدران صلبة تقف بينها وبين كريم .. وإمكانية الحياة معاً بعد هذا الانفصال تبدو شبه مستحيلة : صحيح أنه كان انفصالاً قسرياً لكنه ترك آثاره العميقa وهكذا كثير من الأمور .. تسوقنا إليها الظروف ونرغم عليها . نعتقد أنها لن تؤثر فينا لكنها بعد ذلك تحفر مجرها العميق في حياتنا . لم تحاول أن تقدر مشاعر كريم ورغباته .. فماذا تغير موقفها؟ لاشيء .. وكم يظل كما هو في معاملته لها . منذ زواجهما لم يتغير .. حتى في أدق الأمور لم يتغير . اسلوبه واحد .. نظرته إليها واحدة . يخيل إليها أحياناً أنها لاتزال في نظره كما كانت يوم تزوجها . الحقيقة أنها لم تعد هي .. الشابة المندفعة .. والمترفة بآن معاً . هي الآن امرأة أخرى ناضجة وواعية لكل ما حولها .. علمتها الحياة أكثر مما يتصور .. وطورتها أيضاً - هل يستطيع أن يدرك كل هذا؟ الماضي لم يعد ..

يعنيها. اقتلعت رواسب ماضيها وأطعمتها للريح . . تجربة الدراسة الجامعية وحدها وهو بعيد عنها فكانت أغلالاً كثيرة حول عنقها . . حول عقلها . . كم الحياة رحبة . . وكم هناك أنماط من الناس .. من الرجال خاصة . وألوف الكتب يحب أن تقرأ . . وألوف ألوف الأفعال يحب أن يقام بها . أن تغرس من ينابيع الحياة . . وأن تتنفس بحرية . ما أروع أن يكون المرء حراً . من أعماقه كالنبع والنور والهواء . هل كان عليها ألا تمتلك كل هذا وألا تتفاعل مع التحولات ؟ مزقت الأستار عن أمور كثيرة كانت بها مخدوعة أولاًها السياسة . والآن . . إنها ترى بوضوح -- يمكن أن ترزي بولده وعند ذلك ستتغير الأمور -- هذا ما قالته هاجر . . ما الذي سيتغير ؟ لاشيء . .

سيظل كريم هو كريم . . لكنها ستتحمل عبء إنسان جديد تكون هي سبب تعاسته . . نداء أمومتها أصبح متقطعاً لا هشاً بين أشواك قلبها الدامي . في صدرها طائر يرف كلما فكرت أن تضم طفلاً لكنها لا تدري كيف ستختفي به .. كيف سيلتصق وجودها بوجوده وهي التي لم تغادر

لنفسها على حلوى لهذا الوجود . . . الأملومة هي الشيء الحقيقي الوحيد في العالم . . هذا ما سمعته من إحدى أدبيات عصرها التي لم تعرف بشيء إلا بالأملومة لتفحص فرصة الأملومة . . ولتجربها . إنما كيف؟ . . . ورجوعها إلى كريم يتارجح بين الممكן والمستحيل؟

تحس أنها تضيق بالحياة . . بالهواء الذي يحيط بها . . وبجلدها أيضاً . تخرج إلى الشرفة . . تشعل سيكارا . تفكك . . نبرة كريم في الهاتف قوية وواثقة وصميمية رغم تقطيع الصوت وتعثره . صوته انتشر في البيت مثل دخان . هذا الدخان يطبق على صدرها . . يريده أن يختنقها .

قال لها مرة : لاتحاولي أن تستعدي لحضورى . . سأعود فجأة . . كما ذهبت . . وهكذا أحس أنه لم يمض على غيابي إلا أيام . . أيام؟ هذا سخيف . حتى أثاث البيت حضره الزمن بأصابعه . والأم هنية ماتت . . وحوادث كثيرة وقعت . وتغيرت أشياء . حتى المدينة لم تعد كما هي .

أبنية ارتفعت . وشوارع شقت . وأشجار نمت . . ومدارس جديدة أصبحت في الحي . . لا الحي حي ولا الجيران

جيران . . . وماذا تقول عن الأعماق والنفوس والقلوب .؟
رجاء أصبحت فريسة حب خاطيء . . وجابر شيخ يعود
للمراهقة . . والذين نبت ريشهم يحاولون أن يطيروا . . .
وهي . . هي نفسها لم تعد هي .

لإيفارقها إحساس المحاصرة . هل تحرق أصابعها من
أجل لحظة الانتظار الغبية ؟ هل تظل مصلوبة هكذا . . .
ربما لأيام إلى أن يدار المفتاح في الباب ويزيل كريم . .
ثم يتعانقان . . مثل كل مرة كانوا فيها يلتقيان . . ويتنهيان
إلى السرير من جديد .

لا . . لن تكون البحارية التي تنتظر أن يأخذها السيد
العاشق إلى القصر . . لم كان يختصر لقاءاته بها في بيروت ؟
لم لم يأت إلى دمشق لأيام ولو معلودة وكان يوهمها أن
رجوعه مخاطرة ؟ هل تغير شيء الآن ؟ لم يتغير شيء . . .
آخر مرة حاولت فيها أن تذهب إليه في بيروت وجدت
تذكرة على الحدود تمنع دخولها . . وكانت مناسبة لأن
تتفصى عن رجوعه إلى الأراضي السورية . . لم يكن شيء

بحقه . تربط بين الأمرين . . وبقوة . . ولا شيء ينفي عن ذهنها هذا الترابط .

هو الذي لا يريدها أن تذهب . . وهو قادر على الرجوع لكنه لا يرجع . وأحست أن في الأمر سراً . . وانقطعت عن زيارته .

أحد أصدقاء كريم قال لها : في اللحظة المناسبة يعود كريم . . خلافاتنا ليست مبدئية وإنما هو التطبيق . . المهم ألا نخسر معركتنا . . عندنا خيول لكل رهان . .

أترى كان كريم قادرًا على أن يعود ولم يعد ؟ هل تعتقد أن تظل بعيدة عنه في مرحلة دقيقة من حياته السياسية ؟ كل شيء جائز . . آخر مرة إلتقت فيها بكريم رأته مع أحد الضباط السوريين في مطعم منعزل صغير . . المطعم الذي يفضله . . فاجأتهما . . وكان يقول لها إنه ليس على علاقة جيدة بهذا الضابط بالذات . وتمسألت : هل هما صديقان أم عاوان ؟ — السياسة ليس فيها عداوات أو صداقات . . وأحياناً يضطر السياسي لأن يكون

بهلواناً — وضحك لسذاجتها . . لسذاجة الحواب ،
ولم تعلق على الحادثة .

في ذهنهما تبحث عن أسباب حقيقية لترك زوجها
لبلاده . لاتعثر على أي سبب مقنع . هل هو مزيف ؟
إن لم يكن هو . . فلا بد أن هناك ما هو مزيف .

ليزيفوا . . وليتزيفوا . أما هي فان لم تستطع تعریتهم
فلا أقل من أن تظل جوهرأً صافياً . . أو أن تعيده لذاتها
هذا الجوهر الصافي . الناس يتزيفون أحياناً دون أن يشعروا ،
رجاء البريئة تقف على عتبة أن تصبح عاهرة صغيرة . .
والحالة صافية أفرغت سمعها فجأة في أمها وهي في حالة
ضعف وانهيار فقتلتها . . وجابر . . كشف قناعه عن
مراهقة جنسية . . وسامم ؟ أليس جزاراً لا يفرق بين جسد
المرأة في الفراش أو فوق المشرحة . وباسيل . . وعرفان . .
و . . عالم يضج بالمزيفين .

و كريم قبل هؤلاء جميعاً . .
لم فعل ما فعل ؟

تضحك مثل مجنونة . اصبع اتهام كبيرة تصوب بضياء
فوسفورى نحوها . تفزع . . الاصبع واضحة في هذا
الظلام . أليست هي أيضاً مثلهم مزيفة ؟
صراخ كبير في أعماقها . لا . . لم تعد مزيفة . . على
الأقل تحاول ألا تكون مزيفة . منذ ذلك الصباح الذي روت
فيه الأم هنية الحلم . . منذ ذلك الصباح . أعصابها تصبح
مشلودة كوتر . تود لو تسمع موسيقى صاحبة . لو تضحك
عالياً وترقص وتغنى . لو تفعل أي شيء بعنف . . بضمير .
تقرر أن توقظ رجاء وتأخذها في نزهة ليلية . أو
تتجولان بلا هدف . . لا . . تخرج سيارتها وتقودها
بسرعة كبيرة لتفرغ ما في أعصابها من توتر . . تفتح
الباب بقوة وتنادي : رجاء . . . رجاء . .
رجاء مستغرقة في نوم عميق . تحس بالإشراق عليها .
منذ أمد طويلاً لم تنعم رجاء بمثل هذا النوم . لتدعها . من
يدري ماذا سيقع لها في الغد ؟ فكرة الخروج تبلو لها باهتة
ويداها ترتجفان . الهاتف من جديد . هل هو كريم من

جديد؟ مدام سياتي فليأت الآن . . الآن ولি�ضع حدأ
لعذابها . لكنه لم يكن كريما . . وكانت مفاجأة باردة لها .

* * *

فادية تعود متأخرة إلى البيت بعد سهرة طويلة . من عادتها أن تدخل متلصصة حتى لا تضبطها أمها ، فادية تعودت لهذا الوضع . والأم المسكينة لم تتعوده . حاولت بشتى الوسائل أن تثني ابنتها الطائشة عن هذا فلم تفلح . حتى الدموع لم تؤثر وفادية ابنتها الوحيدة وهي المسئولة عنها بعد موت أبيها . وفادية كبرت . وتعتقد أن من حقها أن تعيش كما تريده فقد بلغت العشرين . وإذا كان هذا يتعارض مع واقع أمها فليس ذنبها . لم لم تتزوج أمها ثانية ؟ لم تحملها أعباء وحدتها وانقطاعها عن الزواج ؟ ما أ Yasas حالم . هؤلاء الأهل يحولون كل شيء إلى تضحيات يطروقون بها أعناق أولادهم . وأحياناً ليسير وهم كما يريدون . أمها لا تعرف شيئاً في الدنيا سوى بيتها .

ألا تستطيع هذه الأم أن تشغل نفسها بأي شيء وتنسها
ل ساعات معدودة ؟ فكرة الإهتمام والحنان . . فكرة
النظام الذي يجعل البيت يسير كالساعة . فكرة النظافة والترتيب .
كم يبدو لها أن تبعثر ثيابها عندما تعود ليلاً . . وأن
ترك الصحون إلى جانب السرير . ولكن . . ما أسرع
أن يعود كل شيء إلى مكانه بجولة واحدة من أمها ولو
كانت ليلية . أمها قلقة عليها جداً هذه الأيام . هل هي
تحاف ؟ من تحاف ؟ من عرفان ؟ ، تعلم أنها قطعت صلتها
به نهائياً . صحيح أن لها صداقات أخرى لكنها لا تبعث
على الخوف . سطحية ووقتية ملء الفراغ لا أكثر ، إنها
الآن موظفة تتعب . . وتكتسب . . ويحق لها أن تتسلى . .
وأن تلهو . فماذا وهي ترفع عن أمها أعباء كبيرة من
مصروف البيت وتنفق على نفسها ؟ بم تختلف عن الفتاة
الأوروبية إذن ؟ وأمها تقول لها : الأوروبية شيء . .
ونحن شيء آخر . إن لك أهلاً . . وترد ضاحكة : وهل
الأوروبية مقطوعة من شجرة ؟ وأمها تحرق :
- أهلها أناس مختلفون عنا .

— مجتمعهم غير مجتمعنا . . .

— الفتاة يحب أن تظل مثل الزهرة حتى تتزوج . . .
وتعود كالبيضاء وهي تنتهي : لافائدة من الكلام . . .
لافائدة .

فادية تعود هذه الليلة وقد ملت عشرة أصدقاءها . . .
وسهراتهم . . . ولهوهم . . . وبصراحة مع النفس أنها تتوق
للهلوء . . وأن يكون لها بيت وزوج . سمير هو الذي
حول حياتها من حديده مصهور إلى شكل قلب واضح . . .

في الشتاء الماضي أمضوا سهرة رأس السنة باطار مثير . . .
في فندق ناء فوق قمة جبل . كان فندق السعادة في بلودان . . .
وتعرفت إلى سمير . . كانت ليلة عجيبة . . المصيف حال
والفندق لا أحد فيه سواهم . وضجوا . . وغنوا . . وأكلوا
وشربوا . . وسكن سمير أحداها . . وسرق الضحل
من شفتيها . . وظلت تحن إليه حنين عصفور إلى عشه
الضائع . . عندما وضع لها المعطف فوق كتفيها الراعشتين
ودت لو يضمها . . لو تريح رأسها إلى كتفه . . ويستهني

كل شيء . لكن سمير بدا جامداً كصخرة ولم يحاول حتى أن يودعها .

كل أسبوع كانت تحاول أن تذهب مع شلة -- الأصدقاء إلى بلودان . لكنها لم تتعثر على سمير . . وقيل لها أنه يدرس . . ولن يعود إلا مع بداية الصيف . ومنذ أيام فوجئت به يزورها في بيتها . وجن جنون الأم . . وحاولت طرده . . وهي تستعطفها ودخلت لتحييه . . وخرجت بانطباع جيد عنه . شاب قروي بسيط يكافح من أجل أن يت unanim و مختلف تماماً عن أصدقاء ابنته المائعين . ولما قال لها أنه يسكن في الجبل ولا يفارق غرفته في المدينة أثناء الدراسة خجلت أن تسؤاله كيف تعرف بابنته وماذا يريد منها . في اليوم الثاني انتظرته فادية طويلاً . . لكنه لم يأت . . كان حقاً يزورها من أجل أوراق له في المؤسسة التعليمية حيث تشغله . وأحسست أنها خدعت هذا القروي المغفل . . ماذا يظنها .

لابد أن يجعله يرضخ . . لابد أن تروض الحصان

الجامع فيه . جذور عرفان كانت قوية في شرائينها . . .
ومع ذلك اقتلتها مثل طحلب . وأبحرت في الأمل نحو
سمير . . لكنها تعذبت . وانتظرت . . دون جدوى ثم
انقطعت عن اللهو والشهر . . وحاولت اللقاء معه . . ثم
فشلت . . واليوم لم تعد تطبق حتى نفسها . . هل يملك
الحق في أن يغير لها سلوكها ؟ رجاء قالت لها : يملك هذا
الحق إذا كان يحبك . وأفضت لرجاء بكل شيء . . .
وحدثتها رجاء عن مغامرتها مع سامية في المصيف . . .
وأحسست أنها عصافور يحن إلى الفضاء والشمس والشجر . .
وإن الحب في الطبيعة طعمماً يختلف عنه في الكهوف
والسيارات والبيوت . عرضت على رجاء أن تذهب معها
إلى بلودان . . وأعطتها رجاء شعاع الأمل عندما قالت لها
أن ابنة خالتها سامية تملك بيتاً هناك . . وأنها ستحاول أن
تقنعها بالذهاب وتذهب معهما . . واتصلت مرات كثيرة
برجاء . . بل ببيت سامية . لم يكن هناك أحد . . وحل
المساء . . وخرجت مثل تأهبة تدور في الشوارع . . وهما هي
عادت والفكرة تضغط على رأسها مثل كابوس . هل يمكن

أن تنتظر حتى الصباح لتقطف وعداً بالذهب؟ لم لاتفعل
الآن؟ .

وعلى الرغم من أن الوقت متأخر . . . ومتاخر جداً
فقد اتصلت ببيت سامية . . . وكانت مفاجأة باردة لسامية .

* * *

لم تستطع سامية أن تخمن من الذي سيتكلم معها في
ليل متأخر . . . كانت فادية . . . وظنت سامية أنه مزاح
ثقيل لا أكثر . . . وقطعت المكالمة . . . وقطعت الحرارة
عن الهاتف . . . وارتدت إلى فراشها باعياء . . . المهم أنه
ليس كريماً .

عند الصباح يرن جرس الباب . . . تقوم سامية متأثلة . . .
كم تدعوا ألا يكون كريماً . . . فهي في أسوأ حال . . .
مثل فرس بعد نهاية شوط خاسر . . . تطل فادية :
- أنا . . . أنا فادية توفيق . . . هل تذكريني ياسيدة
سامية .

- فادية توفيق . . . التي . . .

— التي حادثتك ليلاً في الهاتف . . والتي أخذت
حفظتها خطأً في إحدى المناسبات واتصلت بك من أجلها
ولأعيد لك محفظتك . .

— كان هذا في النادي . .

— بالضبط . .

— تفضلي . . هل من خدمة ؟

وتدخل بهدوء مصطنع :

— ظلت أسأل نفسي مدة طويلة إن كنت شكت
بأنني فتحت أوراقك الخاصة يوم أخطأنا في محفظتنا .

— والعكس صحيح . ألا يمكن أن تكوني قد تسألت

أيضاً السؤال نفسه ؟

— الحقيقة أنني لم أكتشف الخطأ إلا عندما رأيت
هويتك الشخصية . كم كانت صورتك رائعة فيها . ولم
أطلع على غير الهوية بالطبع . .

— وأنت . . أما كنت تهتمين لما يمكن أنه جرى
لمحفظتك ؟

— لا . . ما كنت لأهتم ، ليس عندي ما أخفيه .
أنا صريحة . . ونوافذني كلها مفتوحة سواء أعجب الناس
أم لم يعجبهم .

— وهل تظنين في العكس إذا كنت تعتبرين هذا
أفضل مزاياك ؟

تضطرب فادية :

— لا . . أنت مختلفة عنِي تماماً أنت امرأة ذات
شخصية معينة .

— مثلاً ؟ هلا قلت لي رأيك ؟
وتبدأ سامية تحس أنها تتخلص من تعبها المترافق . .
ومن كسل النوم . وفتور الإحساس .

وفادية تقول :

— أنت امرأة ناضجة وعندي تجربة . . وزوجة
رجل سياسي .

— هل لكل هذا علاقة بمحفظتي ؟

— أقصد . . إن محفظتي ربما احتوت رسائل غرام . .
وصور . . ولا أكثر من أدوات زينة وزجاجة عطر .

— ألا يمكن أن تكون هذه الأشياء نفسها في محفظتي ؟
ترتبك فادية . تتركها مضيقتها تتأمل مافي الصالون
وتنهي حب الحمام ثم تعود ومعها القهوة وتهتف :

— ما أجملك . الحقيقة أني فكرت بزيارتكم بعد
تالك الحادثة . . لكنها الظروف . دائمًا مشغولة . . وأحس
أن يومي يجب أن يكون أطول من أيام الناس بأثني عشرة
ساعة . .

وتضحك لنكتتها وتكتفي سامية بابتسامة شاحبة فهني
لم تفهم سبب الزيارة المبكرة المفاجئة :

— هل أستطيع أن أؤدي لك خدمة ما ؟
— آ . . صحيح . أين رجاء ؟ أليست هنا ؟ قالت
لي أمس إنها ستقام عندك .
— مازالت نائمة . هل لك صدقة معها ؟

— ليس صداقه تماماً . كنا معاً في المدرسة أثناء الطفولة . والتقيت بها منذ مدة . . . وأحسينا أنه يجب أن نتقابل دائماً .

— بسرعة . . . هكذا .

— أنا عاطفية جداً . . ورجاء من النوع الذي يعجبني . وأريد أن أدعوها لتنضي يوماً في بلودان .

— في بلودان ؟ أين ؟

— في فندق السعادة . . الحقيقة هو فندق رائع . سامية تفكك أن تبعد فادية عن طريق رجاء . يكفي رجاء ما تعانيه . دخول رجاء فجأة يلجم سامية . تبرع فادية فتعانقها .

— كيف حالك ؟ في الليل اتصلت بك لأحدثك عن مشروع الترفة . .

تفكر سامية : إذن فهي صاحبة هاتف بعد منتصف الليل . . لاشك أن في الأمر ما يمسح النوم من العيون . هذا ينفرها من فادية . تنفرد برجاء :

— ولكن . . . يار جاء يدك لم تشف بعد . . صحيح
أنك أرخيت الجبس عن الكسر إلا أن يدك لاتزال حساسة
وتتأثر بأي صدمة . إنها مجازفة .

— أشعر بالضيق يسامية . ليتني أروح عن نفسي
قليلًا .

— وأمرك ؟ ماذا أقول لها لو سألت عنك ؟

— ألن تذهبني معنا ؟ إذن . . لن تغتر عليك أمري
لتتسألك .

تجد سامية من الأفضل أن تذهب معهما . ولكن .
ماعلاقة فادية بهذا الفندق ؟ ولم تريده أن تذهب إليه ؟ هل
هو سمير ؟ ولنفترض ذلك ماذا يعنيها من سمير ؟ . .

يبدو نوع من الضيق على ملامح فادية . إذن . ستذهب
سامية معهما . فليكن . ليس لديها ماتخفيه منذ قليل قررت
أن نوافذها مفتوحة . . وهكذا انطلقن . . ثلاثةهن .

* * *

في الطريق سامية تفكك في الصيف الذي مضى . . .
وسمير . . وقلقها . . ومحاولتها الخروج من أزمتها النفسية . .
والوجه التي صادفتها هناك . . وأستاذ الجامعة الذي كان
يواحد طالباته في عملية ابتزاز رخيصة من أجل العلاقات
و . . ومن يدرى ماذا هناك الآن من مفاجآت ؟

وعلى منحدر الوادي حيث يطل الفندق تحاول أن
تحتاز سامية قنطرة إلى واقع جديد سوف يتفجر فور عودة
كريم . . حتى هذه اللحظات المسروقة العابثة بلا جدوى
لن تحصل عليها . . حتى اللقاء البريء الفريد مع سمير
لن يتم . . حتى . . حتى . .

تيار أفكارها ينقطع عندما تلاحظ اهتمام سمير
الفائق والكبير بفادية . مسلوب أمامها ومطيع مثل عبد .
تناديه سامية وتطلب إليه أن يلعب معها الورق . يرتكب . .
تحاول أن يتهرب . لماذا لا تذهب فادية ورجاء إلى الحرج ؟
والرفيقان لم تصدقا أن انفردا . رجاء تشكو حبها الصائع
وأملها المسلوب . . وفادية تقص حكايتها الصغيرة مع سمير :

أما سامية فترجف أصابعها وهي توزع الورق بينها وبين سمير . هي منفعلة وهو سرح بتفكيره :

— هل تفكّر باللعبة بيننا يا سمير ؟

— لأنني لا أجيد اللعب مثلك يا سيدة سامية .

— اللعبة قائمة على الحظ أكثر من المهارة . من يدري ، قد يغلب المرء رغم اطلاعه على سر اللعبة أو مهارته فيها ..

— أو تظنين ؟ إذن .. فعندك أمل أن تكون الغالب في لعبة ما ..

— مثلًا ؟

— في الحب .

ترتعد سامية .. كانت تظنه خجولاً إلى درجة أنه لا يتحدث معها بمثل هذا الموضوع أو بهذه الصراحة :

— لكن الحب يا سمير شيء آخر . ليس له مقاييس .

— بل قياسه حسب صاحبه .. هذا ما أصبحت أؤمن به لأنني أحب .

تتمنى سامية لو تستمر في الحديث عن الحب . . . مثل فتاة في السابعة عشرة .

— الحب أمر طبيعي . . . وخاصة لمن هو في عمرك .

— لكن ليس من الطبيعي أن أحبها هي بالذات على الرغم من الفروق بيننا . هي المدينة بما فيها من حيوية وتناقض . . . وأنا الريف البسيط . . . والعرين أيضاً . .

— وهل تحبك كما تحبها ؟ أقصد . . . هل تعرف بحبك لها ؟

— هذا ما أريد أن أتأكد منه . وهذه أول مرة أتحدث فيها عن حبي لها .

توشك أن تسؤاله : من هي ؟ تتمالك نفسها . هل هي المقصودة ؟ كيف خطر لها هذا الجنون اللذين ؟ تختصر اللعبة . . . تقوم إلى باب الصالون ومن هناك ترى رجاء وفادية تهرولان مسرعتين . تحس بدوران خفيف . يمسك بها سمير وتهب عليها زوبعة من شبابه الطافح . يعود بها إلى

الأريكة العريضة . تصل رجاء وفادية لاهتين . سمير
يهمس لسامية :

— يبدو أنك متعبة . . لماذا لا تستريحين الليلة هنا ؟

تنبر فادية بسرعة :

— أما أنا فقد قررت البقاء سلفاً . تعال معي يا سمير
لأرى غرفتي . .

وتقدهش رجاء . . .

وي يصل صاحب الفندق . . والد سمير — حسن الفالح —
كأنما يريد أن يشعر ضيوفاته أنهن لسن وحدهن في الفندق .
يرسل الخادم بابريق الشاي . فادية غاضبة :

— لماذا دعوتها إلى تمضية الليلة هنا يا سمير ؟

— إنها متعبة . . ألم تلاحظي شحوب وجهها ؟

— تعتبر كل شيء كأنما خلق لها . . لعلها تظن نفسها
محور العالم .

— وهل تضيقين أنت يا حبيبي ؟

— آه . . قلها يا سمير . . أحب أن أسمعها .

- ياحبيبي .
- ما أسعدني ، هل صحيح أنت تحبني ؟
- منذ المرة الأولى . . أحب فيك أشياء كثيرة . . ولكن . .
- ولكن ماذا ؟
- هذا الموقف من سامية .
- فقط ؟
- يبدو أنني سأعرض على أشياء أخرى فيك . .
- إذن فأنت لا تحبني .
- قلت لك أنني أحبك . . أحبك ولكن أريد أن تكوني خالية من الأخطاء والنواقص .
- تبعد عنه غاضبة . يسرع إليها . يمسك بها بذراعيه القويتين . تغمره أمواج شعرها . تدير وجهها نحوه . لا يجد نفسه إلا وهو يغرق في شفتيها اللاهيتين .
- وترى نفسها في سهل فسيح . . وخیول تركض . .

وينابيع ماء . . ترتكب فوق سريرها متعبة لاهثة . . لكنها سعيدة . سعيدة . تقتحم رجاء غرفتها .

— ما هذا البريق الغريب في عينيك يا فادية . . ثم أن خديلك بلون الورد .

— أنا أطير من الفرح . تعالى لترى غرفتي . . هل ستنام معاً وترك سامية تستريح وحدها في غرفة ؟ إنما غرفتان متجاورتان على أي حال .

الليل في أوله وكل واحدة أوت إلى سريرها . رجاء تستمع إلى بعض الأغاني العاطفية . . سامية تكتب في دفتر صغير . . أما فادية فلم تلبث أن ضجرت وأخذت تخرج من غرفة إلى أخرى وهي تتبعثر بثياب نوم وردية وحذاء بيتي بكعب عال بينما صوت — العلقة — يفرقع في هدوء الليل . تهبط إلى غرفة الصالون فتنادي سمير وتطلب منه شيئاً . . وتعود . وسامية تعجب لهذا التصرف الطائش . . فتاة بثياب النوم أمام شاب غريب . وفادية لا تشعر إلا أن ماتفعله طبيعي تماماً .

تقول سامية : أشعر بالبرد . . سأغلق النوافذ . وأنتما
أيضاً . . حاذرا منه .
ثم تنسحب .

تسمع عبارات نارية . تفزع . تهرب إلى غرفة فادية
ورجاء :

— هل تسمعنعي ؟
— عبارات نارية أعتقد أنهم بعض الصيادين .
تقول فادية .
ترد سامية :
— صيادون في الليل ؟ لاتتحرك سأرتدي ملابسي
وأهبط لأسأل .

رجاء لاتنبس بحرف وترفع الغطاء فوق رأسها .
فادية تغلق النوافذ الخشبية وتندس في السرير الملائم للجدار .
الرصاص يقترب . يزداد . يخترق الليل فيمزقه .
وقد اقترب من الفندق . عند ما تصل سامية إلى المدخل
الموصل إلى الباب تكون الضجة قد وضحت أمام الباب

الرئيسي للفندق . تسمع صوت سيارة ورجال يقتربون
الباب ويدخلون . تجدهم في مكانها . تحبس أنفاسها . لو أتتهم
أرادوا أن يدخلوا إلى غرف النوم أو أن يصعدوا إلى الطابق
الثاني لعبروا من الممر . يبدو أن هذا ليس قصدتهم . هل
تخرج إلى الحديقة ؟ لا . . . إنهم مسلحون ويمكن أن
يشتبهوا بها فيطلقوا عليها النار .

تسمر سامية في مكانها في الممر . لا تعبره إلى الصالون
ولا ترجع منه . تسمع حواراً بين سمير والجهولين .
تميز صوت أحدهم . إنه عرفان . تفهم أن لديهم كميات
من مواد مهربة ويريدون أن يخفوها في الفندق . تذكرت
الصندوق الذي أخفاه عرفان تحت مقعد السيارة . بصعوبة
تفهم ما يقوله سمير بأنه لن يخفى عنده أي سلاح أو مهربات .
تحس ببواطن عنيفة وبالإقدام تقرب من بعضها وصوت
ثالث يتدخل :

— لكنك يا سمير ستساعدنا . ألسنا أصدقاء ؟

سمير يرتجف صوته :

— أنتم أصدقاء الفندق كنزلاء . ولا أعرف غير هذا .
تمر فترة صمت — تسمع خشخشة أوراق وصوت
الأول يقول :

— لن تخرج هذه الأشياء من هنا ولو بالقوة . ليس
لدينا وقت . الدورية وراءنا .

يقول سمير :

— أريد أن أعرف لحساب من هذه ؟

— وهل ستتوافق إذا عرفت ؟

— ربما . لفترة قصيرة . . لصباح الغد مثلاً .

وعندما تسمع سامية أسماء الأشخاص وبينهم اسم
كريم السعدي توشك أن تسقط . ويطفو إحساسها بأن
سمير في ورطة . . وأنه يخاف على النساء الثلاث عنده .

يقول عرفان :

— طبعاً لديك غرف . . يمكن أن نعود آخر الليل .

يرد سمير بحزم :

— لا . . . هذه الليلة لن تؤجر غرفاً .

— ماذا ؟ أشم رائحة الأنثى . إذا كان لديك أكثر من واحدة فاحسب حسابنا .

— إنها خطيبتي على أي حال .

ويفتح ضاحك مثل ضاحك سكارى . يهبط المجهولون إلى القبو من الباب الخارجي . يرمون فيه بالبضاعة وسامية ترتجف . لو فتح أحدهم الباب الخشبي ليعبر إلى الصالون لرآها . ول كانت فضيحة .

سمير استطاع أن يداري الموقف ويقف حارساً عند الممر . وكان يصل إليها صوت جسده وهو يحتك بالخشب . قبل أن يغادر المجهولون الفندق تسمع عرفان يقول لسمير :

— ليس معي إلا هذا المبلغ ستفاهم فيما بعد . . .
وتسمع صوت محرك سيارة تنطلق باتجاه الطريق المؤدية إلى قمة الجبل .

* * *

تهالك سامية والعرق ينبع من كل خلية في جسدها .

هيء واحد كان يجعلها تتماسك وهو أن رجاء وفادية لم تسمعا أي شيء . سمير يقول :

- سمعت كل شيء طبعاً . . وبلغ ألف ليرة أيضاً .
- وهل قبلته ؟
- لم يكن هناك مجال للنقاش في مثل هذا الظرف .
- لو لم نكن عندك هل كنت ستقاومهم ؟
- كنت على الأقل فهمت الأمر جيداً ورفضت المال .
- أنا آسفة . . أقصد لوجودنا هنا . والآن ما العمل ؟
- علينا أن نتظاهر بجو عائلي إذا مامرت دورية .
- سأنادي أبي وأستدعي الخادم والطباخ وزوجتيهما وأنت . .
- تفاهمي مع رجاء وفادية .
- وإذا عادوا ؟
- لن يعودوا . ظنوا أن المال أعجبني ورضيت بالصفقة .
- هل ^{سيعودون} لأنخذ الصناديق في الغد ؟ .
- لو كانوا سيأخذونها في الغد لما دفعوا المال .

— ومن المسؤول ؟

— سأتدبر أمري غداً . لاتهتمي .

تنهد سامية . تتكيء على الجدار . النور الخافت يتسلل من الصالون . يقترب سمير منها :

— هل تحسين بشيء ؟

— أنا متعبة . .

وتسقط . يتلقاها بين ذراعيه . صوت فادية يتلمس

الظلم :

— أين أنت ؟ .. سمير .. سيدة سامية .

رتدير رجاء زر الكهرباء . وتشهق الإثنان .

* * *

صمت يتمزق .. صمت يتفجر .. يتكلم .. والليل قاس . مثل ذئب مخمر يتسلى .

الدوامة في أعماق كل من هؤلاء . ولم يناموا في فندق السعادة . رجاء لا تتصور أن سامية يمكن أن تقع بين ذراعي سمير .. أي تناقض إذن في شخصيتها وأي زيف . تمثال

الوهم الذي توشك أن تعبده يحب أن يتحطم . تتصور
أنها تحمل فأساً . وأنها تهوي عليه . وأن يديها تمتلئان
بالدم . وانه ينهاي فلا يبقى منه إلا القلب الذي يضرب
مثل مضخة تأبى التوقف عن الدوران . . .
وت بكى بصوت مرتفع . . .

— مابك يار جاء ؟

تهتف فادية . . .

— لاشيء يافادية . لاشيء . نامي أنت واتركيني .
وفادية مثل بركان يغلي . . . يوشك أن يقذف الحمم
والأحجار الملتقطة . . تحس سائلاً نارياً يدور في أعماقها . .
تود لو تمزق كل شيء حولها . . تضرب الوسادة بالأرض . .
يختنق الصوت في حلقتها مع الدموع :

— قبل ذلك بقليل كان يقول لي أنه يحبني . . تصورني
يار جاء . . كم أود أن أحطم له رأسه . وأن أنشب أظافري
في وجهه وشفتيه وصدره . .

— اهدئي يافادية . . سوف نفهم كل شيء غداً .

— وما الذي يجب أن أفهمه أنا أكثر مما رأيته ؟
عالم قدر . . ورجال قدرؤن . . وعلينا أن نعيش في
مستنقع حتى نقبل بهذه القدارات .

— لاتفلسف في بالله أرجوك يا فادي . . . رأسي يكاد
يتحطّم .

وسامية مثل تأهـة في صحراء . تلال رملية تحجب عنها
الرؤـة . . وعاـصـفة تـشـدـها إـلـىـ المـجهـولـ . تـحنـ حـتـىـ إـلـىـ الـهـدوـءـ .
وـبـرـيقـ الأـسـرـيـةـ . كـمـ رـفـضـتـ الأـسـرـيـةـ وـتـاقتـ إـلـىـ الـعـاصـفـةـ . .
لـكـنـهاـ الـآنـ تـشـعـرـ أـنـهاـ عـاجـزـةـ أـنـ تـقـفـ عـلـىـ قـدـمـيـهاـ فـيـ وـجـهـ
هـذـهـ الـرـيـحـ الـعـاتـيـةـ الـيـ تـعـصـفـ بـهـاـ ؛ـ رـيـحـانـةـ ذـاـبـلـةـ هـيـ . .
بـلـ غـصـنـ مـقـطـوـعـ . . أـيـنـ النـاسـ الـذـيـنـ تـظـنـهـمـ حـوـلـهـاـ ؟
يـخـتـفـونـ كـمـاـ لـوـ أـنـ الرـمـالـ تـبـتـلـعـهـمـ . . وـأـمـهـاـ الـيـ تـوـسـدـتـ
الـتـرـابـ بـصـمـتـ . . أـتـرـاـهـاـ تـنـسـىـ رـعـشـاتـ الـخـانـ منـ عـيـنـيـهاـ
وـكـفـيـهاـ وـحـدـيـثـهاـ النـابـعـ مـنـ الـقـلـبـ ؟ـ تـرـتعـشـ . . وـذـكـرـىـ
أـمـهـاـ . تـتـخـيـلـهـاـ مـثـلـ دـمـيـةـ حـجـرـيـةـ مـصـلـوـبـةـ فـوـقـ أـفـقـ الـصـحـرـاءـ
وـيـنـبـضـ أـمـاـهـاـ حـلـمـ الـنـبـوـةـ مـنـ جـدـيـدـ . . الـزـوـبـعـةـ . . وـالـشـوـارـعـ

والأشجار . . والتماثيل . . ورأس المرأة المقطوع . . آه
ياأمي . . رأسي الآن مقطوع . . مرمي في بحر متحرك
من زبد رملي أبيض رأسي مع ذلك لايزال يفكر . يعي . .
يدرك الأشياء أكثر وضوحاً . . أكثر مضاء فماذا أفعل ؟
هل أمضي ياأمي في صحرائي .. هكذا وحيدة تأهبة مثل نقطة ماء ..
مثل قطرة شعاع .. لكل شيء في الكون ناموسه الخاص ..
قانونه الخاص . . ونحن البشر لماذا لأنرضي بأننا نخلق
لنموت . . ونعيش من أجل أن نعيش ؟ لماذا يتحرك طائر
المجهول ، في صدورنا ليدفعنا إلى مسارِي المغامرة وأعتاب
الخطر حتى السقوط ؟

سامية تتعب . . من كوابيسها تتعب . . من تفكيرها
تعب . تحس أن ريحًا مجهولة آتية من بعيد . . ريح حقيقة
تحمل معها الزوبعة . .

ولا تصدق أن الفجر يزعج حتى تحمل نفسها المثقلة . .
وهاتين الفتاتين المجنونتين لتعود بهما إلى العاصمة .

الفصل الثامن

الحالة صافية تتصل بابنة أختها سامية وهي تتفجر غضباً .
يجب أن ترجع رجاء إلى البيت . . فوراً . . أخوها
مستاء وليس من مبرر لوجودها عندك تصرف على هواها .
أم أن رجاء ليس وراءها من يردعها ويردها إلى الصواب ؟

تردد سامية باستثناء :

— ولكن . . ما الفرق ياخالي بين أن تكون في
بيتها أو تكون هنا ؟ إنها متعبة وبحاجة إلى الراحة .
— راحة ؟ وأي راحة ما دامت لاتعود حتى بعد
منتصف الليل ؟ .
— الحقيقة ياخالي أننا غبنا ليلة واحدة في المصيف . .
وما عدا ذلك فنحن لانخرج من البيت .

— ولم تنم عندك؟ هذا ما كان ينقص ، هل ستقولين
أنك وإياها نمتا وحدكما في بيت المصيف؟

— لا ياخالي . . نمنا في الفندق . تأخر الوقت
واضطررنا . . وكان معنا صديقة أخرى لنا .

— قلت في الفندق أليس كذلك؟ اسمعي ياسامية . .
أنت مسؤولة عن كل شيء بالنسبة لرجاء . رجاء لا تعرف
شيئاً . . وإذا أخطأت أو زلت فاللوم عليك .

— ولماذا تزلي لاسمع الله؟ هل ما فعلناه زلل أو خطيئة؟

— لاتناشيئي . . أرجوك . . فلترجع رجاء ولا علاقه
لنا بحياتك أنت .

— حسناً . . سأقول لها فور أن تعود . ذهبت إلى السوق.

— إلى السوق؟ ومن الفجر؟ من أين لها المال؟
لتعد فوراً . . وإلا . .

وتصمت سامية . . تود لو تنتهي المكالمة . لكن الحالة
صفية تنتقل من موضوع إلى آخر وتصرخ وتسip وتشتم .
وكان سامية مذنبة بحق رجاء . . أو كان رجاء طفلاً

تركت سائبة . سامية هي المسؤولة . . حسناً . . لو تعرف
خالتها أن رجاء في بيتها كانت موجودة جسلاً غائبة روحًا .
محطمة من الداخل بينما تظهر مثل مزهرية جميلة دقيقة
الصنع وسليمة من أي كسر .

على رجاء أن تقرر . . وليس هي .
ترجع رجاء مغسولة بفرح ناعم بعد ليلة الفندق القاسية
مثل عصفورة مبللة بمطر ربيعي :
— تعودين إلى بيتكم يارجاء . . هذه رغبة أملك . .
ولا تعودين إلىّ أبداً .

— لا أعود إليك ؟ كيف ؟ أصبحت جزءاً مني . .
وأنا أجتاز مرحلة صعبة وبحاجة إليك . أشعر أنني كمن
يسير على حبل فوق واد سحيق . . إما أن أقطعه . وإما أن
أسقط .

— وماذا تريدين أن أفعل ؟
— كنت تقولين إن الإنسان إرادة . وأنا الآن أريد
ولا أريد .

— اسمعي يارجاء . . أنا بدأت معك وعليك أن تكملني . ألم يقتطع الحجر في الماء ولست مسؤولة عن اتساع الدوائر فيه . . فتحت الباب للتيار لكنني لأقوى على صد العاصفة . أنا نفسي لا أقدر أن أواجه مشاكلني .

— وما هي مشاكلك ؟ غداً يعود كريم وتعودين لحياتك مثل أميرة . . ويعود بيتك الجنة . . أما أنا . .

أعود مثل أميرة . . ويعود بيتي الجنة . . لو تعرف رجاء كيف أتمزق . . كيف أتعذب كل ليلة . . أقف أمام قضاة يتتصبون في أحماقى . . يستجوبونني ويحاكمونني . . ينحرجون عني ثم يقبحون عاي من جديد . . لو تعرف رجاء رب صحرائي . . وشمسي المحرقة . . وعطشى . . لو تعرف أنني لا أغير حتى على السراب .

— والعمل يارجاء ؟

— لابد أن يأتي الحل . . بطريقة ما . . لكنني لن أرجع الآن .

— لن يأتي الحل من السماء . . نحن الذين نقرر .

— سأقرر في الغد . . ألا تمهيني ؟ أنا أمهل نفسي .
وتهرب رجاء إلى نفسها . مثل طفلة تمسح عن أهداها
الدموع لأنها فقدت دميتها . الغد . . الغد . . دائمًا تنتظر
الغد . ألسنا في هذه البقعة من الأرض انتظارين ؟ هل نفعل
شيئاً سوى الانتظار ؟ أليست خرائط أدمغتنا كلها موشومة
ومرسومة بأصابع مجهول اسمه الغد ؟ .

سامية تتذكر من حولها . . كلهم لا يعيشون لحظتهم
وإنما يتطاهرون إلى الغد . . ويعيشون من أجل الغد . . وقد
يأتي هذا الغد أو لا يأتي المهم أنهم عاشوا الأمل في الانتظار .
يلمع في خاطرها جابر . . حتى هذا الشيخ يتنتظر له
غداً لقاء مع من يحب . . حرية . . غبطة داخلية كأنها
سماوية . . مال يهبط إليه من جديد . . من أجل أن يعيش
من جديد .

جابر . . أيها المسكين . . ماذا تفعل بك الأيام ؟ . .
هل يخدعك الزمن أم أنك تخدع نفسك عنه ؟ كيف
تجاهله ؟ كيف تختال عليه ؟ هل تنتصر عليه أم هو الذي
يأخذك أخذ عزيز مقتدر ؟ .

تشعر أنه يجب أن ترى جابر . . ومن أجل أن تترك
رجاء لقرارها الخاص بها ، تخرج بسيارتها إلى دوما ..
حيث جابر .

في الطريق تشعر أنها تخرج من سرداد ذاتها . كم
أصبحت تتعلق حول هذه الذات . . و كان العالم كله هي . .
و هؤلاء الناس جميعاً أليست لهم معاناتهم و مشاكلهم التي
ربما تفوق معاناتها و مشاكلها بكثير . كيف السبيل لأن
تحطم هذه الصلابة التي تغلفها ؟ صحيح أنها حاولت . .
لكنها حتى الآن لم تصل إلى نتيجة . لعلها لم تفشل . . لكنها
لم تنتصر على شيء في الوقت نفسه . . وهذه الزوازع
الصغيرة التي أثارتها في الأشخاص الذين حولها ماذا حصدت
منها ؟ بل ماذا خلفت لها هي نفسها ؟ لابد من عاصفة
كبيرة . . كبيرة . . من أجلها . . ومن أجل الآخرين .
لابد من هول يهز شجرة حياتهم الضخمة . . يملأ آذانهم
وعيونهم . . وينفض عنهم هذا التقوّع والتبلد والتمحور
حول الذات . ما هو هذا الذي تتظره ؟ معجزة ؟ ربما . .
إلا أنه آت . . سيد الزمان هو الزمان الآتي . .

تلمح في الطرق حركة غير اعتيادية . تدبر ابرة الراديو . الراديو معطل . الناس في هجوم على البقاليات والأفران بينما المحلات التجارية تغلق . السيارات في ازدحام وارتباك وكأنها كلها تخرج من العاصفة .

ما الذي يجري ؟ تلاميذ المدارس يخرجون جموعاً مذعورة كعصفير أغلبها صيادون . تحت شجرة جوز تقف . قلبها تعصره يد مجهولة . أية أبواب فتحتها على حياتها . لا تتسرب منها سوى الأشباح والأوهام . ليت أن العاصفة تثور وتلقي بها إلى وديان النهاية . وينعدم كل شيء . كل شيء .

تشعل سيكاره . تهب نسمة حزيرانية لافحة . أي صيف مشتعل هذا الذي تنتظره . ولكن ما شأنها هي بجابر وغير جابر . ما الذي يعنيها من سمير وعرفان وفادية وباسيل ورجاء . وكل هؤلاء ؟ كل إنسان وحيد على هذه الأرض .. عبارة قرأتها لهرمان هيشه .. وحيدة .. وحيدة .. ولا شيء يحطم إحساسها بهذه الوحيدة .

تتذكر كريم . . تناديه : كريم . . أيها الوجع .
يامن كنت براءاً وشفاء من التفاهة والملل . . هل تغلو
البُرُح من جديد ؟ كأن يداً تطبق على عنقها . . وأنها تريدها
أن تبكي . لم لاتبكي ؟ منذ ماتت أمها لم تبك . تسند رأسها
إلى الشجرة وتغرق في دمعة كبيرة . . كبيرة .

طائرات تحوم في الأفق . . ترك وراءها خيطاً مسحوباً من
ضباب . طائرات أخرى ذات دوي مرعب تمرق أسراباً بلمح
البصر . . تعلو . . تهبط . تكاد تلامس رؤوس الأشجار
وأسطح الأبنية الريفية الواطئة . . مناورات ؟ لابد أنها
مناورات . وهي . . ما الذي يعنيها هذه اللحظة غير عالمها
الدايي ؟ في الجامعة كانوا يتحدثون عن أمور كثيرة . .
ويتوقعون الحرب . وكم يكثرون ما حدثنا عن المعركة
المقبلة : — إن أي معركة تتفجر لابد أن تكون حاسمة ،
مادام العرب قد عرفوا طريقهم في الاستقلال والتحرر
فعليهم أن يفجروا معركتهم بأيديهم . . وال الحرب هي
النار التي تصهر . . ونحن بحاجة لأن نصهر — كل ما سمعته

وما تقرؤه الآن في الكتب والصحف وعيون الناس لا يمس منها إلا الجلد . . . لا ينفذ إلى العمق . اهتماماتها تغيرت . . لكن إحساسها بأنها محور الوجود لم يتغير أبداً . هذا سر حياتها . . هنا فشل كريم . . ومصدر عذابها .

تبكي . مثل طفلة . يادموع الطفولة البعيدة . . ياحرماناً مريعاً من الأب والأم والأخوة والزوج .. والحب أيضاً . أيها الحب المستحيل . . ياقطيعة العمر . . يأمل العمر .

ينهسر في أعماقها شلال أنانية طاغية . ليغرق جابر في بحر أحزانه الصامتة ولتضطر رجاء إلى حضن أي عشيق تريده . . ولتصطدم فادية أكثر بصخور الحياة . . وليسعد أخوها عنها أكثر وأكثر . . وليرجع كريم أو لا يرجع فلن يتغير من أمرها شيء .

يرف طيف ناجي مثل حلم مجتمع . . وترف باريس في خاطرها أسطورة . تحس أنها تركض في حديقة مشمسة مليئة بالزهور . . وترتمي في أحضان قارب صغير هاجع في بحيرة . وتسمع لحن حب من بعيد . . الا أيها الحب .. أيها الملاك المنقذ .

لاتلبيت سحب سوداء أن تلفها بضباب قاتم . ترتعي
إلى الأرض . فوق تراب رطب مشبع بالماء تتمدد . . تنفذ
إليها رائحة دافئة مثل جسد حبيب .

هذه الأرض . . هذه الأرض . . كم لها من ارتباط
بها . . تنفتح كل خلية من جسدها علاقة ما . . ذكرى
ما . . حباً ما . كم شربت من عرق جدها وأبيها . . ومن
جهد أعمامها وأخوها . على هذه الأرض عاشوا . . ومنها
أكلوا وشربوا . . وفي ترابها دفعوا . مسكين صلاح . .
مسكين فائز . أخوها لم يعرفا قيمة الارتباط بالأرض . .
وارتحلا . . وتركا سر الحياة . البشر التي تنضح ماء شحيحاً
في أرضنا أفضلي من أنهار في أرض الغير . وكريم . . المبعد
الشريد هل يعرف ماذا تعني الغوطة شجرة . . شجرة . .
وما هو السر المتدايق في سواعقيها . . وفروع أنهار بردى ؟ .

نداء رجل ولو كان زوجاً : تعالى . . لا يطغى على
هذه النداءات الخفية التي تشدها حيث هي .
فكرة مثل اشراقة تهبط إليها . . لم يسافر كريم لأنه

مضطرب فعلاً إلى ذلك . . لعل ذهابه في الفترة الأولى كان حلاً . . وكان علنياً لكنه سرعان ما أصبح قادراً على العودة في أي لحظة . إنه يوهمها . يخدعها . . يراوغها . . وربما يريد عمداً أن يبتعد عنها . .

تفيق من ذهولها . كأن حقائق معينة توشك أن تتفتح أمامها . . مثل أواخر ليل يحمل في طياته خيوط نهار . . في دوما تجد الناس متجمعين ينصلتون إلى الراديو . . تقف معهم تستمع مثلهم . . وواد كبير ينحفر في أعماقها . دمية نحاسية هي تسقط في هذا الوادي بدوي هائل . إنها الحرب . . الحرب . . الحرب .

بعضهم ينظرون إليها باستغراب لكنهم لا يعترضون . . وعندما تأخذهم أمواج الإنفعال ينسون أنها بينهم . وتنقذف من أفواههم ألفاظ مزدوجة من الحماسة والتهديد والوعيد . وકأن العدو قد تسلل إلى طعامهم وهم قادرون على طرده بل سحقه . المتفحرون منهم غروراً يمضون في غرورهم . . يصيرون : ماذا يعني أنهم يهاجموننا . . سوف نحطم رؤوسهم . . إن يمسوا شرة من واحد فيينا . . إن يأخذوا

شبراً من أرضنا ، الشبان يتضاحون ويزعمون مثل ديكمة
— فزعة ياشباب .. سلاح ياشباب .. هجوم ياشباب —
 بينما يشق زحام الأصوات صوت نشاز لغنية مغمورة ..
 « ييكلفني خمس قروش اللي بيقرب صوب حلوودي » ..
 ويضحك الجميع ضححكاً مستهراً متوتراً .. مجمنوناً عابشاً .
 وعندما ينهاى سيل الصراخ على العدو تجد أن عليها أن
 تنسحب بسرعة لثلا تسمع . شيخ متهدم على كرسي قش
 يتمتم بعبارات غامضة . تقترب منه مضطربة :

— أين يسكن السيد جابر ياعم ؟ محله مغلق كماترى ..
 — بيته جهة البساتين يابني .. وهذا لا أنسحك
 بالذهاب إليه . إنها الحرب ..

— ولأنها الحرب أنا مضطربة لأن أراه أكثر .. أرجوك
 أن تدلني على بيته .
 — حسناً .. سأذهب معك .

ويسيران . هو مثل مسلول يسحب رجليه .. وهي
 خائفة مذعورة تتلفت حولها وإلى السماء والأرض . تطرق

باب جابر بعنف .. تسأل الجيران في الحي .. والصبيان.
لا أحد يعرف .. اختفى منذ أيام . ترى هل عاد إلى
أسرته وبيته ؟ ليته يفعل . إنهم يحتاجونه في هذا الوقت
الصعب .. تترك رسالة مع الشيخ يسلّمها إلى جابر لو رأه
يفتح مكتبه . لا بد أن تعود .

أين تعود؟ لم تعود ؟ هل تعود إلى بيتها الخاوي الخامد
وقد فقد معناه مثل حكمة مقلوبة المحرف ؟ ومن أجل من
تعود .. لا أحد مسؤول عنها .. ليست مسؤولة عن أحد .
لو أن كريم هنا لاختلاف الأمر . يمكن أن تتحطم الحواجز
بينهما أمام هذا الخطر المداهم .. لكن هدف ما يجمعهما .
كريم لم يعد .. ورجاء لاشك عادت إلى بيتها وحضن
أمها .. وستغفر لها أمها بسبب الحرب .

هل تعود من أجل أن تقع بين الأثاث والحدائق
قطة مطاردة ؟ مزهرية محطمة ؟ بيانو مهجور ؟ ما الذي
تنتظره وهذا الواقع الجديد أمامها مثل مارد ؟ ماذا عليها
أن تفعل ؟ .

الوطن .. الوطن .. أيها المقدس في القلب ..

المحمول في هدب العين . . علمونا أن نحبك لكنهم لم
يعلمونا كيف نخدمك . . كيف نسعفك . . كيف نكون
معك وقت المحنـة . . هل هي وحدـها الصـائـعة المـضـيـعـة ،
فـوق بـساط الـوطـن الـذـي يـشـدـه العـدـو بـأـظـافـرـه وـأـنـيـابـه ؟
قـطـعـاً لا . . هي كـمـواـطـنـة وـهـي كـامـرـأـة يـوـجـدـ أـمـثـالـها
الـكـثـرـونـ. لـيـس لـهـمـ أـيـ تـجـسـيد لـهـبـهـمـ وـاقـعـاً عـلـمـيـاًـ. أـيـ
سـبـيلـ يـمـتـلـئـ صـدـرـهـاـ نـقـمـةـ . . لـكـنـ عـلـىـ مـنـ تـنـقـمـ ؟ عـلـىـ
أـهـلـهـاـ ؟ عـلـىـ الـذـيـنـ رـبـوـهـاـ وـعـلـمـوـهـاـ فـيـ الـمـدـارـسـ وـالـجـامـعـاتـ ؟
عـلـىـ الـمـجـتـمـعـ ؟ تـضـحـكـ بـهـيـسـتـرـيـةـ مـرـةـ . . مـاـ الـمـجـتـمـعـ ؟ وـحـشـ
وـهـمـيـ لـاـ يـعـرـفـهـ النـاسـ إـلـاـ عـنـدـمـاـ يـنـهـشـهـمـ . . وـيـزـقـهـمـ . .
أـوـ يـفـرـسـهـمـ. لـاـ يـشـعـرـوـنـ بـهـ يـدـأـ قـادـرـةـ مـنـ حـدـيدـ تـأـخـذـ بـهـمـ فـيـ
دـرـوـبـ الـضـيـمـانـ لـاـسـتـقـرـارـهـمـ . . وـالـأـمـانـ لـحـيـاتـهـمـ .

مثـل منـارـة تـنبـض أـمـامـها صـورـة . . رـنـا . . الـفـلـسـطـينـيـة
المـقـفـة وـأـسـتـاذـة الـجـامـعـة . . وـالـمـوـغـلـة فـي أـكـثـر مـن تـنـظـيمـيـة
سيـاسـيـ عـرـبـي . . لـابـد أـن إـنـقـاذـاً مـا سـيـكـون عـن طـرـيقـها .
هـي أـولـاً وـقـبـل كـل شـيـء اـمـرـأـة . . وـلـابـد أـن تـجـدـ منـقـذـاً

لها من خلال هذه الحقيقة . لتسرع إلى رنا . . ولتنسى
 موضوع الرسالة لجابر . . وعوده كريم إلى البيت .
 شمس حزيرانية مشبعة بالدفء تصفع الرؤوس .
 طائرات مثل طيور خرافية تحوم . . حماس القرويين
 تعاظم مثل موج .

لتذهب إلى باسيل في الجريدة . . لتعرض عليهم
 خدماتها . . لاتدرى بالضبط ماذا يمكن أن تقدم . لكنهم
 ربما استفادوا منها . لتحمل الكاميرا . . وقلبها . . وألوف
 الأفكار وتنطلق إلى الشارع . . ولتحاور الناس وتعين
 قواهم وترصهم صخرة واحدة تسد طريق العدو .

ولعل قلمها الذي جف يمكن أن يشرب من نسخ
 أعصابها فتكتب . . وتكتب . . أليس من شعاراتهم أن
 الكلمة هي رصاصة ؟

لا . . بل تذهب إلى المستشفى . . أي مستشفى . .
 تتنقلى الجرحى . . تسعف المرضى . وبرداء حناتها تمسح
 الجراح . مهمة رصدوها للمرأة منذ أقدم العصور . .

لن تستمر في تخيل هذه المهمة . . فهي معروفة و مألوفة .
تقول للشيخ :

— ياعم . . أريد أن أرجع . . وبسرعة . .
— ألا تنتظرين قليلاً حتى يهدأ الجو ؟
— الجو لن يهدأ . . سيزداد إلتهاباً وتفجراً . ستشتد
المعركة ياعم .

وتنطلق طائرات مثل صقور أسطورية . . إنها
الميج — وإنهم طيارون سوريون . تنقض بسرعة
مذهلة فوق طائرة تبدو كشبح . وكأنها بلا صوت .
تنزلزل السماء . . كأنما يسقط منها شيء إلى الأرض .
يلمع معدن أبيض تحت ضوء الشمس المبهر . . وترى
حطام طائرة تقع . وتقع إلى جانب الشيخ في حفرة .
لحظات مثل دهر . . تساوي العمر . . تحس بحرارة
وبرودة بآن معاً . . بآن رأسها قد ضاع منها وأنه في الوقت
نفسه في أصفى لحظات التفكير — غارة معادية وهي في
بستان وإلى جانبها رجل شيخ جاء يدها على بيت جابر —
تعيد هذا الكلام لنفسها . وتمد يدها إلى صدرها تريد أن

تتأكد أنها سالمة . . وأن الشيخ الذي طمر رأسه في التراب
لا يزال يتنفس .

— مابك ياعم ؟

— بل أنت . . هل أصبت ؟

— حتى الآن . . لا .

ترفع رأسها إلى الجهة التي دلها عليها الشيخ . . ترى
دبابات مموهة بأوراق الشجر وفوهات مدافع وتبداً عملية
مضادة . تضع سامية أصابعها في أذانها . . تهطل دموعها
رغماً عنها . تلتقط بالشيخ المرمي مثل خرقه بالية . عيناها
ترزيغان . يولد حريق بين البيوت القرية . تحس النار تحرق
وجنتيها وخدبيها وعطش قاتل يستبد بها . الحريق بين
البيوت التي بينها بيت جابر . يهرب السكان وما زالت
المدفعية تقذف . يهرون نساء وأطفالاً وشيباً وشباناً . .
حفاة . . يصرخون . وبأيديهم حلل وأوان وكل ما يمكن
أن يملأ بالماء . النار تزداد شراسة ، عندما يلفحهم اللهب
ويشعرون بعجزهم عن اقتحام الحريق يرمون ما بأيديهم

وتغلبهم الحيرة . تناهى صرخات استغاثة من بين البيوت بينما تصدر أوامر لا تعرف من ولا إلى من توجه :

— أديروا موتور الماء . .

— هاتوا ما عندكم من بطانيات لئن لف المصابين .

يزعق صوت سيارة إطفاء . . . ويقتحم رجال بواسل ألسنة اللهب وتبز سيارات جيش . . و سيارات إسعاف وينقل المصابون . وبين ذهول القرويين وحماسهم المتدقق يخمد الحريق وينتهي فصل من فصول الحرب .

خاطر مثل سكين ينغرس في قلبها . لماذا لا يكون جابر بين هؤلاء المصابين التعباء إن كان هو . . أو كان غيره ما الفرق ؟ كلهم مواطنون وبحاجة إلى مساعدة .

— إلى أين تأخذونهم ؟ إلى أي مستشفى ؟

— إلى مستشفى — حرستا — مستشفى جميد .

ليس فيه خدمات بعد . المهم انقاذهم الفوري .

وتطير بسيارتها إلى مستشفى — حرستا — تجده عشرات الجرحى .. فوق النقالات .. في الممرات وعنده الأبواب ..

بثيابهم العسكرية المترفة . . بدون ثياب . صغار ومدنيون أيضاً . . محروقون أكثروا بنار النابالم .

تففف مذهبولة . . عاجزة . . الدمع جمد في عينيها وقسوة هي كل الحنان تنبع من أعماقها . مستعدة أن تصمد بهذه الجروح . . أن تمسح الدماء . هي التي لم تلمح في حياتها الدم . . ولم تهد يدها إلى أصبع مجريح .

— والعم؟

تقول لرئيس المستشفى ورئيس طاقم الأطباء الذي حول فوراً إلى المستشفى .

— لدينا الأجهزة والأطباء والأدوية . . لكننا بحاجة إلى عناصر مساعدة . . خدمة . . تمريض . . عمل في المطابخ وعلى المصاعد إلخ . .

— هل تقبلونني بينكم؟

— توقعت أن تقولي سأتي بعشرات مثلي لمساعدتكم . على أي حال أنت مشكورة . كأنما نفذ إلى عمق أفكارها . لماذا لا يأتي عدد من النساء الوعيات وال المتعلمات للتطوع

في هذا العمل ؟ إنها اللحظة . . وإنه الإمتحان الصعب .
تصمت . . لاتعطي جواباً لكنها بينها وبين نفسها تقرر أن
تفجرها زوبعة بين النساء العائشات في الظل . . في السلبية . .
في الفراغ المترف .

عندما يتصف الليل لاتعود سامية . تعرف كم من
الوجوه صافحت . . كم من الجروح ضممت . . كم
من الآهات والدموع شربت . كم من الآلام عانت .
توشك أن تسقط إعياء . . وبأساً . . وعذاباً . كم من
المسافات عليها أن تقطعها . . هائلاً لتصل إلى الموقع الذي كان
عليها أن تكون فيه . كم من الخدمات يجب أن تؤديها
لترضى عن نفسها . . لتتغافل عما مضى من انزعاليتها
وأنانيتها . . تتناول كوب حليب ساخن . . تتمدد فوق
مقعد خشبي لم توضع له حشية بعد . يدخل المشرف الكهل
الذي لاحظ همتها واندفاعها .

— سيدتي . . يوجد شخص لم يسعف بعد . . ولا يوجد
 سوى مساعد طبيب .

تب واقفة وهي تترنح : — أي خدمة . . ؟

وتقاطع المسر الطويل المعتم وريح صيفية عاصفة تنوح
خارج المستشفى مثل عویل . لاتكاد ترى إلا أشباح الموت .
تستند إلى جدار . المشرف يقول لها :

— إنه يناديك ياسيدتي . أليس اسمك سامية ؟

— يناديني ؟ من ؟

— المريض الجديد . لعله من أقربائك .

وتبرع إلى حيث المريض . كان جابر . . وكان مثل
فحمة سوداء نصف محروقة . النار أكلت أجزاء كثيرة
من صدره وأطرافه . . وجهه لا تتحرك فيه إلا شفتان
يابستان . . وبعسر .

— جابر . . ياعزيزي جابر . . ما الذي فعل بك هذا ؟
يقول الطبيب المساعد :

— عالينا أن ننظف جروحه بهذا السائل ونغذيه . .
ثم نتركه هكذا عارياً لأن الحرائق لا تضمد .

المريض يئن مثل بعير . يحاول أن يحرك عضلة أو عضواً

فيصرخ بجنون . تبدو عيناه مثل خرزتين مشبتتين في محجر يهما
والكلام يخرج منه غير مفهوم .

تقرب منه . روائح مقرفة تفوح نتناً من جراحته . تمسح
فوق الجلد المشوي الذي بدا كفروح . يهدأ قليلاً . . تكرر
عملية المسح مضاعفة من كمية الهواء المهدىء . ينظر إليها
كأنما لا يصدق . تهطل دموعه قاسية مثل حبات من نحاس .

— لا . . لا تبك يا جابر . . سوف تشفى . . وسأظل
إلى جانبك حتى تشفى .

يتنهد . مثل نار محرقة يخرج الهواء من فمه وأنفه .
تسنده سامية إلى جدار السرير . وكما تطعم أم طفليها
المدلل تناوله سوائل مغذية . . وعلى فترات طويلة تسممه
يغمغم بكلام غير مفهوم . تأمره بالصمت . تتحققه بعادة
مخدرة وتنتظر أن يهدأ النوم .

لكن جابر لا ينام . . يبدو كمن تفتح وعيه كليةً
وتتدفق سيل ذكرياته محظماً الحاجز بين الماضي والحاضر .
كلام منقطع خافت كأنه ينبع من بئر . . لكنه واضح . .

حار مثل سيخ محمي . تنصت سامية بقلبها . تود لو تسجل كل عبارة . . كل كلمة . إنها عصارة روح . . وخلاصة عمر . هلوسات مختضر توشك أن تفر من أصابعه خيوط الحياة دون أن يتحقق فيها شيئاً ما . . أن يذوق سعادة ما . . فيحاول أن يمسك بها كمن يقبض على شعاع . يبدو المريض كمن فقد الإحساس بالزمن . . كمن سقط فجأة في بحيرة نداخات فيها ذرات الماضي بالحاضر . يتحدث عن نفسه كما لو أنه طفل . . أو شاب في أول العمر . . ثم يعود ليعنف كما لو أنه يخاطب رجلاً أو كهلاً . أيها الزمن . . أيها العدو الأول للبشر . هل يمكن أن تشفع على هذا الكيان المحطم وتعطيه شعاع أمل بالمستقبل ؟ لا تجده هكذا ، لاتطفيء شعلة الآتي في وجدانه هكذا .

توشك سامية أن ترفع صوتها وهي تخاطب نفسها . . كما يفعل مريضها ثم تمسك نفسها . وتستمع . لأنه يحب الحياة يأسف عليها ويحقد على ناسها . . ولأنه لم يعرف الحب يتوهم أنه محب . . وأن عليه أن يقطف وردة الحب

الأوحد قبل أن ينزلق في وادي العدم . كانت تشعر بعد العذاب
ضميرها لأنها بطريقة ما جعلت جابر يحبها . حسناً إن أسقط
عليها هي بالذات ما به من توق للحب . . . وإذا تعذب
فمن خلال هذا العذاب عثر على ذاته واستراح . والآن . .
ها هي أمامه . . معشوقة مجسدة تكرس مافي قلبها من عطف
وحنان له . وحده . . وسواء عاش أم مات فقد تمت عملية
إنقاذ الروحي . . سيموت مستريحًا . لاقدر القدر . .
وإن عاش سيعيش بسلام . من أعمق أعماقها تتمنى له أن
يعيش . . لو تقدر أن تسكب له مع جرارات هذا الماء
وذاك الدواء من عصارة روحها . . من دقائق عمرها
لفعلت . تنام سامية ولا تنام . دقائق متقطعة تسرقها عيناهما
المتعبتان من زحام العمل المتکاثر حولها مثل طحلب بحري .
يحب عليها هواء ناعم . . لاشك أنه الفجر . قبل أي شيء
يحب أن تطمئن على جابر . . ثم تنطلق في جولتها العشوائية
بين المرضى . تهrol نحو غرفته . . تسمع وقع أقدام
خلفها . . تسرع أكثر . يد حديدية تقبض على كتفها :

— منوع يا سيدتي . بأمر من رئيس المستشفى .

— لكنه مريضي . . أريد أن أطمئن عليه .

ينكس المشرف رأسه بحزن :

— اطلبني له الرحمة .

توشك سامية أن تصرخ . ينفر الدمع من عينيها :

— لا . . لا يمكن . . تركته بعد منتصف الليل . .

وكان يتكلم معي . . ويأكل . . ويشرب .

— كانت صحوة الموت .

صحوة الموت . . صحوة الموت . . لعلها هي أيضاً
منذ مدة لا تعرفها ضمن دائرة صحوة الموت . رأسها
يدور . . العالم يدور . . صمت في داخلها يتفجر . . يرسم
خطوطاً وأشكالاً ودواير . تغيب مع تشابك الخطوط . .
مع حلقات الدواير تضيق الحلقات حتى تصبح حلقة واحدة .
وتظل هي مغروسة في نواتها مثل رأس دبوس . تحاول
الإنفلات . . تناصرها الحلقة . . تنقطع أنفاسها وتظل كأنها
معلقة في نقطة العدم .

— سيدتي . . أنت مرهقة وعليك أن تستريح .
تفيق على صوت المشرف . يبدو لها غارقاً في ضباب
رمادي .

— سأذهب إلى المدينة لبعض شؤوني . . سأحاول
أن أرسل من ينوب عنِّي وسأرجع . .

ومثل سكران رنحه السكر تقود سيارتها . المدينة
عذراء مجففة مهددة بالاغتصاب . الناس في اضطراب
وارتكاك عظيمين . تبدو لها المآذن والأبنية الشاهقة وقد ذر
فوقها غبار كلاسي ناعم . أما الشوارع فشبه خالية إلا من
سيارات عسكرية تشقها مسرعة وهي تحفر الإسفلت
بوحشية . لتدمر هذه الأنقة الساذجة للمدن المطموع فيها . .
ولتحصد ريح الحرب مظاهر الرخاء الكاذب والرفاية
المصطنعة ولتمر العاصفة مهما كانت عنيفة . المهم أن يسلم
الوطن . . تمني لو أنها طائر رخ هائل أسطوري لتفرد
جناحها فوق المدينة . . تحميها . . تذود عنها الوحش
من الكواسر .

أيا دمشق . . ياجوهرة المدن . . وناتج التاريخ .
من يستطيع أن يخترق قداستك . إن يعتدي على بهائك ؟
أموت ولا أراك تنزلين عن عرشك .

تسمطى المدينة في داخلها مثل جنية . . تصبح عينيها
اللتين بهما ترى . ولسانها . . وأذنها . . وقلبها الذي أخذ
يتزلف . يا امرأة هي جرح مدينة . . يامدينة في جرح
امرأة . ناجي . ناجي . أتراك عشقت دمشق كما أنا
عشقت ؟ أتراك تناضل من أجلها وأنت بعيد عن نبع الحياة
فيها ؟ عن ليقاع الزمن الحزين الذي أصبح صرحاً وضجيج
معدن لاتناغم فيه ولا انسجام ؟ .

في البيت لا تستطيع أن تلبث إلا ريشما ترمي ثيابها
وستبدلها بثوب حمامه أبيض . . ليتها تملك زياً عسكرياً
لارتديه . . ترجع إلى منزل جابر ، يحتاجون إليها هناك . .
المسكينة زوجته . . وأولاد كأفراخ الطير . أم هاني ليست
وحدها المفجوعة . . هناك كثيرات غيرها وكثيرون .
وكم هم جمِيماً بحاجة إلى من يواسيهما ويساعدهم .
يبرق في خاطرها الرجل المهيب . . الضابط الكبير الذي

كان صديقاً لوالدها . مثل نسر مجتمع تراه . . قادراً . .
وقوياً . . ويمكن أن يساعدها فيما تقدمه للوطن . تثبت
الفكرة في ذهنها عندما تكتشف أن أسرة جابر بحاجة إلى
كل شيء . . حتى المعونة المادية . تسحب من المأتم المخنوق
المنطفئ . . تذهب إلى مقر اللجنة الشعبية العليا . ترى
الضابط الكبير منهساً في إعداد لواحة بأسماء الشهداء
والجرحى والمصابين . تصافح فيه وجهها وطنياً أصيلاً . .
ورجولة خاصة .

— ها قد جئت إلى أخيراً ياسامية . كفت أتوقع
ذلك . . ما أخبار كريم ؟

— المهم عندي الآن هؤلاء الناس الذين يحاصرون . .
ويسقطون . . ويموتون . ماذا يمكن أن أساعد من أجلهم ؟
— يمكنك الكثير . . ولدينا من الأعمال الكثير . .

وتبدأ جولتها الأولى في أحياط دمشق العتيقة . تتغلغل
في أعصاب المدينة . . وفي العمق منها . تذهب للروح
المعنوية العالية لدى البسطاء والقراء من الناس . لكنها روح

مبعثرة .. مضيعة .. لا تجد من يلهمها ويرصها في اتجاه واحد .
أخبار الحرب تصل باستمرار مغلفة بقشرة قصدير لامعة .
وكتيرون . . ولأنهم مؤمنون بأمتهم يصدقون .
وهي . . الواقعية لكل ما حولها لا تجد مبرراً لها في أن تكشف
لهم الحقائق فالحقائق مفجعة . . وأخبار الحرب نصال
تتكسر فوق النصال . ليكن إيمانهم هذا عزاء عن الذين
يفقدونهم . . عن الذين يقدمون قرابين في سبيل هذه
الأمة . تجد نفسها في تيار التمويه . . تختفي الموجة . هل هي
تخدعهم ؟ شيء يتمزق في صدرها . لكنها امرأة . .
وعاطفتها تقف بينها وبين أن تفجع العروس الشابة . .
والآم الشكلي . . والولد اليتيم ، لترك لهم على الأقل
إيمانهم بالنصر . . وبعظمة هذه الأمة . . تتكلم . . وتتكلم . .
عن غير قناعة . . الكلمات طبول جوفاء فارغة . . وهي هي
التي دائماً كانت تعني كل كلمة ، تقرع هذه الطبول . .
بعنف . . وبلا ثمن .

في حي مجاور لحي خالتها صافية تهرع إليها امرأة . .
في حالة من القهر والذعر .

— أرجوك يا سيدة سامية أن تنقذها . . ألاست من طرف الحكومة؟ أنقذها . . ليس لي سواها . وهي مصدر رزقي .

— ومن هي التي تريدين أن أنقذها؟

— ابنتي . . فادية . . ابنتي . . تركت البيت منذ ليلتين ، قالت إنها تطوعت في الجيش الشعبي . ولا يتبادر لها على الاطلاق أن تكون ابنتها هي فادية توفيق . لماذا؟ لا تدري . . صورة فادية مؤطرة في ذهنتها باللهو والعبث واللامسؤولية .

— فادية توفيق؟ اطمئني . . سأبذل جهدي الاتصال بها . . وسأخبرك .

— بل أنا آتي إليك . . الهاتف معطل :

— إلى أين؟ لست في بيتي . سأمر عليك . اعرف البيت .

ترن في سمعها عباراتها هذه . . لست في بيتي :
صارخة عنيفة مثل صلاة حارة . بيتها أصبح هذه المدينة

الكبيرة التي تشخن بالجراح دون أن ترکع . أهلها هؤلاء الناس جمیعاً . أصبحت تأكل من خبزهم . . وتشرب معهم . . وتسريح في بيوتهم التي يتوزع عليها الفزع من الحرب .

فادية إذن قد تركت هي الأخرى بيتها . . وأمها . . وعاليها البراق الصاخب باستمرار . . ترى هل صحيح أنها تطوعت في الجيش الشعبي ؟ لم لا اندفاعية وتتفجر عاطفة . والناس من هذا النموذج هم الذين ينقلبون من الصد إلى الصد . أليست هي نفسها من هذا النموذج إلى حد كبير ؟ لكن . . . كيف تعرّى على فادية في هذا التيار الذي أصبح يحرف النساء أكثر من الرجال ؟ أي جهة تقصد لتسأل عنها . ؟ جموع المواطنات من عاملات وموظفات وربات بيوت ومتطوعات يملأن رؤوس الشوارع والساحات بعمل . . . وبدون عمل . المهم أنهن يساهمن في حملة إنقاذ الوطن . يجتمعن تبرعات . . يلتقطن أفواج التزوح . . وفي مراكز المنظمة النسائية يعمد غيرهن لخياطة الملابس وتهيئة الأدوية والضمادات ويبادرن إلى حملة

للتبرع بالدم . هذا العالم النسائي الذي برب فجأة . . كم
تشعر أنها غريبة عنه . . لم يسبق لها أن انتسبت إلى جمعية
خيرية . . ولا إلى أي جهة نسائية بتنظيم . أو بغير تنظيم .
لم تؤمن مرة بالاحسان الفردي . ولا بالعمل الخيري طبقياً
ولا أحسست أنها امرأة بمعنى الأنوثة المنعزلة عن الرجل رغم
أنها لم تعمل . لا تعرف كيف تسؤال . . ولا من . .
حماس أشبه بفوضى يعم النساء . ومظاهر شبه بورجوازية
لاتزال تطغى . فادية .. فادية .. وهذه مئات الفتيات
في مثل عمرك ينحشرون في سيارات عسكرية للدورات
حمل السلاح هل أنت بينهن ؟ لكنك لست طالبة ثانوية ..
ولا جامعية ووظيفتك ليست حكومية ففي أي إطار أنت . . ؟
وأين تعاملين ؟ ترف أمامها صورة فادية مثل زهرة برية
متفردة ووحشية . . مثل غزاله هائمه . تشعر بحب عميق
لها . . تود لو تراها .. لو تعانقها . . لو تقول لها افعلي
كل ما ترينه بعين قلبك . . فليس تخطيء القلوب .
الرجل المهيب . . الضابط الكبير يقول لها :

— سنضع اسمها في دائرة استعلامات الجيش الشعبي . .
وسيأتينا الرد . . اطمئني .

لكن الرد لا يأتي من الجيش الشعبي . . ولا من
التنظيم النسائي ولا من أي أحد تتوقع منه سامية الرد .
 جاء الرد من باسيل . . رسالة تركها لسامية لاتدرى
لماذا .

« فادية ذهبت مع الصحفيين . . ومع المصورين
المتطوعين إلى الخطوط الأمامية في الجبهة » .
ويبرز أمامها سؤال استفهام كبير : هل ذهبت مع
باسيل أم وحدها . ؟

* * *

صفحة فارغة من أصل الكتاب الورقي
(عازلة بين فصلين)
عادة من عادات بعض المطبع
لا تبدأ فصلاً جديداً إلا على رقم صفحة فردي
(أو على صفحة تتوافق وضعيتها مع غلاف الكتاب)

الفصل التاسع

الحرب . . . الحرب . . . أحرقت الحرب سفنها إلى الشاطيء الآخر . . أغرقتها في عباب بحر تغوص فيه كل ساعة . . كل لحظة . . إلى القاع . إنه اليوم الثالث للحرب و موجة الحماسة بدأت تنحسر . . فالإذاعات متناقصة . . متضاربة . الإذاعة المحلية تُمْتَطِي موجة التهويل والتطبيل . . لماذا ؟ تود لو تصم أذنيها عنها . إذاعات أخرى معادية وغير معادية تعطلي أنباء اندحار و انحسار . باللوجع في الصميم من قلبها . الناس يتلاطمون في لجع بين الشك واليقين . . بين التصديق و عدم التصديق . هل يعقل أن ننهزم ؟ نحن . . وأعدادنا الهائلة التي تفوق أعدادهم ؟ نحن أحفاد البواسل من خالد و صلاح الدين ؟ نحن الذين

مازلنا نتحفظ حوالي ربع قرن للانقضاض ؟ أين البسالة والرجلة ؟ أين الشهامة والكرامة ؟ لا . . . القصة قصة تفوق حربي وسلاح . . هل يعقل إذن أن نخدع وأن نضلل ؟ . سامية تبدأ تميل إلى الصمت بعد أن كانت تتكلم . . وتتكلم . . باطلأً أكثر منه حقاً . الجرح الذي افتح في فؤادها مع بدء الحرب أصبح أعمق . . وإحساسها بألمه بالتالي أكبر . ليت أن الناس من حولها يعملون ولا يتكلمون . تكلموا كثيراً في الماضي والآن جاء دور الفعل . إما أن يعملوا . . وإما أن يصمتوا . يثقل رأسها حتى كأنه حجر طاحون . . في دوامة العذاب الداخلي التي تسع وتسع تدخل . هذه الأخطاء التي بدت أمامها كما لو كانت مغطاة بورق هش أطارته زوبعة . كم يحتاجون من زمن لاصلاحها . . لإعادة البناء من جديد . وهي بالذات . . مادورها ؟ هل يكفي أنها تقدم خدمات في مستشفى أو مساعدة لأسر الشهداء ؟ هل يكفي أنها تبذر عواطفها . . وتدور من مكان إلى آخر تحمل القلب الجريح ، ؟ لابد أن يكون لها دورها الثابت الواضح لتعمل من خلاله . لابد أن

تعثر على وجه لها بين الوجوه . والأمد طويل . . طويل . .
والحركة لا يمكن أن تحسن بهذه السرعة والبساطة لهم . .
أو عليهم . . ليس من أجل أن تتحرر الأرض فقط بل
من أجل أن يتحرر الإنسان . الأرض هامة . . لكن الإنسان
هو الأهم .

ترى الناس يدورون في حلقات مفرغة . . يحملون
سلالاتهم ولا يقدرون أن يبعدوا عن نقاط الدوائر . لو أن
قوة عظمى تحطم هذه الدوائر . . تفك الأغلال . . تجعل
الناس ينطلقون ليرتدوا وجوههم الحقيقة . . . ليأخذوا
أدوارهم الحقيقة .

أبوها كان يقول : لو حاربنا سنتصر . لأن الحق
معنا . و كان يقول كلاماً كثيراً يقطر بالتفاؤل والثقة والأمل . .
الأولون ضللو الآخرين . . كلنا أصبحنا تائبين . . سامحونا
أيها الآباء . . اعذرونا إذا قلنا لكم إن من لا يكون مع
نفسه لا يكون معه أحد . . وأن النصر ليس كلمات معسولة
إنما إرادة حازمة .

و كريم . . أين أنت يا كريم ؟ احتياجـي إليك ليس
احتـاجـ امرأـةـ لـرـجـلـ . . زـوـجـةـ لـرـجـلـ . . إـنـهـ اـحـتـاجـ
من يـنـبـطـ فيـ الـظـلـامـ إـلـىـ ضـيـاءـ قـنـدـيلـ . .

لـكـنـ كـرـيمـ لـمـ يـأـتـ . . وـالـإـتـصـالـاتـ اـنـقـطـعـتـ . .
وـالـعـاصـمـةـ غـرـقـتـ فـيـ بـقـعـةـ مـسـيـجـةـ بـأـسـلـاكـ شـائـكـةـ غـيرـ مـنـظـورـةـ . .
يـسـكـنـهـ خـوـفـ هـوـ أـكـبـرـ مـنـ الـوـهـمـ . .

سـامـيـةـ تـفـكـرـ بـأـنـ تـسـافـرـ إـلـيـهـ . . . الفـكـرـةـ تـتـلـاشـىـ فـورـ
أـنـ تـولـدـ . . مـنـ الـذـيـ سـيـغـامـرـ بـالـخـرـوجـ مـنـ مـدـيـنـةـ يـنـحـيـمـ عـلـىـ
سـمـاـهـاـ الـحـرـبـ وـيـهـدـدـ أـرـضـهـاـ الـعـدـوـانـ ؟ـ صـحـيـحـ أـنـهـ
كـيـلـوـ مـتـرـاتـ وـأـنـهـاـ لـنـ تـبـتـعـدـ أـكـثـرـ مـنـ يـوـمـ وـلـيـلـةـ إـلـاـ أـنـ
الـمـطـارـاتـ مـغـلـقـةـ وـخـطـوـطـ الـمـوـاـصـلـاتـ الـبـرـيـةـ تـوـقـتـ . . .
وـهـيـ بـسـيـارـهـ لـيـسـ قـادـرـةـ عـلـىـ الـمـجـازـفـةـ وـحـدـهـاـ . . تـسـافـرـ
إـلـيـهـ . . لـاـتـسـافـرـ . . تـسـافـرـ . . لـاـ . . لـاـ . . فـيـ رـأـسـهـاـ تـنـمـوـ
صـفـائـحـ سـوـدـاءـ تـنـسـدـلـ تـبـاعـاـ . . . كـلـ يـوـمـ صـفـحـتـانـ . . .
كـلـ لـيـلـةـ أـكـثـرـ مـنـ صـفـحـةـ . . تـخـشـيـ أـنـ تـطـمـسـ الـحـرـبـ
ذـاـكـرـتـهاـ . . تـعـزـهـاـ الصـفـائـحـ عـنـهـ . . زـوـجـهـاـ لـاـيـزـالـ . . وـهـيـ

تحمل اسمه . . وعليهما مهما حصل أن يواجهها مصيرًا واحداً . صمته عن المجيء يعذبها . تذكر أمنية لها رسمها من أجل هذا الصيف . . . عندما ظنا أنه آخر أصياف النفي : . أن يلتقيا في بلد جميل من بلاد العالم . . روما . . أو الشواطئ الإسبانية ينهيان فتره قاسية من حياتهما ويغسلان ألم فراق سنين وتكون رحلة تبعده عن همومه . . وتخلصها من روتين حياتها اليومي الذي أصبح ضرورة باهضة الأمانة تحرق . . مثل طائرة ورقية يعبث بها أطفال يملكون أعوداد ثقاب . الأمانة تتبخر . . في سماء ساخنة تتلاشى .

تقوم إلى - نتيجة - شهر حزيران . ترى فوق الرقم ٦ دائرة حمراء . . هي اشرت على هذا الرقم . . . حددته له . . ولنفسها . الدائرة الحمراء بركرة من الدم . . . وهي تسبح فيها . تراه قبل أن تعلن الحرب سبقها إلى هناك ؟ هل هي مصادفة عجيبة أم تدبير قدر ساخر ؟ . ولنفترض ذلك . . أية مهزلة أن يبقى في انتظارها

هناك وأخبار الحرب تملأ العالم . . . ومهزلة أكبر أن تحاول اللحاق به . عندما كالمها على الهاتف آخر مرة لم يكن منه أي إشارة للسفر . تراه كان يريد أن يفاجئها ؟ يبرق لها فتطير إليه ؟ .

سامية تتعب من التفكير . لا جدوى فالحرب تنسف كل مخطط ذكي وتفوق مفاجأتها كل حساب . تشعر أنها في دائرة . . . محبوسة ضمن دوائر أخرى . . وإن عليها الآن أن تثبت ، قطب المحور . الأخبار التي غلفوها أخذت تعرى . . والناس بدأوا يسخطون وينقمون . ويستسلمون لردو فعل عكسيه . السكين وصلت إلى الرقبة .. ولم يعد هناك من إنقاذ سوى أن تتمرد الضحية . . أن تغامر بالإفلات من الجزار . . حتى لو اقتطع جزء من أجزائها . . عضو من أعضائها .

في بيتها تنبش كل الأشياء . تبحث عن شيء لا تعرف ما هو . . تتوقع أن تجده فتتعرفه . حاجيات كريم كما هي .. منذ غادرها . خزانة ملابسها . . أوراقه . . أدراجه المليئة بأشياءه الخاصة . ومحفظة من الجلد السميك لم تحاول مرة

أن تخمن ما فيها . تحمل المحفظة . . تجدها ثقيلة . . تستبد بها الرغبة في أن تعرف ما بداخلها . النور مطفأً . . والمدينة كاها تغرق في الظلام . وليس الأصوات شمعة يختضر . تمد يدها . تلممس معلوًناً أملس . تشهق . . إنه مسلس . تخرجه ذاهلة . . تتفحصه . . تقلبه . لا تدري كيف ضغط أصبعها على الزناد . . ولا كيف أطلقت النار . الرصاصة تخترق الجدار . تحدث أزيزًا مخنوًقاً ثم ترتد لتحفر البلاط . تصرخ . ترمي المسلس وتهالك إلى الأرض في شبه إغماء . الباب يطرق بيد عنيفة . هل هم الجيران أم أحد المقطوعة من الشبان الذين يحربون الشوارع ؟ تتجاهل . الطرق يزداد عنفاً . يصل إليها صوت تعرفه :

— افتحي ياسمية . . افتحي . . أنا ببسيل .
وتنهد بارتياح . تقوم متناقلة لتفتح الباب ، ببسيل
يالهث . . وكان يرتجف :

— سمعت إطلاق نار . . نعلمهم بعض الذين يثيرون
الذعر بين الناس ؟

- إبني أنا التي اطلقت النار .
- أنت ؟ سامية ؟ لا أصدق . .
- كل شيء في الحرب محتمل التصديق . قل لي ماذا تفعل ؟ وأين فادية ؟
- ألا تدعيني الجلوس أولاً ؟
- وأنا أكثر منك بحاجة لأن أرتاح . أعصابي تمزق مع هذه الطلقة غير المقصودة . عثرت على مسدس عندنا مصادفة . . وجربته .
- الله سلم . .
- ما الذي في يدك ؟
- أشياء هامة جداً . بالنسبة لي . . أرجو أن تخبيئها لي عندك . طلبوا من أسلين حربين للجريدة . . وأنا استنفرت نفسي . . وفادية تطوعت لمهمة التصوير .
- حادثي بتفصيل أكثر . . لم أنت على عجل ؟
ألم تطلب الجلوس ؟
- لم أسترح عشر دقائق منذ ثلاثة أيام بالياليها . .
وضعنا هناك حرق للأعصاب . . يطير النوم من العيون .

ومع ذلك علي أن أذهب . انتهى وقت الراحة يا سيدة سامية . .) انتهى بالنسبة لنا جميعاً .

— كنت تناديني باسمي وحده . . أليس هذا أفضل . ؟

— لهفي عليك حطم الحواجز بيننا . هذا من مزايا الحرب أيضاً . . إن كان للحرب مزايا .

— ألا تعتقد بهذه المزايا ؟ أنا أصبحت أعتقد بها .

— لا أدرى يا سيدة سامية . . أو سامية ماذا أقول .

شيء مابينت داخلي . . مثل أخطبوط عملاق أراه يلتهم كل ما حوله . لا أستطيع أن أتبينه الآن لأنه مغلف بالضباب . لكنني أحس به ينمو كلها مرت ساعة ونحن في حالة الحرب . . من كان يظن ؟ . من كان يظن . . ؟ آه . . لاشيء . . لاشيء . .

— ماذا ؟ قل لاتخف عني هذا الشيء يا بسيل . ألم تقرر أن الحرب تكسر الحواجز ؟ .

— أقول من كان يظن أنني أنا أصبح المراسل الحربي الأول ؟ وأن اسمي يصبح الأول في الجريدة ويبداً يلمع كصحفي ناجح ؟

— وفادية . . كيف ذهبت معكم ؟ وهل سمح لها بذلك أم أنت أخذتها من تلقاء نفسك ؟

— لا أدرى كيف أقنعت رئيس التحرير رغم أنها ليست صحفية . لم يكن لي علاقة . يبدو أن حماستها كانت وسيلة اقناعها . أنا نفسي اقتنعت بجدوى ذهابها وأنها قادرة على القيام بعملها . تقول إنها هاوية تصوير . . لعله صحيح .

— هذا صحيح . ولقطاتها تدل على براءة وذكاء . . ثم . . رائع أن تذهب في هذه المهمة . . . مدهش . . لكن أمها المسكينة في غاية القلق . . تكاد تموت من أجلها . . تعتبر برأها مفقودة .

— إن بقى لدى وقت سأمر بها لأطمئنها .

— حسناً . . لكن إياك أن تقول لها إن ابنتهما على خطوط النار .

— رأيي هو العكس . لتعرف هذا أفضل من أجل النتائج . وهكذا أيضاً يعرف كل الناس أنهم مدحعون

للمشاركة في دحر هذا العدوان . . . كل حسب استعداده
وامكانياته .

— أو تظن أنه من الحكمة ذلك مع أم مثل أم فادية؟

— هذه المرة لن أقول لها . لكنه يجب أن تعرف . . .

— إلى اللقاء يا باسيل . . .

— وداعاً يا سامية .

— لاتقل وداعاً . . أتشاعم من هذه الكلمة في مثل
هذه الظروف .

* * *

الليل قاس . الليل طويل . الليل أسطوري أسود يجثم
فوق المدينة . سامية لاتطبق الصمت المتفجر رعباً ودموعاً
وأنيماً . المرضى في المستشفى لاشك افتقدوها . أعصابها
متلاشية . وخر ووجهها في هذا الليل بسيارتها يحتاج إلى
ماتبقى من احتمالها . لابد أن تذهب على أي حال . تهبط
الدرج ببطء وبطارية صغيرة تنشر دائرة ضوء زرقاء باهتة .
أمام الباب الخارجي تتذكر بطاقة السماح بالتجول التي

أعطهاها إياها مدير المستشفى — مرضية متقطعة — الدفاع المدني — بينما ترجع لتأتي بها تزعق صفارات الإنذار . غارة جوية ليلية . . والمدافع المضادة المركزة في أعلى قاسيون تبدأ بمطاردة طيران العدو . يتعالى بكاء أطفال . . . وينتشر الذعر كالحريق . . تهبط الدرج بسرعة . لامخابيء مخصصة كمخابيء بل أبنية مصنوعة بتائق كما لو أنها مدينة آمنة مطمئنة باستمرار وغير مهددة بعده . القبو تسكنه امرأة بسيطة الحال شبه مشلولة . سكان الحي يقتربون بيتهما مثل زوجة . . يحطمون الأثاث البسيط ولا يراغون حرمة لأي شيء . . والمسكينة تضرب كفأ بكتف والدهشة عقدت لسانها .

— هذا حقنا . . هل يريدون أن نفقد أرواحنا ؟ .

— مضطرة لأن تفتح لنا الباب . هذا ملجاً وليس بيتاً . الغلط من الحكومة أن تسكن الناس في الملاجئ . وتردد أصوات :

— في هندسة المدينة أنها ملاجئ . . لكنها بيوت . . وبيوت الناس .

— الذوق مطلوب والمرأة فقيرة .

سامية تدخل وراءهم لا لتحمي نفسها . . بل لتجعل شيئاً من النظام يسود هذا البيت المليجاً، وتنفذ ما يمكن انقاده من أجل المرأة المريضة المسكونة . الحرب تؤلف القلوب تماماً كما تجعلها قاسية . في الحظات المحرجة لا يعود المرء يعرف ماذا يتصرف وهؤلاء أناس فقدوا اتزانهم . ماذا جرى؟ لم تقع قذيفة واحدة . . كل ما هنالك مدفعية مضادة . . ومع ذلك فأكثرهم يرتجفون . . النساء بصر اخهن واحتجاجهن يشعّلن نار الخوف .

تتدنى سامية أن تصرخ بهن . . أن تصفع العصبيات منهن على وجوههن . لماذا؟ حقنا أننا تدرّبنا طوال هذه السنين وعبانا جهودنا لمواجهة العدو . بل ربما خضنا أكثر من معركة . فلا أقل من الإحتمال . والنساء خاصة . . حقهن لو سكن القرى الأمامية المتاخمة للعدو . فحيث المرأة يكون الثبات في الملممات والمواجهة الصحيحة تعجز أكبر الغزارة . . لكن الأرضي المتاخمة للعدو شبه فارغة . . والنساء قلة . . وإن وجدن فهن جاهلات شبه أميات ونعيّب

غраб واحد كفيل بأن يجعلهن يطربن مثل عصافير الدوري .

أي ألم ينضح من قلب سامية . . الأفكار تتراحم في رأسها . كأن رأسها ينشق . لماذا لم تكن تفكر بكل هذه الأمور قبل الآن ؟ هل تستطيع أن تتخلص من هذه الأفكار بعد الآن ؟ وإذا كسبنا الحرب . . . وربما كسبناها من يدري فأيام ثلاثة ليست كافية . وبقهقهة شيطان في أعماقها : هل هذا ممكن وشعبك لا يجد من يقوده ؟ وهذه الفوضى تغرق الناس وتضر بهم فوق رؤوسهم فتجعلهم كالدائنين .

فرق المقاومة في المدينة ينصحونها ألا تبتعد عن منزلاها . . لعل هذه غارة للتمويله وبعد ذلك يقصصون . . لا لهم . . تصر على الخروج . . فالرجل المهيب هتف لها بأن جموعاً كثيرة من الناس يتزحون عن الحدود . . هذا أخطر شيء . . الهجرة من الأرض . وقال لها علينا أن نحتويهم ونهدئهم حتى نعيدهم إلى أرضهم . . لأنريد فلسطين أخرى . . ومسألة أخرى .

أمام سيل متدافق من الناس مع متاع قليل . . وذعر

كثير تقف سامية مذهولة . . لا يمكن للمرء أن يكون
محايداً . . عواطفها تتلتفق مع هؤلاء التعسّاء سواء عن جهل
نرحاً أم عن سوء تصرف . يجمعونهم في بناء من عدة
أبنية خصصت لمناسبات المعارض والمسارح . هل الفرح
سيدخل مدينتها هذا العام؟ الهواء يهب بارداً . . وضوء
القمر صاف كأنه نبع فضة . . يوزعون طعاماً وبطانيات
وحوائج ضرورية . . وتنسحب إلى بيتها مع خيوط
الفجر . . لكنها رغم إرادتها تحول طريقها إلى المستشفى .
عدد النزلاء ازداد . . تحس أنها تتنزق قطعاً قطعاً . . قطعة
في الجبهة . . ثانية مع الدين نرحاً . . ثالثة مع أسرة جابر . .
رابعة في المشفى . . والخامسة . . والستادسة . . وهكذا . .
أما الرأس فيفضل مع كريم . . وناجي . . آه ياناجي . .
لك القلب النابض هل تعود لتأخذه . . ؟

في المستشفى تفاجأ برجاء . . شاحبة صامتة مثل طفلة

منذنة :

— سامية . . .

— رجاء . . . ما الذي أتى بك إلى درب المستشفى
الصعب ؟

— أتمنيت أن التمريض كان من أهدافي ؟ ثم أنها
حالة حرب . . .

ماذا تذكر ؟ المأساة التي سجنت رجاء نفسها فيها
ومن أجلها فكرت بالتمريض ؟ إذا كانت رجاء قد خرجت
من مأساتها بهذه الأسلوب فهو أمر عظيم . ليس المهم أن
ينهزم الإنسان من الخارج أي أن تغلبه الأحداث وتقهره .
المهم ألا ينهزم من الداخل . . وال الحرب . . هل تتحقق المعجزة
لرجاء ؟ .

— حسناً . . لكنك لم تتمرنني بعد .

— رئيس المستشفى هو الذي يوجه لي ملاحظاته . .
اعتبرها دروساً . ثم أني سجلت دورة استثنائية للتمريض .
يبدو لها وجه مدير المستشفى الكهيل . . نبيلأً . . صافياً . .
صادقاً كوجهنبي . زادته الحرب نقاء وإنسانية . وهو
معروف في الأحوال الاعتيادية بأنه نذر نفسه لهنته فكيف

الآن ولا أسرة تشغله ولا أولاد؟ ينام في المستشفى . . .

هذا ماقالوه . . وفيها يأكل . . .

— إذن أنت في رعايته .

— ليس هذا وقته ياسامية لكنني أعني ما أقول .

لو أن الحرب ستخطفني بعد يوم أو ليلة وأعطتني الحياة

آمنية لكان الدكتور رأفت هو هذه الأمنية . . رغم الحرب . .

وكل شيء ياسامية شعرت إلى جانبه بالاطمئنان . ليته يشملني إلى الأبد .

تكاد الكلمات تفلت من سامية :

— وأعوامك العشرون يار جاء؟ والنار التي اشتعلت

في البيادر . وحب الدكتور سالم كل هذا هل

تطامن؟ هل هذا؟ .

— حرب أطفال حرباً . . .

— اسمعي يار جاء . . ليس هذا وقته كما قلت لكنني

أرجوك أن تكوني صادقة مع نفسك . . حان وقت الصدق

yar جاء وإذا كان علينا أن ننسى أنفسنا من أجل قضية كبرى

فعلينا أن تكون صادقين معها .

— حتى الآن . . هذا ما أعرفه عن نفسي .

تفكير سامية : فتيات كثيرات ينتقلن في المستشفى
كفراش حائر . هذا جيد . يمكن أن يساعدنها ، ويمكنها
أن تنسحب وعليها أيضاً أن تبتعد عن جو رجاء .

— لاتقولي للدكتور رأفت أني جئت . . على أي
حال سأحاول أن أعود .

تختفي سامية من المستشفى .

* * *

في البيت . . بيتها . . أو المحطة التي تفتقد القطار
تجد بطاقة من فادية . تسرع إليها في متزها . الام محطمة
جزعة . . وفادية محطمة أكثر .

— أهلاً سامية .

— لماذا عدت يا فادية ؟

— أعادوني . . مع أول سيارة عندما اشتد القصف .
ويقولون عن أنفسهم إنهم تقدميون ويؤمنون بتحرر المرأة .
مهزلة . . وأول المتحسين لرجوعي كان باسيل . . أنا
أكرهه . . ياسامية . . أكرهه .

— ألا هم خافوا عليك من الخطر ؟
— وهم ؟ ألا يتعرضون لهذا الخطر ؟ ما الفرق ؟
— أنت فتاة يافادية . . . وليس لأمك سواك .
— وهل كانوا أخذوا عنِي بياناً عائلياً ؟ ألا هم لا يعرفون
أو ضاعوا . . .

— المهم الآن أنت رجعت . . . لدينا في المدينة ألف
ألف عمل نقوم به . ما الفرق ؟ كل مانفعله هو خدمة
لبلادنا . . .

— لكنني كنت متحمسة جداً لهذا العمل . . . حتى
النشوة . وجموعة الصور التي إلتقطتها مذهلة . . تكفي
لإدانة العدو لو وزعت في كل بلاد العالم .
تقوم فادية وقد خف غضبها لتخرج مظروفاً سميكاً
مهترئاً تبعثره أمام سامية :

— انظري — تقول فادية وقد خف غضبها .

انظري كيف يعتدي الجنود الاسرائيليون على امرأة
بدوية تحمل صفيحة ماء . . وهذا كيف يسوقون الأطفال

بأعصاب البنادق . . وهذا الأسرى ومن بينهم اسرائيليون .
لايميزون جنودهم لأنهم سمعوهم يتكلمون العربية .
هم يهود شرقيون ، على أي حال . وهذه هي الفظائع التي
يرتكبونها في القرية العربية الأمامية التي أعطوها اسمًا
عبرياً . . . و . . .

لاتكاد فادية تم كلامها حتى يقرع الباب بعنف . . .
ويدخل بأسيل مثل إعصار . . .

— رجعت أم لم ترجعي يا فادية . . . هذا شأنك . . .
ولكن لماذا أخذت مجموعة الصور لماذا ؟

— تذهب سامية للمفاجأة . أما فادية فتحل بـ .
— إنها لي . . من حتمي . . أنا التقطتها .

— لكنه يجب أن أستفيد منها في عملي كمراسل . .
وكان اتفاقنا أن أسجل أنا وتصوري أنت .

— ألغينا الاتفاق . . ماذا تريده ؟

— الجريدة لن تقبل . . وأريد الصور بأي ثمن .
— لاعلاقة لي بالجريدة . . ولن أسلمها لك .

يقترب ببسيل من فادية . . مثل نمرة شرسة تتحداه
أكثر . يهجم على مظروف الصور ينزعه عنوة . . ثم
يصفعها .

— سنوزعها على وكالات الأنباء في العالم وستخدم
قضيتنا أكثر من السلاح . هل أدركت الآن لماذا أريدها ؟
فادية تسحب مكسورة . سامية وقد أخذتها المفاجأة
لاتدرى ما تفعل .

— أسأت إليها ببسيل . . ما هكذا تعامل فتاة واعية
مثل فادية .

— عنيدة . . ومستبدة برأيها . . في ظروف كهذه
لا يجوز للإنسان أن يتصرف افرادياً . المصلحة المجموع .

— يجب أن تعذر منها .

— سأفعل . . عندما أعود من مهمتي .

يضرب الباب بعنف . لا يلبث أن يعود بعد دقائق
وهو يلهمث :

— سامية . . أريد أن آخذ الأوراق التي أخفيتها
عندك .

— لابأس . . سأعود إلى بيتي حالاً .

* * *

سامية تقعن فادية بالذهب معها . في نيتها أن تلتقي
ولو سريعاً بباسيل ويصفو الجو بينهما . دقائق ويأتي ببسيل
مسرعاً . ينظر إلى فادية نظرة عتب طولية :

— أعلمريني يافادية . . كنت قاسياً معلمك .

— لولا الحرب لكان لي موقف آخر .

باسيل يأخذ الرزمة من سامية . ينشها . يخرج منها
مسلاساً . يدسه في جيده . يرمي بالأوراق إلى فادية . وينخرج
مع سامية :

— هل أوصلك إلى مكان ما ؟

— إلى وكالة الأنباء الوطنية من فضلك .

يقفز بباسيل ويغيب عنها كالبرق . في الشوارع تتجلو
وحدها . لاتدرى ما تفعل وإلى أين تتجه . لا أحد

يسألاها ما لها وما عليها . . هي تسأله نفسها . . لاتعثر على جواب . الإذاعات تثقب الآذان بالأخبار . . أخبار متناقضة . . أخبار مشوشة . . تتذكّر قولًا لهنري ميشو : (أكتب إليكم من نهاية العالم . . يجب أن تعلموا ذلك . غالباً ما ترتجف الأشجار وتسقط الأوراق . إن لها عدداً هائلاً من الأعصاب ولكن ما الفائدة ؟ ولم يعد هنالك شيء مما بينها وبين الشجرة) .)

لا . . الأغصان مرتبطة بالشجرة . تبلو وقد سقطت . . ولكن خيوطاً خفية تشدّها إليها . الناس كلهم مشدودون إلى الشجرة الأم على الرغم من كل مظاهر سقوطهم عنها . يجب أن تحدث نفسها كذلك . . أن تؤمن بذلك . . حتى لاتنهار .

الساعة الثانية عشرة ظهراً . تتسمّر في مكانها . الإذاعة تلوي في أذنها :

-- الرئيس عبد الناصر يعود إلى الحكم . رأس الشجرة لم يسقط . . . رأسها أيضاً لن يسقط . . وآه أيتها الأم هنية . . إنها نبوعتك .

تنشر ط دموعها . لمن ادخلنا الدموع ؟ لمن ادخلنا القلوب طويلاً ؟ حسناً لم انطلاقنا . . وهنا نحن نقع فريسة . .
جولة واحدة بين النازحين تمتضي ثلاث ساعات . .
أو أكثر . . لا تدري أنها الساعة الرابعة بعد الظهر : -
- الإتحاد السوفيتي يقطع علاقاته الدبلوماسية مع إسرائيل . . ويحملها كافة المسؤوليات تجاه خرقها الفاضح
لمقررات مجلس الأمن - هذا ما ترددت الإذاعة .
ودول كثيرة تحذو حذو الإتحاد السوفيتي .
هذا ما تقوله إذاعات أخرى .

الساعة الرابعة والنصف : جميع المآذن تنطلق بصوت واحد . . بابتهاج واحد . . يدعون إلى الله أن يرفع البلاء
عن البلاد والعباد . . أجراس كنائس تقرع .
دمشق . . دمشق . . تشعر سامية أنها دمشق . . يادمشقي
الحبية . . ياتراب أمي وأبي . . يامهد طفولتي ومرتع
صبابي . . يهددونك أيتها الغالية . يترصدون أسوارك . .
يحاولون الإنقضاض عليك . . وأن يعفروا جيئنك الناصع

النيل بالتراب . دمشق . . . وشوارعك الحالية المغسولة
تحت شمس حزيران وذلك المدوء القسري يعصف بكل
بيت فيك . يمطر صوت فيروز :

شَآمَ مَا الْمَجْدُ؟ . . أَنْتَ الْمَجْدُ لَمْ يَغْبُ . . .
وَتَمْطِرُ دَمَوْعَهَا أَيْضًا .

تعود سامية إلى مقرها . دون أن تتحقق في يومها أي
شيء . . لم تأكل . . لم تشرب . . متعبة حتى العظم . .
محطمة حتى العظم . مثل جندي مهزوم تعود . . عنده الباب
تجده فادية مثل قطة ضالة :
— لم أنت هنا ؟

— كنت سأذهب لو لم تعودي .
وتعانقان . كما لو أنهما منذ سنة لم تلتقيا . أية
عواطف تتلاطف . . هكذا بلا سبب . . فادية تبكي . . سامية
التي أمسكت دمعها منذ لحظات تنهل :

— مابك يا فادية . . هل أنت قلقة على أمك ؟
— أمي بخير . . هي مع جاراتنا . . عدد كبير من

النساء . لكن الرجوع إليهن يضجرني . كل واحدة بصوت ..
وبرأي .. جوقة نشاز .. لا أستطيع أن أندمج فيها .
— عودي إذن . ادخلني .

ومثل نخلتين مقطوعتين على ساحل مرمي تتهااكان :
— والعمل يسامية ؟

— لاعمل .. سوى ما يملئه علينا ضميرنا وواجبنا .
— أريد أن التحق برجاء في المستشفى .

— ومن قال لك إنها هناك ؟

— أنت نفسك .. أنسنت ؟

— آه .. ذهني مشوش .. حسناً .. صباح الغد
سيكون لك ذلك .

فادية وجعلتها مليئة بأوراق ببسيل تنفرد بنفسها على
ضوء شمعة . سامية تتمدد فوق سريرها تحس أنها تتأرجح
حول الناس .. تتعلق بخيوطهم لتنقذ نفسها . في بئر عميقه
هي . الجدران تتعالى ، مياه ثقيلة تغمر جسدها . تصل إلى
عنقها . تكاد تختنقها . يموت منها الصوت . تموت الحركة .

أنا العمق فيك ياناجي. أنا الصدى المحبوس الذي لم ينطلق بعد . تسترد حبها في صدره . تغيب فيه . ما أغرب ألا يحييها بكلمة . . لا يقبلها . . أن يظل جامداً كتمثال . كريم يمد إليها بحبل . تحاول أن تتعلق به . وجهه بلا ملامح ولا تعbir . يحرجها بصمت . جسدها موشوم وجبهتها جريحة . يلعق جرحها بشفتيه . يمسح فوق وشمها :
— الدين وشموك ماتوا ياسامية . . وأنا الذي سأداوي لك الجراح .

— ابعد عني . . أيها الزئبق الذي لا يمترج بشيء .
كن عاصفة . . تياراً . . دوامة . أي شيء. دمرني . .
حطمني . . اقتلعني من ذاتي لو قدرت. أفعل أي شيء .
— أنت جزء مني . . بي امترجت. مني شربت حتى
ارتويت . . وهاهي أفكاري تمطر فيك .
من أين يأتي صوته . تتملس أسوار العذاب من صدرها .
تحسس وجوده المتغلغل فيها . الطفل الموعود في قلبها
جف كدالية محترقة . . . والماضي يوغل في البعد .
أما الغد . . فهو مرهون بهذه الحرب .

سامية وهي تخرج من ذاتها تذعر إذ ترى فادية فوق
رأسها :

— ماذا يافادية ؟

— أوراق باسيل .. انظرني فيها .. اقرئي شيئاً منها.

— أنت قرأتها .. ماذا فيها ؟

— باسيل ياسيدتي سيصبح صحافياً أول في هذا البلد ..
بل كاتباً صحافياً ممتازاً . ملاحظاته هذه التي سجلها على
نفسه قبل أن تندحر الحرب . ثم تحليله لواقع المجتمع السوري
وآفاقه .. وهذا النقد اللاذع للحياة من حوله .. كل هذا
 رائع .. ويهبه لكي يخاطف الناس الصحيفة التي فيها
يكتب .

— لكنه كان يعتبر نفسه فاشلاً يافادية .. أقصد أنه لم
يستطيع أن يحقق أي شيء .

— ليته كان ينشر هذه الصفحات الصادقة التي تنبض
 بالحياة ، كان ينشر كلاماً سخيفاً مزوراً لا يدخل إلى فكر
 أحد .. ولا إلى قلب أحد .

— وهل تظنين أنه سينشرها بعد أن وقعت الحرب
وحلت المتغيرات الجديدة ؟ .

— وبعد أن أصبح مراسلاً حربياً . أليس كذلك ؟
ليته يكتب ما شاهده هناك وما عاناه بالأسلوب نفسه . .
إذن لوصل إلى قمة الشهرة .

فادية تفتح ذهنها على حقيقة يخفق لها قلبها . هي تعرف
بأسيل أكثر مما تعرفه سامية بكثير . ستذكر كل ما رواه
لها عن حياته ومعاناته من أجل أن يصبح صحفياً حقيقياً .
ترى هل سيكون نصره كأنسان من حيث هزيمته كمواطن
في هذا البلد ؟ هل ستتصهر التجربة لكي يغدو معلناً
خالصاً . كم تتمى لباسيل ذلك .

فادية تقول بنبرة حادة :

— لو أصبح صحفياً مشهوراً لتروجته . ما رأيك
يا سامية . ونحوب العالم دون أن نملك سوى ملابسنا وأوراقنا
وجمبة أفكار وطموحات

— كنت تقولين ذلك تكريهينه . ماذا أسمع ؟

فادية تنفجر بضحك هستيري لا تلبث سامية أن تشاركها

فيه :

• • •

غفوة الصباح التي تظلل بيت سامية الصغير تتمزق
مثلاً غلابة رقيقة . سمير الذي يطرق الباب يقف بكبرياء
وسامية تفيف مذعورة كما لو أنها في كابوس .

— فادية . .

— سلاح . . أنا جاهزة .

فادية تقفز مثل لبواه صغيرة تفتح الباب .. تفاجأ بسمير .

— أهذا أنت ؟

— وليس مستغرباً أن أكون هنا . أما أنت كيف
جئت من منطقتك ؟

— لاشيء في منطقتنا . هدوء تام والمصايف تؤوي
عشرات المواطنين .

— تقصد الماربين من وجه الحرب . لافرق . ماذا
رأيت في الطريق ؟

— لا أكثر من سيارات عسكرية من اتجاه الحدود مع العدو. في سهل الزبداني حصلت معركة جوية وأسقطنا طائرات . رأيت بقايا حطامها المحترقة .

— أسقطنا طائرات . . إسقاط طائرات . . تقول إنك رأيتها محطمة .

— نعم يافادية . . لم السؤال ؟ لم الشك . . ؟
نفتح فادية الصحف . . صحف الأمس . قبل الأمس . بالخطوط العريضة يعلون عن إسقاط الطائرات . كأن الطائرات تحمي أراضينا . . كأن الطائرات تسترد شبراً من أرض . . الشك ينمو في داخلها كشجرة العذاب . . تبتلع كلامها الكثير مثل ثمرة زقوم .

— لم أتوقع أن أراك هنا . . كنت سأتصل بك عن طريق سامية .

— أين هي ؟

سامية مرتبية على الأريكة . لا تجد مفرأً من الإذعان لهذا الواقع الصعب . المياه أيضاً مقطوعة . . تأخذ زجاجة

من الثلاجة تمسك بها على يديها وتمسح بقطراتها وجهها مثل
بلدوية في صحراء . ثم تنضم إليهما .

— قل لي يا سمير . . بماذا ستمساعد . اقترح أن تجعل
الفندق مركز تبرعات أو تسجيل لأسماء المتطوعين للدفاع
المدني . ربما امتدت الحرب . . الأنبياء تقول إنهم وصلوا
إلى منطقة الجولان . . ربما احتلوا قسماً من الأراضي
المجاورة لمنطقةكم .

سمير لا يجيب . يضع كفه على خدّه وينظر إليها بعمق :

— لم لا ترد يا سمير ؟ فكلنا هنا في حالة استنفار .

صحيح أن أحداً لا يدعونا لكننا نشعر بمسؤوليتنا .

فجأة تذكّر شيئاً ما . تميل إلى سمير وتهسّس :

— وماذا عن الأسلحة المخبأة عنديك . ألا يمكن

الإفادة منها ؟

يأخذ سمير وضعاً جدياً للغاية :

— الأسلحة يا سيدتي كانت قد رصدت لمهمة أخرى

أعتقد أنه لا يمكن التفكير في مثل هذا الأمر الآن . . على أي
حال عادوا وأخذوها .

سامية تصاب بدواير . . دوامة مخيفة تسحبها إلى دواير
من نار ودخان ورعود . إذن لقد كان كريم معهم . .
وكان يدبر شيئاً ضد البلاد وهؤلاء المرتزقة من السمسارة
والخونة كانوا شركاء . . أواه يا كريم . . لم
تفجعني هكذا وفي مثل هذه الظروف ؟ . .
لم تحطم صورتك إلى هذه الدرجة في رأسي ؟ ليتكم
تحطم هذا الرأس برصاصه فأستريح . دوامة العذاب
تنقلها إلى حيث يجب أن يكون كريم . في الصف الأول
من المواجهة . مع إخوانه ورفاق دربه يناضل ضد العدو
المشترك . تجد مكانه فارغاً وعليه قرار اتهام .
— لم تجبني ياسمير . . متى سترجع إلى منطقتكم وماذا
ستفعل ؟

باللحديـة نـفـسـهـاـيـقـولـ سـمـيرـ وـهـوـ يـبـرـزـ أـوـرـاـقـاـ وـجـوـازـ سـفـرـ :
— أنا . . أنا مسافر ياسيدة سامية . قررت هذا منذ
زمن . والآن حان وقت التنفيذ . كنت أريد أن تصاحبني
فتـسـافـرـ فـادـيـةـ معـيـ إـلـىـ أـمـرـيـكـاـ الجنـوـبـيـةـ .ـ نـتـزـوـجـ ..ـ وـنـجـنـيـ
أـمـوـالـاـ طـائـلـةـ .ـ إـنـ لـنـاـ هـنـاكـ أـعـمـالـاـ .ـ وـلـسـنـاـ أـوـلـ منـ يـغـرـبـ .

بتهكم لاذع وبمرارة تجib سامية :

— وتر كان الوطن هكذا وهو بأمس الحاجة إليكما ؟

حسناً . أليست لك أحلام أخرى ؟

— افهميني جيداً يا سيدة سامية . أنا لم أقرر ذلك

الآن . انظري إلى جوازي . . لا يزيد أو ينقص شخص أو اثنان . . ومصير بلاد لا يتوقف على فرد .

— الفرد هو جزء من المجموع يا سيد سمير . .

وأنا أستغرب هذا المنطق الآن .

— لكنها قضية مصيرية بالنسبة لي . مستقبلي متوقف

عليها .

— ومستقبل بلادك ؟ ألا يهمك ؟ على أي حال أنا

أعطي رأيي لأكثر ولا أقل . . وفادية أمامك تستطيع أن تتفاهم معها .

قبل أن تنهض تلمع جواز سفر لبنانياً . . هذا ما أفاده

من اتصاله بأولئك الناس .

اللقاء بين فادية وسمير ينتهي بسرعة . سمير ينسحب

بذل وصمت وفادية تضحك مثل مجنونة . سامية تذهل :

— ماذا جرى يafaديه ؟ لم لم تذهب معه ؟

— لم أوفق على الفكرة من أساسها . سمعت حوار كما وأنا في المطبخ . شيء ما كالرصاص يثبت أقدامي هنا . . في أرضي . . لا . . لا يمكن أن أوفق .

— وسمير . . وحبك المهووس له ؟ وكل ما فعلته من أجله ؟

— كله كان زبدأً ياسامية . . تكسر على هذا الصخرة العاتية التي هي الحرب . لم أكن أعرف نفسي جيداً . . ولم أكن أرى سميرأً جيداً . أنا لا أحب سمير . . وسمير لا يصلح لي . . إنسان أناني ومحظوظ الأفق لا يفكر إلا بنفسه ومصلحته الذاتية . وأنا . . أنا أتفجر الآن حباً لكل الناس . . وعطاء لكل الناس . . لا . . لا يمكن .

— ألم تقولي منذ قليل أنك لو تزوجت بأسيل لتنقلت معه كل ارجاء العالم ؟

— صحيح . . أنا قلت هذا . . نجوب العالم من أجل قضية هي قضيتنا . . من خلال مهنة هي الصحافة . نرى

يعيوننا نحن . . ونكتب بأقلامنا نحن . . ونتحدث باللسانتنا
نحن. أما أن أرمي نفسي هكذا في المغرب مثل بضاعة
لاتجده سوقها في بلادها فلن أفعل. ثم أني استغرب لم قلت
إنني أحب سمير . أنا لم أحبه قط . . كانت فورة شباب
لا أكثر .

تنتهك سامية بعمق . تشعر ارتياحاً يشبه رذاذاً منعشًا
يرطب جسدها الظاميء وروحها العطشى . . فادية إذن
ترفض سمير . تشعر أنها كبرت . وترفض أن تبتعد عن
شواعئها لتبحر معه في المجهول . فماذا عنها هي سامية ؟
هل تسمح لنفسها بأن تفكك بالابتعاد عن بلدها ؟ هل تغامر
ولو بالفكرة والحس والشعور مع ناجي في جزر الغربة
المنفية ؟

تنتشل سامية نفسها من درامة تفكيرها الذي تشدها
إلى القاع . .
ترى فادية في البيت .. وتخرج إلى الشارع دون هدف .

الفصل العاشر

الساعة التاسعة . . اليوم التاسع من حزيران .
سامية في دوامة العذاب . تفتح صندوق بريدها .
وسائل مكذبة فيه من قبل الحرب . . من صلاح . . وفائز . .
ومن صديقات . . وبطاقات دعوات . . ودعایات سياحية
وتحمیلية . . منذ أسبوع . . أسبوع فقط ، كانت الحياة
تجري في تيارها دون أن يتوقع أحد ماذا سيحدث . . لعل
المهتمين بالسياسة كانوا يتوقعون . . وكریم بينهم . .
أما هي . . وهؤلاء الناس جمیعاً الذين أسلموا زمامهم
لغيرهم فلم يكونوا لیعلموا . . ولم يكونوا لیهتموا بأکثر
من نهر الحياة أمامهم . . بهمومهم الخاصة . . بمحاباتهم
ومعاشهم اليومي . . صلاح يدعوها لأن تأتي إلى الكويت . .

فائز إلى حلب . . ربما يناديها الآن . . يصرخان بها . . وكل منها يشعر بأنه عقد صفقة راجحة في أنه ابتعد .
 ليقدوا صفاتهم مع الملائكة أو الشياطين . لن تهم بعد الآن . . ان يتحرك فيها وتر واحد يشدها إلى عالم غير هذا العالم . وهذه الرسائل من الصديقات كلها تلح على موقف واحد للمرأة في الحياة وهو أن تكون امرأة وكفى . .
 أما هي . . فأنوثتها لم تعد همها الأكبر . . ولا متطلبات هذه الأنوثة هي ما يشغلها . . تسكن في كوخ . . في معسكر . . في مستشفى . . لا يهم . ترتدي لباساً عسكرياً أو ثوباً جافاً وتكون بلا زينة على الاطلاق لا يهم أيضاً .
 المهم أن تعثر على نفسها التي خاعت منها طوال هذه ^{السنين} .

تنتهي من الرسائل ما عدا واحدة . . معنونة بلغة أجنبية . ترقد في يدها دون أن تنتبه لها .. عندما تتبين العنوان تحس أنها جمرة تحرق أناملها . إنها من ناجي . . قلبها يضرب بعنف . . أصوات طبول في غابة بدائية . ينابيع تتدفق . . وخضراء داكنة . . ونداءات مجهولة . . ناجي

يكتب لها ؟ لماذا ؟ وفي هذه الظروف بالذات ؟ هل الرسالة
من بريد ما قبل الحرب ؟ تمعن النظر في التاريخ . . صادرة
من دولة قريبة يوم الخامس من حزيران . وعلى الرغم من
تعطل المصالح العامة تصل . كيأنها يرتعش . . تهزه مشاعر
غريبة . تحمل الرسالة مثل عصافور تخشى عليه أن يطير . .
تقفل على نفسها باب بيتها . من سيقتحم عليها عالها ؟
من سيغتصب منها الرسالة الموعودة ؟ أعوام طويلة عاشت
فيها على هذا الحلم . . أن تتلقى أي شيء مباشرة من ناجي .
وها هو يكتب إليها . . جهاراً . . صراحة . . باسمها . .
ولعنوانها . . أصوات الطبول تخفت . . الأشجار تتقصصف . .
تسمع النداء مخنوقاً : سامية . . سامية . . آتيك ياناجي . .
آتيك على أجنهة الريح . . ومع الضباب والمطر . . آتيك
رغم أغلالي وأصفادي . . ورغم كريم . . ورغم . .
الحرب . الحرب . ويتلاشى النداء في خلقها . يغيب .
لا . . لا أقدر أن أخترق الحرب ياناجي . تعال أنت . .
 تعال .

سامية تخاف أن تقرأ الرسالة . لعل فيها الفجيعة والموت
أو الأمل المجنح بالحياة . كانت تعيش على الحلم . . .
الحرب اغتالت كل الأحلام فلم لا تبقي لنفسها واحداً منها ؟
لم لا تزق الرسالة وتستريح ؟

لكن الرسالة حقيقة نابضة ومن يستطيع أن يتغافل
الحقيقة وهي بين يديه ؟ في الرسالة لاشك تحديد لوقف . . .
لو تجاهلتة وكانت النعامة تطمر رأسها من الصياد في رمل
الصحراء . وهي تحسب أنه لا يراها . تفتح الرسالة . وتقرا :
عزيزتي سامية .

سنوات طويلة وأنا لا أجرؤ على الكتابة إليك . لماذا
أكتب ؟ . ماذا أكتب ؟ أنا الذي جعلت الحروف نسيج
عمرى . . سداه وحتمته . . أنا الذي فجرت الكلمة ناراً
وباروناً وصواعق وأمنت بها محرضة للأفراد والشعوب . .
دافعة نحو واقع أفضل . . نحو عالم أفضل . لماذا أكتب
إليك وما بيننا لا يعلو حلماً هو حقيقة وحقيقة مرت كحلم ؟
حلم يتعذر على الخلاص منه . . شفاف ورقيق كمساميم
الجنة حيناً و كابوسي رهيب أحياناً أخرى . أفيق معه إلى

نفسي وأتساءل : هل صحيح أني عرفتك .. وأني أحببتك ..
وأنك أقربت لتبتعدني .. وابتعدت لتقترب بي ؟ أما الحقيقة ..
فتلك الساطعة الناصعة كضوء نهار صيفي وهي أنتا .. كنا
قد التقينا .. أنا وأنت و كريم و ثلاثتنا نؤمن بهدف واحد ..
ونعيش باحساس واحد .. لكن سبلنا تختلف .. أنا الفكر ..
وأنت القلب و كريم العقل .. هل أشرح لك ؟ لا يحتاج
الأمر إلى ذلك .. أنا و كريم كل منا يتسم الآخر .. لو
اجتمعنا من دونك .. لكنك بيننا .. و مركز الأرض بين
شطريها .. كل منا لابد أن يتوقف إيميك .. أن يلهث حتى
يقبض على الجوهر المتألق فيك .. و مأساتنا أنتا أحببناك معاً ..
أنا وهو .. بآن معاً و كان عاليك أنت أنت تقرري .. وأن
تختارني ..

وانتظرت ذلك القرار .. زماناً لا أحدده بستين ..
لأنه زمني الذي في أعماق نفسي .. دون جدوى انتظرت ..
لم تكوني قادرة على صنع هذا القرار ولا الآن أيضاً تقدرين ..
أنت نموذج معين من البشر .. والبشر لا يستطيعون أن
يتجاوزوا نماذجهم إلا إذا توفرت لهم شروط أخرى ..

وما اظنها توفرت لك هذه الشروط وخاصة ان كريمه غاب عنك . إنها واحدة من افكارك . ما اكثراها . . . وما اكثرا وثوقي بها . هل احدثك عنها ؟ كلها ؟ او بعضها ؟ ما كنت لأفعل . . حتى كانت الحرب . قلت اكشف لك . . أحدثك . . لا لستعيد شيئاً مضى . . فالماضي لا يستعاد ولا لنبني شيئاً للمستقبل فمستقبل قد وضحت خطوطه بشكلها النهائي . بل من اجل ألا أثر كلك معلقة بين أرض الواقع وسماء الحلم . . أعرف أنك كذلك ولو لم تكتبي لي . . ومعرفتنا الشيء ليست بالضرورة لوضوحه امامنا .

نقطة واضحة او وضحة لك ياسيدتي . . هي المحور . . وهي الأساس لما كان بيننا وما سيكون . . آمنت بأن الثورة الفكرية تسبق الثورة الفعلية . . أو فعل الثورة . . او تحقيق مضمونها الاجتماعي والسياسي . هذا ما اختلفت به حتى الصديقين مع كريمه . . عندما التقينا . . وأنت بيننا . أخذ يدعونني بالملتفت كما لو أنه يتهمني . . وكان يقول إن التاريخ لا يكرر نفسه . . فلو أن ثورات كثيرة في العالم

مهندٍ لها الثورات الفكرية فهناك على النقيض أخرى
قامت وتلتها الثورة الفكرية . دليله على ذلك الثورة العربية
نفسها التي لبست لباس الإسلام وحاربت بسيفه
لأنها في الحقيقة ثورة العرب . . . محمد عربي . . .
وقرآنٍ ولسانه عربٌ . هذه الثورة الفعلية انتجت
فيما بعد علمًا وفكراً وأدبًا وفنًا . . او باختصار . . حضارة .
أما من أين تستمد الثورة نفسها خلطًا لها واضحة
وأكيدة وطرقًا تسير عليها إن لم يكن من معين الفكر ؟
هنا خلافنا كان حاداً . . ولم يكن من حقي أن أدين كريماً . .
ولا أن اتبع فيما بعد خط فشله أو نجاحه لكنني وثقت أنه
لابد في مثل هذه الأحوال من أخطاء . وتناقضات .
وانقسامات . وربما خيانة وعنف دموي .

وهكذا اخترت طريقي ياسيدتي . . عشت أكتب . .
أحاضر . . أؤلف . أضع كل يوم لبنة في هذا البناء الفكري
النظري الذي أريده أن يكون شامخاً وقوياً ولا ثغرة فيه .
وأنا واثق أنك قرأت لي . . وأنا أرسلت لك عدداً من

كتبي وتمنيت لو تلقيت منك نقداً أو تعليقاً عليها . لكن الشجرة الغريبة مهما نمت فروعاً وأغصاناً فهي تحن إلى تربتها الأصلية ولا تستطيع أن تجعل جذورها متينة إلا فيها . وأنا كنت تلك الشجرة . . ولأن أفيائي تمتد و تستطيل . . ولأن رجوعي في حكم المستحيل . فقد كان علي أن أقاوم الرياح . . ونحر الديدان . . وفقر الغذاء والضياء . . من أجل أن أستمر . . من أجل أن أعطي ثماري . . التي هي سر وجودي . .

أكتب إليك كل هذا أيتها العزيزة . لا لأبرر . . ولا لأدخل من الباب الضيق أو من ثقب الأبرة . إنما أكتب لأنك يحب أن أكتب إليك . . هل أحدثك عن التطورات الأخيرة في حياتي ؟ لابد أن أكشف لك أولاً عن الجرح الذي أصابني منذ كنت في بلادي . جرح رجولي . كنت صغيراً يوم جلاء المستعمرین عام ١٩٤٥ - وشهدت معركة - البرلمان - . . في الحديقة الخلفية كنت أدرس . . وساقوني رغم صغرني مع المشبوهين والمتهمين . . ونزلت

من التعذيب ما لا يحتمل .. وخرجت من محنتي وقد فُقدت رجولتي .. أو قدرتني على الإنحصار . هذا مقاله لي الأطباء فيما بعد مرحلة شبابي الأول . وزرعت من رأسي فكرة ازواج . . فأي امرأة يمكن أن ترضي سلفاً بعقمي . . وأن تعيش شجرة بلا ثمر ؟ هل كان هذا دافعاً كبيراً لي لأن أهتم بدراستي أكثر ؟ تجربتي المرة تلك مع مرتبة الاستعمار وعملاً ثه صهرتني . . حفرت في أعماقي مامعنى أن يكون للإنسان وطن وقضية . . والوطن في القلب . . وان ابتعد المرأة عنه والتضييه في الرأس يشنها ويدركها ويحملها مع مراحل العمر .

ودربي كانت طويلاً . . وصعبة . . ولن أحدثك عنها بالتفصيل . تلزمني مجلدات لاصفحات . وإنها نقطة ضوء . . تهم نجحين عاشا في سماء واحدة دون أن يلتفت إلي . عن المرأة أعرف أنني لم أعيش راهباً بوذياً في معبد الكتب والهكير . . كانت لي علاقاتي . . وصداقاتي . . فأنا في عالم المرأة فيه هي الوجه الآخر لعملة الحياة . لكنني لم أتزوج .

لا لأنني كنت قد شعرت أنني أخونك .. أو أخون نفسي فيك .. ولا لأن لدي نقطة أمل تقربك مني بل لأن الزواج في نظري ارتباط حقيقي .. أبدى يحمل طابع الإنسانية في لقاء شخصين لقاء كاملاً في طريق لارجعة فيه .

أقول إني لم أنزوج .. حتى كان أن أرسلني الجامعة التي كنت أستاذًا فيها لكي أحاضر في جامعات من دول آسيا . كان التصاعد المأسوي الفاجع لحرب فيتنام .. وكان مقرراً لي أن ألقى محاضرة أو اثنتين في أحد الأقاليم هناك التي ذاقت مرارة الحرب .. ووجدتني ياسامية مندفعاً لأن أحاضر .. وأحاضر .. رغم الظروف القاسية .. وأن أتحدث عن دفاع الإنسان عن قيم الإنسانية من خلال حقوقه فيها .. وعن آنيار المفاهيم القانونية تحت منطق القصف والتدمير والعدوان .. وعن القانون الدولي وعن حق الشعوب في أراضيها .. وحق الأفراد على شعوبها .. وعن .. وعن ..

والمحاضرة التي أثارت اهتمام الناس هي - العدالة

وإنسان العصر — ولن أدخل في التفاصيل . المهم أنني
وجدتني مشدوداً إلى هذه الأرض المحراثة بنار الحرب . . .
إلى تلك الوجوه الصامدة الصلدة التي أفقدتها المأساة تعبرها
الإنساني . . إلى الناس الفقراء الذين يشقون الأرض الشحبيحة
من أجل لقمة الخبز . أحببت ذلك العالم ياسامية رغم جفافه
ويباسه . وتجسم حبي في فتاة فيتنامية ماتت أسرتها كلها
في الحرب . . وناضلت في الأدغال وشاركت في تعليم
أبناء قومها في المخابيء السرية تحت نيران القصف الوحشي .
أقول لك إني أحببتها حباً من نوع خاص . . حب عميق
 جداً . . إنساني جداً . وأحسست أن لقائنا الفكري كان
متاماً . . إنها تستطيع أن تكون لي زوجة . . وسكرتيرة . .
ومستشارة ورفيقه درب نحو آفاق الإنسانية الواسعة التي
أصبحت آفاقي . . وتزوجنا . . وكان زواجنا شهادة
اثبات . . صكًّا استثنائياً ، ولم يعد لي بيت لا في فرنسا . .
ولا في غير فرنسا . . بيتي هو العالم الكبير الضخم . .
العالم المر الأسود رئاسته . . عالم الفقر والجوع وكوارث

الاستغلال أى الذي يسمونه العالم الثالث . أقيم في كوخ ..
في ملجة .. في جامعة .. في مستشفى لافرق . أحاضر .
أناقش .. أكتب .. وفي كل ذلك أغزل بمغزل العالمية
الهائل .. أدور في قطبيها وحولها وفي الدوائر المتسعة منها
مهما بعده المسافات . اعذرني ياسامية .. أنا أصبحت
أمياً .. عالياً .. وأنا مع ذلك أظل عريباً . هموم أمي
هي جزء من هموم هذا العالم الضخم الواقع في أنياب
الرأسمالية والامبرالية . وبالتالي فما يهمنا نحن غير النضال
ضد الصهيونية .. أنا مع أمي ياسامية . لا أبتعد عنها
إلا لاقرب ولا تبتعد عن مدارائي وتشع إلا لتضيق حوالها
وتلتقي فيها .

لأشك أني أطلت عليك من حيث أشعر أني اختصرت .
الحرب عندكم .. أقصد في بلادي تدعوني لأن أحرك
نحوكم . أرسلت إلى الجامعة في العاصمة وإلى الجهات
القيادية المعنية أن تقبلني محاضراً .. فهل سيكون لي شرف
القيام بواجبي ومن حيث شعوري به كواجب علي وضمن
حدود امكانياتي ؟

اكتبي لي ياسامية . . هذا عنواني : إنني لمدة شهر
في الخزر الخزينة . . جزر القمر . إنها قنابل من أجل
الاستقلال .

سأبعث لك بذكرائي عن جولاتي في أفريقيا التي تدفع
خضريبة الدم مع نزف العرق والجهد . والتي تحمله وهي في
أوطانها بسياط العرق الأبيض .

لأ تحبّي ياسامية . . وحتى نلتقي . .
وأمل أن نلتقي .

ناجي

* * *

اليوم التاسع أيضاً . . الساعة التاسعة وتسع وأربعون
دقيقة . . وربما تسع وخمسون ثانية . . سامية لاتدرى . .
ماتدرى أنها كانت تستمع إلى الأنبياء ومثل رنين أجراس
جلجل النبأ . . سقطت مدينة الحدود في يد العدو . .
سقطت . . لم تسقط . . سقطت . . سقطت . . وتنفتح
الهوة . . وتسقط سامية . . الدوامة أتسعت . . الدوامة

تنين هائل . . . ندوامة تسحبها . إلى دوائر دموية تسحبها . . .
الدوائر تكبر . . وتكبر . . تصبح ملء الأرض . . من على
السماء . . تبتلع الأفق والشمس التي تشرق ثانية . . تشتبك
عند نهايات الأشياء . تحاول أن تخرج من الدوائر . . تعجز .
شبكة هائلة تلتف حولها . . من آفاق . . وحيتان . .
وخفافيش . . وكلاب بحر . . وذئاب . . تتصارع فيما
بينها . . تمر رؤوساً شيطانية . . تكشر عن أنياب بألوان
الأزرق والأبيض والأسود . تقترب منها . . تنغرس فيها .
لا أحد . أشباح تهوم من بعيد . أبوها في ضباب رمادي
لا يقترب منها . . أمها في تابوت مسمرة مثل دمية من شمع ..
كريم يركض من أمامها وقد أدار ظهره . . اخوتها
مربوطون إلى كراس معدنية ذات لون أصفر والقطن في
أذانهم . ليس سوى أخيها الذي مات . .

وجهه قريب جداً من وجهها . . يكاد يلتصق به . .
وجه شاحب صامت ودموع بيضاء تنحدر من محجريه . .
 أخي . . أخي . . انقذني يا أخي . . صوتها مذبوح . .
شفاهها مقطوعة والنداء غائص في أعماقها . تسمع أصواتاً

كثيرة : دوي رياح . . ضحكات . . وصفير قطار مسافر . .
وأذين خلجان في ليلة شتوية . . وبكاء أطفال . . الأصوات
تغدو شللاً هادراً . . يقترب منها . . يغمرها . . يدخل
من أذنيها وفمها وأصابع قدميها ويديها .

وتضيع . .

سامية تضيع . . تعرف أنها كانت في أعلى السلم أمام
بيتها تنوي الخروج بعد أن مزقت رسالة ناجي . . لما . .
سمعت النبأ الفاجع . . نبأ السقوط . . أما كيف انهارت من
أعلى السلم . . كيف نقلت إلى المستشفى . . ومن الذين
اهتمنوا بها . . فهذا ما تحاول أن تعاشر عليه دون جدوى .

في السرير ترقد سامية . . غارقة في الصمت . .
مقطوعة عن عالم الآخرين حولها . . مريضة وغير مريضة . .
صحيحة ومحطمة بآن معاً . . ليس فيها سوى بعض الرضوض
وجرح في الرأس لكن الأطباء قرروا أن حالتها خطيرة .
الصدمة أثرت في الدماغ . . وحالتها النفسية صعبة . . ذهول
وغياب للذاكرة بينما الحواس متيقظة .

سامية تعيش عالماً انفصاماً عجيباً . لحظات هي سامية الشامي بكل ماضيها وحاضرها وارتباطها بالناس . . . تذكر كريم . . وتتوقع مجده . وفترات هي الأطول امرأة أخرى . . لاتمت إلى الأولى بصلة . . ليس لها ماض . . لا حاضر . . إنما هي تعيش اللحظة من أجل الفن . . وهي رسامة . . فنانة كبيرة . . لكنها هي وفنها غير معروفة في لأحد . الطيب يشير إلى أن عليها أن ترسم . وترسم . فالخلاص لن يأتي إلا عن هذا الطريق . . .

وبيتها الصغير يمتليء بالألوان وعدة الرسم . . ثم أنها ترسم . . وترسم . . حتى تستنفذ ما عندها من ورق وخشب وتببدأ ريشتها تغزو الجدران . ترسم . . من أعماق ذاكرتها . . مأسى الحرب . . ولا شيء غيرها : الذعر . . حطام الطائرات . . التزوح . . جرحى النابالم . . المرضى . . المستشفيات . . . لاستعمل إلا اللوينين الأبيض والأسود . تظل ترسم حتى الانطفاء . . حتى السكاء . ثم ترتدي مثل طفل ضائع في غابة . . وعندما تعود لحالتها الإعتيادية . تصرخ . .

تمزق اللوحات . . تحطمها . . وتنهار صامتة . . وليس
في وجهها أي تعبير .

الدكتور رأفت يشرف عليها . . يتلمس لها حبة شفاء
في بيادر الهالاك . . حالتها النفسية جمدت عند فترة الحرب . .
تصلبت . . الحرب احتلت ساحتها النفسية كأنها . . الحرب
أطفأت نورها . . تركتها في العتمة . . لتفريغ كل أحاسيسها
عن طريق الرسم . . ولترسم . .
وسيأتي العلاج بعد ذلك .

* * *

الأيام تمر . . ساخنة . . هادئة . . حزينة . . كما سامة .
كما المدينة . . كما كل شيء تحت هذه السماء من الأرض
العربية . .

سامية ترك اللونين الأبيض والأسود . . ترك مأسى
الحرب . . تبدأ ترسم بحراً شديد الزرقة . . ونوارس
بيضاء . . وقاربًا بشعاع . . واقفاً شمسه متوجحة حمراء .

وهي ترسم . . وإشراقة تلون وجهها . يرن جرس الهاتف تسرع رجاء لالتقاط السماعة . . تسبقها يد سامية :

— ألو . . سامية . . أنا كريم ؟

— كريم ؟ من كريم ؟

— أنا كريم . . زوجك ياحبيبي .

تختطف فادية السماعة بينما العرق يتصلب غزيراً من سامية وتقع لاهثة .

— يا أستاذ كريم سامية مريضة . . أنا قريبتها . . سأني إليك أين أنت ؟

— بل أنا سأني . . فوراً . . أردت ألا أفاجئها .

كريم يستغرب كل ما يروى له . رجاء تطمئنه أن حالة سامية جيدة . . هذا ما يقوله الدكتور رافت ، وفادية تروي له تفاصيل الحادث وتنصحه أن يقابل الطبيب المشرف قبل أن يواجهها . . خوفاً من صدمة أخرى . فالاناء المكسور لا يتحمل كسراً آخر .

الطيب يقول :

— الأفضل يا أستاذ كريم أن تدرج في تقديمك لها . .

وليس في هذه الفترة . . بل في الفترة الأخرى . . إنها في دور الظلام . . وعليها أن تنتظر لحظات النور .
— ولكن كيف ؟ أنا زوجها . . وواجبي أن أكون إلى جانبها . .

— وواجبنا نحن أن نحافظ عليها من الصدمات .
حالتها دقيقة وصعبة و .

ويستسلم كريم بصعوبة :

— حسناً . . ربما كان هذا مفيدةً لها كما تقولون .
كريم يترك البيت . . يقتلع نفسه منه دون أن يلتقي بسامية ، ينتقل إلى فندق . ويواصل اتصاله اليومي بالطبيب .
— أذا متفائل ياأستاذ كريم . . رسمت شيئاً غير مأسى الحرب . .

— مثل ماذا ؟
— رسمت بحراً . . وطيراً . . وزورقاً مسافراً .

* * *

و كريم يتذكر اللحظة . . لحظة اللقاء . كم تبدو له

ثمينة . . وحاسمة . . وحلوة مرة . . هل يستطيع أن يقبض على تلك اللحظة من أجل علاقة مقبلة مع سامية؟ كم أهملها.. أهمل روحها . . اعتبرها من ممتلكاته ومن كل الأشياء التي دخلت عالمه الخاص إلى الأبد . . مثل القصيدة مثل الوطن . . مثل المبادىء يتصرف بها كما يشاء. لكن سامية إنسانة . . من لحم ودم . . وهي كل يوم تتعرض لمؤثرات وتغييرات . . وها هي الحرب . . تقلب مفاهيمه . . تحدد له مفاهيم جديدة على مستوى العلاقات بين الأفراد على أقل تقدير . . يقرر أن يترك البلاد . . وأن يتهيأ للدراسة عليها في العلوم السياسية . . وأن يطير بسامية عن هذا الجو . . وأن يعوضها حبًّا وحناناً . . لابد أن يستمر في نضاله لكنه نضال من نوع آخر . . يتذكر ناجي : - نحن يا كريم نناضل بالفكر . . بالقلم . . بالكلمة الحرة . . نفشل إذ نكون مقاتلين . . نفشل إذ نكون اليد التي تنفذ الثورة لأننا فكر الثورة .

كريم أصبح يؤمن بما يؤمن به ناجي . . لكل دوره

في الثورة . والناجع هو الذي عرف دوره . . والسعيد من تمثل دوره . من أحلام ناجي أن يؤسس مجلة ذات مستوى فكري عال تخاطب العالم بعقل العصر وتخدم قضايا العرب . ترى هل يتحقق ناجي هذا الحلم ؟ أول ماسيفعله هو أن يتصل بناجي . . لكن عليه أولاً أن يوجه حياته في نهرها بعد أن أصبحت بلا ضفاف . عودته إلى بلاده شبه سرية . . وظروفه كأنها استثنائية . . وزوجته مريضة . . وهو في شبه عزلة .

في الفندق يفاجأً كرييم بوصول ناجي إلى العاصمة مع وفد من الصحافة العالمية . ناجي يبادره بالسؤال عنها . كرييم حزين . . ومشتت المؤماد . هل أصابها مكروه أثناء الحرب ؟ هل هربت ؟ هل يعرف كرييم بقصة الرسالة ؟ هل . . هل . .

كرييم ينقذه من هذا الحصار :
— عدت فوجدها على هذه الحالة . ونحن لم نتقابل

بعد .

لم يتقدّم فهل سيستطيع ناجي أن يقابلها إذن ؟
ليطمئنّ عنها من الطبيب . هذا ما يفعله ناجي . وعندما
ينفرد بالطبيب يحدّثه عن كل شيء . عن علاقته بها . .
عن مشاعرها نحوه . . عن الحب الذي غاب وراء بخار
الستين . . عن الزمن القاسي الذي فصلهما . . وعن الرسالة
أيضاً .

الطيب يقول له بمرارة :

— وضعلك بالنسبة إليها أخطر من وضع زوجها . .
أنت بقعة الضوء في حياتها . هي الآن في الظلام . . عليها
أن تجتاز بنفسها هذا الظلام لتصل إليها . . ولدينا الآن
أمل كبير .

— هل أبقى حتى ألقاها ؟ .

— الأفضل أن تظلّ هذا النور في خاطرها وذكراها . .
مادام كل منكما متزوجاً ولقاوهما يعني الفراق .

* * *

الطيب يشير على رجاء في فرات الإضاءة أن تحدثها

عن الأسرة . . عن زوجها . . عن السفر إلى بلاد جميلة . .
عن الأحلام السعيدة . ورجاء تفعل . . وسامية تستكين
مثل حمامه ودبعة لاتلبي أأن تغضب وثور وتحطم كل
شيء أمامها . . تنهم كل أحد . . وتتذكر الكل أحد .

وفادية التي كانت مهمتها أن تعيد نسج الخيوط مع
الواقع المعاش . . تحمل لها الصحف . . تعيد عليها الجيد
من الأنبياء . . تدثها عن أخبار المدينة . . ومن تعرف
من الناس والجيران بشكل عفوي ترك فادية واحدة من
الصحف . . كان فيها صورة ناجي وعنوان مخاضرة
وتاريخ عن حياته ومحاضراته وإقامته في البلاد . وسامية
تسرق الصحيفة . . تنكفي على ذاتها معها . . تفروها
خمسة ثم تعيدها إلى مكانها من جديد :
فادية التي شعرت بخطها قتول :

— هذه صحينة قديمة يسامية . . لا تهسي بها . .

— بل هي حديثة ياعزيزي . . صدرت بالأمس .

ومن خلال إحساسها بالذنب تختنق بالدموع لاتصدق

أن يأتي الطبيب الذي يلاحظ سامية في حالة جديدة فتقول :
— أنا أخطأت يادكتور في حق سامية .. أسمت إليها
من حيث لا أشعر .

— بل أحسنت صنعاً من حيث لا تشعرين . سامية
بدأت تتذكر الماضي وبوضوح .. النور يأخذ بابتلاع
الظلام . أيام وتعود إلى حالتها الطبيعية .

* * *

ناجي ينهي إقامته بمقر صحفى يقرر سفره دون فرصة
للقاء سامية فزوجته أبرقت له أنها مريضة . ودون أن
ينهى جدول محاضراته . سامية .. سامية . كانت أمنية
حياته أن يلقاها .. وأن يظل ليراها .. هي الصورة النابضة
لوطن مهزوم .

وفي المطار يفاجأ بسامية .. معذبة مثل مجدهية .. حزينة
مثل مجدهية . يتقابلان . يحمد الزمن لحظات .. ثم يفترقان :
— كم أشكرك يا سامية .. حاوأته أن أتصل بك
ففشلت ..

— وأنا قررت أن أودعك فنجحت .

— إنها الحياة ياسامية . . .

— بل هي حياتنا نحن .

ويودعها . . فيودع نجمة عمره . . وتعود هي بلاشمس
ولا قمر . . تعود لتغرق في الظلام .

وتسألاها فادية بذعر بينما رجاء ترتجف :

— أين كنت ياسامية ؟

— كنت أودع صديقاً غالياً . . شمساً غاربة . .
وحناً قد أفل .

وتطرق الفتاقان متأثرين إلى حد البكاء .

لكن الطبيب كان مستبشراً . . فأمام سامية الفرصة
أكبر للشفاء . النقاء بين كريم وسامية وقد بدأت بالشفاء
كان قسرياً . . وجافاً . . مثل خبز يابس لم تستطع سامية
أن تأكل منه لقمة . . ولم يستطع كريم أن يعطيه الطراوة
والفضاضة . مثل سنديانة تقف في وجه عاصفة قابلت سامية

زوجها . والزوج بدا عاجزاً عن إزاحة جدار الرصاص
الثقيل بينه وبين زوجته :

الجروح الذي في رأسها كان قد إلتام . . لم يبق منه
 سوى علامه :

— دعوني أقبل أثر الجروح من رأسك يساميه . .

— الجرح في رأسي شفي . . لكن رأسي لم يشف . .
أو أنه ليس لي رأس . . امرأة بلا رأس أنا يا كريم .

يضطرب كريم . لقاء قسري ومحظى والكلام يتدرج
مثل حجارة في واد . . كيف يخدشها عن السفر . . وتغيير
أسلوب نصاله . . وعن أمله في عطاء آخر . . لها . .
ولبلاده ؟ كيف يمكن لها أن ترك هذه المدينة وقد تركت
رأسها فيها ؟ كيف يشرح لها أنه سيمحبها أكثر . . وسيحب
بلاده أكثر بعد كل هذا الصقىع الذي يفصل بينهما ؟
كيف يجعلها تتصالح مع نفسها . . معه . . مع العالم ؟

يظل الحوار أصم . كل منهما وراء جدار . . جدار
سامية أكثر صلابة . جدار كريم رخو يتسلط مثل صفيح

ذائب ، سامية جامدة كتمثال . . . صامتة كتمثال . . .
والشك بنفسه .. بها .. بكل شيء ينمو في داخله مثل شجر
استوائي : هل يمكن أن تكون قد أحببت غيره ؟ قلبها
محطم . . روحها محطمة يستعيد أيامه معها . . كم كان
محططاً . . وكم كان قاسياً . . والحب أحياناً يتجلّ في
الخطأ . . وفي القسوة . . وهذا ما كان شأنه مع بلاده أيضاً .

يخرج من بيته العقيم مثل شجرة عقيم . . لا تفتح
زهراً . . لا تطرح ثمراً . . في الشوارع يضيع ، هذه
الأبنية . . هذا الإزدهار . . هؤلاء الناس الذين يتزايد
عدهم باستمرار . . هل يمكن أن يتظره كل ذلك من أجل
أن يساهم فيه . . وهو الذي كان دوره الأساسي أن يصنعه
لا أن يساهم فقط فيه ؟ إنه يتذبذب . . الحياة لا تنتظر أحداً .
لا يتوقف تدفقها على أحد . . ولا على ألف . . ينبعطف
إلى المقهى على ضياف بردى الذي كان يضمّه مع رفقاء
حيث كانوا يتناقشون . . ويتحمّسون . . وينحطّطون لثورة
آتية . . وهاهي الثورة قد أتت . . أما المقهى فقد أزالوه من

أجل بناء جديد . يذهب إلى الحارة حيث كان — البنسيون --
الذي عاش فيه فترة . . يجدها قد هدمت وشقوا من قلبها
شارعاً . يتذكر صاحبة البنسيون . وأيام الضيق والفقر .
ليست المدن وحدها هي التي تتغير . . بل البشر أيضاً .
ها هو أمام عالم بني من جديد . . وإن دمرته الحرب فسيبني
من جديد . . ولكن عوالمنا الداخلية هل إذا انهدمت تبني
من جديد ؟ وفي المجتمع . . ليس المهم مظاهر العمران
بل الإنسان .

ضائع في هذا العالم . هل هو واضح مع نفسه ؟ صادق
مع نفسه في أنه يريد كل ذلك من أجل بلاده وهل يريد أن يتسلل
سامية فقط ؟ لا . . إنه يريد أن يهرب . . وأن يقدم لسامية
كفارة عن كل ما مضى .

بلاده وسامية . . سامية وبلاده . كلاهما محظوظ
وكلاهما بحاجة إليه . ولكن . . ليس بهذا السبيل . .
يقرر كريماً أن يبقى . . وأن يبتعد عن سامية .
— سوف أترك هذا البيت يسامية . . لا يهم أن أسافر
أو لا أسافر إنما أنا سأنتظرك . . سأظل أنتظرك .

سامية تغلق على نفسها باب الصمت . . في عالم موحش بعيداً عن كل إنسان تعيش . . وحدها مع ذاتها ، مع ذكرياتها . . مع أقسى المرارة التي تذوقها في حياتها . وحيدة في بيتها . . وحيدة في وحدها . . وحيدة حتى واؤ زارها الآخرون .

ويأتي ذلك المساء . ليس مختلفاً عن أي مساء . . لكن سامية تشعر ان بيتها يغرق في الفراغ .. وأنه يعيش فيه اليوم . . وأن كل ما فيه عفن ينخر في الدود . . تقتحم الحالة صافية عالمها تود لو أنها لاتفتح لها الباب . . لكن شبح أمها . . وذلك النهار المشؤوم . . والحلم والرأس المقطوع .. كل ذلك يجعلها تكمل رسم هذه اللوحة المفزعة . . كما لو أنها تطل على الجحيم . . كما لو أنها تغدو نفسها في الجحيم . .

الحالة صافية ترتعد إذ تراها . . جامدة العين كالموتى . .

صغراء كالموتى :

— ماذا بك ياسامية . . الدم لا يصبح ماء . . ألاتأتين

لتسكنني عندي . بعد أن تزوجت رجاء وسافر باسم ابني . . ؟
الحالة صافية تقرأ تعاويذ . . تتمتم . . تمسح فوق رأس
ابنة أختها المتعب . . فوق جرحها الموشوم .

— وهذه الحرب أتلفتني ياسامية . . أشعر أنني
متعبة . إن لك عندي وديعة . . تركتها أملك عندي رحمة الله .
أوراق العائلة . . مستندات . . ووثائق . . ومذكريات
أبيك . . ولقد رأيت أخي هنية في المنام . . كان مناماً هبيأً .

سامية تصرخ :

— لا . . أرجوك ياخالي . . أنوسل إليك . . لاتعدني
أنت الأخرى . . مرة أخرى لاتقولي شيئاً عن المنام .
هاتي الأوراق .

وتجفف الحالة صافية . تودع سامية وهي تتمتم . وتنصرف
مسرعة .

في الليل تحس سامية صداعاً أليماً . . تكاد تنفجر . .
الألم حاد وعميق كما لو أن رأسها يحفر بسكين . . .
الألم ينحدر من أعلى الرأس . . إلى الصدغين . . يكاد يصل

إلى العنق . سامية وحيدة . . تحاول أن تخرج من بيتها . .
تريد أن تهرب . . عند أول السلالم تقف . . تشعر بدوار . .
تببدأ الدوامة تنفتح . تظل ثابتة . . تنفتح الدوائر الدموية . .
تقرر أن تدخل فيها بملء إرادتها . . لكن الدوائر سرعان
ما تنهزم . . تتلاشى . . تثبت عينها في الضوء الحافت .
يغدو شمساً باهرة الضياء . . الشمس تخترق رأسها . .
تصل إلى تلافيف دماغها . . تملؤها سخونة . ترجع إلى
داخل البيت . . تتناول الأوراق التي أعطتها إياها خالتها . .
تفتح الأدراج والخزائن . . تنشر الكتب والثياب . . تركل
بأقدامها قطع الأثاث واحدة واحدة .

تضرم النار في البيت ثم تخرج .

تحرق عالمها . . ولا تأخذ منه أي شيء . . سوى
وثيقة زواجهها من كريم . تتحسس الجرح في رأسها . .
تتذكرة نبوءة أمها . . تلمس عنقها برفق . .
وتشعر أنها تولد من جديد .

تشرين / ١٩٦٩

تمت

E.O.F

Exclusively

First published on the net by :

Passer By in Time

April 2009

Passerby_intime@yahoo.com

Passer by in time

ଓର୍ଦ୍ଦ ୧୦କରଣ କରଣ୍ଣୋର୍ଦ୍ଦ